الرؤية القومية لكتابة تاريخ الخليج العربي

د. مصطفى عبد القادر النجار
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

هناك جملة من الحقائق والمسلمات التاريخية لابد من الاخذ بها قبل الكتابة في تاريخ اية بقعة من الوطن العربي، هي ان تاريخ الامة العربية كل لا يتجزأ وان الكتابة في تاريخ الاقليم او القطر او المدينة لا يعني ان تلك البقاع عاشت بمعزل عن حركة التاريخ الذاتية للامة العربية، وان اصطناع اي تاريخ لاي بلد عربي يكون عبئا ثقيلا على الصناعة التاريخية وعلى صوت التاريخ.

من هذه الحقائق يستنتج ان التاريخ العربي مهما تعددت ميادينه ومسارحه وتشعبت جوانبه هو تاريخ واحد يرجع لاصل المنبع الواحد.

فتاريخ الخليج العربي هو جزء من تاريخ الوطن العربي. وان اي تغير يبتعد عن هذه الحقيقة لا يمكن ان يجد له المناخ الصالح للديمومة والبقاء. لذا فان اية دعوة برزت في منطقة الخليج العربي تدعوا الى الاسرية او العشائرية او القطرية او الاقليمية في كتابة التاريخ اجهضت ولم يكتب لها النجاح. والواقع ان منطقة الخليج العربي قد ابتليت بتلك الدعوات من لدن نفر اغراه الكسب المادي على حساب الامانة التاريخية، فأصطنع لبعض الاقطار تاريخا قديما ووسيطا وحديثا، وهم يضربون صفحا عن كل ما جرى في الوطن العربي في ميدان الفعل التاريخي، ويهملون التفاعلات التاريخية والحضارية ويعزلون تاريخ القطر الواحد عن الروافد التي صبت فيه وتلك التي صب فيها. ويخلون بوحدة التاريخ الكبرى التي يؤلف اي تاريخ قطري جزءا منها.

ان اي فصل بين اجزاء الحياة العربية المتماسكة عبر التاريخ او تقطيع الخيوط التي تربط ما بينها ، او اي سد مصطنع يقدم بين مجاريها ، واي انحراف من هذا النوع هو محنة كبرى يجب الوقوف بوجهها . واقسى ما يواجهه المؤرخ عندما يكتب في تاريخ الخليج العربي ان مصادر بحثه تتفاوت ما بين مصادر اجنبية كتبها مؤرخون اجانب لم ينصفوا المنطقة ولم يكتبوا بروح علمية مجردة ، وفهموا تاريخ الخليج العربي على انه تاريخ للعلاقات الخارجية الدولية ، واهملوا دور الشعب العربي في صنع التاريخ وكأن المنطقة تعيش فراغا . وبين مصادر دينية متطرفة تفهم التاريخ فهما طائفيا او مذهبيا او اميا ، ومصادر رسمية تفهم التاريخ على انه تاريخ الاسر والحكام والملوك .

ومصادر لا هذا ولا ذاك ، ولكنها متأثرة بمدارس الشرق والغرب فتقتات على فتات موائدها وتجد التبرير لتفسير الاحداث المحلية في الخليج العربي وفق القوالب الجامدة التي اقتبستها وكأن تاريخ الخليج العربي لا هوية له ، ومع هذا فمن الواجب الاعتراف بان هناك مصادر اصلية وعلمية ، وذات منهج قومي واضح تبشر بخير هي التي تعتمد من قبل المؤرخين العرب في الدراسات التاريخية المعاصرة ولنا ان نتساءل بعد ذلك عن نظرتنا الى تاريخ الخليج العربي ، وصلة هذه النظرة بالمدرسة التاريخية المعاصرة ، ومن الواضح ان اليقظة العربية الحديثة رافقها اهتمام واسع بالتاريخ العربي فبرز مؤرخون في الوطن العربي اخذوا دورهم في توثيق احداث الامة وكتابة تاريخها ، فكونوا وعيا تاريخيا يشمل منطقة الخليج العربي . فظهرت دراسات جادة تؤكد فكرة الامة ووحدة تاريخها ، وتدعوا الى تأكيد تاريخ الشعب في الخليج العربي لا تاريخ الحكام او الاسر او الطائفة او القبيلة ، لان دراسة التاريخ من تلك الزوايا تورث التجزئة .

كما ان الاهتمام بالتاريخ السياسي قد تم تجاوزه الى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والحضاري والفكري والعسكري والنفسي وبهذا فان الرؤية التاريخية لصيرورة الامة ومسارها عبر التاريخ قد اكتملت تفسيراتها ولم تبق اسيرة جانب واحد او نظرة ضيقة .

ومن هنا لابد ان نتفاءل بان تاريخ الخليج العربي بدأ في المرحلة المعاصرة يأخذ موقعه بين الكتابات التاريخية القومية ، وخرج من الطرق التقليدية والتفسيرات والمدارس والقيود والانحرافات والتشويهات التي ابتلي بها ردحا من الزمن ، باعتبار ان ازمة الواقع العربي المعاصر خلق وابداع للدراسات التاريخية ، ذلك ان الامة في اوقات محنتها تعود الى التاريخ لتستمد منه القوة ولتفيد في سعيها لبناء حياتها القومية الجديدة . وعليه ان المدرسة التاريخية العربية المعاصرة التي يتبناها اتحاد المؤرخين

العرب ويصر على نشر دعوته لاعادة كتابة تاريخ الامة من منطلق خصوصيتها واهدافها ورسالتها الخالدة تستدعي منا وقفة تاريخية شاملة لتجيبعن اسئلةاساسية عن واقع العرب في منطقة الخليج العربي المعاصر والقيم التي يؤمنون بها ويسعون لتحقيقها ومن اي جذر نبتت وتفرعت المعاصرة العربية في الخليج العربي ، وما هي عناصر قوتها وضعفها ، وما هي طبيعة التراث التي تؤمن به والنهضة التي تتوثب لبنائها . هذه المدرسة التي تبناها المؤرخون في الاتحاد تدلنا على ان الانسان العربي في الخليج العربي الذي يعيش الحاضر لا يمكنه ان يشيح بوجهه عن الماضي وان التنبه الى التاريخالقومي كان من اعظم اركان تلك المدرسة ، على ان تكون العودة الى التاريخ غودة اصيلةمتبصرة بوضحها فهم صادق لعلاقة الماضي بالحاضر والمستقبل . وتذهب المدرسة القومية التاريخية في الاتحاد الى انه كلما ارتفعت مراتب الانسانية عند الانسان العربي فيالخليج العربي ارتقت نظرة التاريخ وغزر فعله التاريخي ، وكلما كان وعيه للماضي اعمق اغتنى كيانه الانساني وزاد الحس التاريخي والفعل التاريخي لديه .

ان كتابة تاريخ الخليج العربي يجب ان ترتفع فوق مجرد رواية الاحداث وترديد الاخبار الى استجلاء معانيها وبيان اثارها في مشكلات الحياة المعاصرة ، والمساهمة في تنقية كيان المنطقة الذاتي وتاصيلهواغنائه ، والعودةالى سير الابطالوسجل الانتصارات وروائع الادب والشعر ، ومآثر العلم والاخلاق والقيم والمبادىء لبناء حياة الخليج العربي الجديدة .

ولهذا بات واضحا بان الصناعة التاريخية تلك تكاد تكون صعبة ، فهي تنطوي على سلسلة من الجهود المحكمة المتتابعة تبدأ في اكتشاف الاثر او الوثيقة الخليجية التي خلفها الماضي وتنتهي بالتاليف التاريخي لبلوغ الهدف السامي . ولا بدهنا منان نذكر بان تلك الايجابيات قد تخفي بين طياتها سلبيات او مصاعب في كتابة تاريخ الخليج العربي ، يجب ان تتنبه لها المدرسة القومية التاريخية المعاصرة اذا ما اردنا لتاريخنا في الخليج العربي المجد وعدم الشطط ، ومن تلك السلبيات تجزئة الحقيقة التاريخية التي تكون في كثير من الاحيان اصطناعية وحصر النظر في الجزيئات ،وعجز بعض المؤرخين عن رؤية الصورة شاملة ، فياتي انتاجهم مخلا مضللا .. وهذا ما وقع فيه مؤرخون كتبوا عن تاريخ الخليج العربي وهم في الوقت نفسه يتبنون الدعوة لاعادة كتابة ما شوه منه .

فاختيار المصطلح التاريخي بات من اولى ضرورات البحث التاريخي فلا يمكن اقرار مصطلح الانسان الخليجي مثلا او الحضارة الخليجية او التراث الخليجي او الثقافة الخليجية وغيرها في وقت تدعو المدرسة التاريخية الجديدة لاصلاح ما افسده الدهر .. ذلك ان منطقة الخليج العربيعاشت وحدة سياسية وحضارية وتراثية

وثقافية مع المنطقة العربية دون اية فواصل او حواجز او تباعد ، فلماذا تشاع تلك المصطلحات . ولو اقرت تلك المصطلحات مثلا لاصبح بالامكان استعمال مصطلح انسان البحر الاحمر والبحر الابيض والبحر العربي ، وكل الخلجان والبحار العربيةالاخرى.

كما ان كتابة تاريخ الخليج العربي المعاصر متأثرة جدا للاسف الشديد بالوثائق الاجنبية للاقوام التي غزت المنطقة وتركت بصماتها عليها ، فظهرت دعوات لاعتماد الوثيقة وكأنها آية قرآنية لها قدسيتها في وقت نحن نعلم ان تلك الوثائق كتبت من قبل الرسميين الاجانب الذين حكموا المنطقة ونقلوا تصوراتهم الى حكوماتهم وفق الرؤية الخاصة بهم لخدمة مصالح بلدانهم ، فلا تمثل كتاباتهم والحالة هذه كل الحقيقة وانما تعبر عن الصورة ناقصة . لذا فان الدعوة للاخذ بالوثيقة الخليجية هي ان تخضع لتمحيص وتدقيق ودراسة ومقارنات واعية وشاملة وعميقة بغية توثيق حقائقها والاخذ بما يمثل الحقيقة التاريخية فقط .

هذا من جانب ، ومن جانب اخر فان اية دراسة تاريخية لمنطقة الخليج العربي لا تعتمد الوثيقة اساسا لها ، تبقى دراسة احادية الجانب تنظر للحدث التاريخي بعين واحدة . فالوثيقة سند المؤرخ في الكتابة التاريخية . ومن هنا يجب الاخذ بالموازنة في استعمال ادوات البحث التاريخي ..

واخيرا فان التفسيرات التاريخية التي قطعت شوطا كبيرا من اجل ان تحقق المدرسة العربية للتاريخ الحديث في الاتحاد اهدافها قد عالجت مثل تلك السلبيات واعطت نتائج مثمرة يمكن اعتمادها كدليل عمل للمؤرخين العرب في منطقة الخليج العربي حيث نالت تلك المجالات نصيبا واضحا من اهتمامها وعالجت جذورها وسلطت الضوء على دوافعها والمؤثرات العامة التي اثرت فيها ووضحت خصائصها في كل مجالات كتابة التاريخ التي عانت منها .

والمدرسة التاريخية العربية المعاصرة ، اذ تدرس تاريخ الخليج العربي ، تدرسه لتعزز وجهة النظر العربية لاغراض النضال والصمود وقدرة الامة في التقدم الى الامام. ولتنتشل ابناء الامة من التفسيرات البغيضة الحاقدة التي تحاول تشكيك ابناء الامة بذاتهم ، وبماضيهم وقدراتهم وفكرهم الخلاق ..

السمات الأساسية للحركة القومية العربية
في ظل تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة في سورية
(١٩٤٩ ـ ١٩٦٣)

د. نجاح محمد
جامعة دمشق

القومية العربية كحركة وتطور تاريخي:

القومية العربية كحدث اجتماعي وكرابطة تاريخية داخل التاريخ لابد وان تخضع ، بالضرورة ، لقوانين التاريخ ولحركته التطورية مما يعني تغيرها وتبدلها المستمرين ، شكلا ومضمونا ، على مر المراحل التاريخية التي تمر بها .

في حديثنا عن البدايات التاريخية للقومية العربية علينا ان نميز بين بدايتها كواقع اجتماعي عربي ، وبدايتها كفكرة قومية ، وبدايتها كحركة سياسة . بدايتها كواقع اجتماعي عربي مرتبطة ببداية وجود الامة العربية والتي ترتبط ، بدورها ، ببداية وجود التجمع البشري العربي الاول منذ الاف السنين قبل الميلاد ، وبدايتها كفكرة كانت مع بداية هذا الواقع الذي التحمت معه بعلاقة جدلية تبادلية وتطورت بتطوره ، واسهمت في عكسه والتعبير عنه ، كما ساهمت في تغييره وتحويله ، وكل هذا عبر مسيرة التاريخ العربي الطويلة التي شهد فيها اشكالا كثيرة من اشكال الوحدة الاجتماعية والفكرية والحضارية عند العرب .

تطورت الفكرة القومية خلال هذه المسيرة منتقلة من مرحلة اللاشعور الى مرحلة الوعي العادي لرابطة الانتماء العروبية ، الى مرحلة الوعي المعرفي لهذه العروبة ، ثم الى مرحلة الوعي الايديولوجي الذي هو قمة الوعي واساسه المحرك الدافع للفعل والنضال . ورسالة الاسلام العروبية في القرن السابع الميلادي كانت مؤشر وصول العرب الى مرحلة الوعي الاخيرة هذه ، فكما كان الاسلام بمضمونه الحضاري استمرارا لحضارة العرب القدماء منذ الاف السنين فقد كان بمضمونه القومي العربي الاجتماعي التحريري الموحد مؤشرا الى وصول الواقع الاجتماعي المادي ـ الروحي العربي الى مرحلة الامة العربية ، اولا ، وتعبيرا عن وصول الفكرة القومية الى مرحلة الوعي

الأيديولوجي ، ثانيا ، وبداية للقومية العربية كحركة سياسية هادفة لتوحيد العرب في ظل دولة عربية واحدة ؛ ثالثا . وكما كانت توحيدية الاسلام الدينية استمرارا للتوحيدية الدينية العربية القديمة ، التي نادى بها كل الانبياء العرب قبل الرسول العربي محمد ، فقد كان الاسلام ، بالتالي ، استمرارا للشكل الديني للفكرة القومية والذي كانت تعبر عنه هذه التوحيدية الدينية العربية القديمة بمختلف مسمياتها: الحنيفية والموسوية والمسيحية وغيرها .

وهكذا كان القرن السابع الميلادي بداية للقومية العربية كحركة سياسية ذات مضمون وحدوي عروبي محرر موحد وشكل ديني اسلامي . كانت الرابطة العروبية عند بداية هذه الحركة هي نفسها الرابطة الاسلامية فكانت صفة المسلمين ، استنادا للقرآن الكريم(١) ، تضم كل المؤمنين بالرسالات السماوية الاخرى،وفي الجزيرة العربية كانوا كلهم من العرب ، وبهذا فقد كان للعروبة نفس المحتوى البشري الذي كان للاسلام .

بقي هذا التطابق بين الرابطتين مع بقاء هذا المحتوى وبقاء انسجام الشكل الاسلامي للحركة القومية العربية مع مضمونها القومي العربي ، وانتهى بنهاية انسجامه أو بداية تناقضه معه . حدث هذا التناقض نتيجة لازدياد وجود ونفوذ العناصر المسلمة غير العربية وخاصة الشعوبية ، وقيامها ،بقصد أو عن غير قصد ، بضرب وجود ونفوذ العناصر العربية المسلمة وغير المسلمة ، مما ادى الى تعميق التناقضات شيئا فشيئا في الواقع العربي وعلى الساحة السياسية ما بين الرابطة الأسلامية ، التي تغير مدلولها وضاق لينحصر في اطار المسلمين ممن امن بالرسول العربي محمد فقط ، وليضم كل المسلمين من مختلف القوميات من عرب وغيرهم ، وبين الرابطة العروبية التي ضمت كل العرب بكافة انتماءاتهم الدينية . وصلت هذه التناقضات الى نقطة اللالقاء نتيجة لازدياد دور الشعوبية المتسترة بستار الاسلام في تهديم الدولة العربية الاسلامية ثم نتيجة لقيام دولة اسلامية باحتلال الوطن العربي ، فكان الاحتلال الفارسي ثم الاحتلال العثماني التركي الذي لم يكتف بالاحتلال العسكري وانما مارس ابشع اساليب الاستعمار الاجنبي من تجزئة وتفرقة واستغلال ، وتعميق لكل مظاهر الفقر والتخلف.

كانت اواخر القرن التاسع عشر فترة وضوح التناقض بين الرابطة العثمانية التي تتقنع باللباس الاسلامي والرابطة العروبية نتيجة لقيام السلطات التركية بالتفريط بالارض العربية وبالتساهل مع اعدائها وعلى رأسهم الصهيونية(٢) ، وتبنيها سياسة التتريك ومحاولة ضرب الذات القومية العربية ، فكانت ، بالتالي ، نقطة الفصل بين الرابطتين لصالح الرابطة العروبية . ونقطة الفصل هذه كانت بدورها بداية الشكل

العروبي للحركة القومية العربية ، الشكل الذي جاء اكثر انسجاما مع مضمونها القومي الذي يضع الانتماء للعروبة فوق كل انتماء اخر ويعتبر العروبة بالنسبة للعرب الام التي تنتسب اليها كل الاديان ، فالعرب كما قال الامير فيصل في احدى خطبه في عام ١٩١٨ : « عرب قبل موسى وعيسى ومحمد »(٢) .

بداية القومية العربية اذا حركة سياسية وبايديولوجية عروبية، شكلا ومضمونا، كانت في اواخر القرن التاسع عشر وبهدف تحرير الوطن العربي من الحكم العثماني التركي واعادة توحيده في ظل دولة عربية واحدة . اما بالنسبة للايديولوجية القومية العربية ، فما هي الا تعبير عن مضمون القومية العربية وشكلها في مرحلة تاريخية من تطورها. من هنا فانه لا يجوز حصر القومية ضمن اطار الايديولوجية من باب عدم جوازية حصر الكل في الجزء ، وبالتالي ، فلا يجوز اعتبار القومية العربية ، مثلها مثل اية قومية ، ايديولوجية طبقية معينة ومطلقة(٤) كما هي الحال عند النظرية الستالينية ، فالايديولوجية القومية مختلفة باختلاف الواقع الاجتماعي وباختلاف المرحلة التاريخية التي يمر بها هذا الواقع .

ينتج من ذلك ان اختلاف الواقع القومي الاجتماعي العربي ما بين مرحلة واخرى هو عامل اساسي هام في اختلاف الايديولوجية القومية العربية ، اي في اختلاف المضامين والاشكال الفكرية والسياسية والاجتماعية والتنظيمية للحركة القومية العربية ما بين هذه المرحلة والاخرى . يقود هذا الى ان المعيار الاساسي لتحديد المراحل التاريخية الرئيسية لتطور الحركة القومية العربية في بلد ما هو طبيعة تطور البنية الاجتماعية المهيمنة على الواقع القومي والاجتماعي والسياسي في هذا البلد . انطلاقا من ذلك نستطيع القول بان الحركة القومية العربية في سورية وحتى في الوطن العربي عموما قد مرت في خمس مراحل رئيسية في تطورها في الفترة التاريخية الممتدة منذ بداياتها ، كحركة سياسية عروبية في اواخر القرن التاسع عشر ، وحتى يومنا هذا. والمراحل الخمس بالنسبة للاحداث التاريخية في سورية هي الاتية :

المرحلة الاولى : مرحلة هيمنة الاقطاع ، وامتدت منذ اواخر القرن التاسع عشر وحتى قيام الثورة العربية الكبرى في حزيران ١٩١٦ والتخلص من الاحتلال التركي .

المرحلة الثانية : مرحلة هيمنة البرجوازية الكبيرة ، وامتدت من الثورة العربية حتى الاحتلال الفرنسي لسورية عام ١٩٢٠ .

المرحلة الثالثة : مرحلة هيمنة البرجوازية الوطنية ، وامتدت من الاحتلال الفرنسي حتى الانقلاب العسكري الاول عام ١٩٤٩ .

المرحلة الرابعة : مرحلة هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة، امتدت من انقلاب الزعيم وحتى ثورة اذار ١٩٦٣ .

المرحلة الخامسة : مرحلة هيمنة تحالف الطبقات والفئات الكادحة (٤ب) من ثورة اذار ١٩٦٣ وحتى يومنا هذا .

* * *

قبل الخوض في صميم موضوع البحث « **السمات الاساسية للحركة القومية العربية في ظل هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة (١٩٤٩ – ١٩٦٣)** » اي في مرحلتها التاريخية التطورية الرابعة ، نجد من الضروري أعطاء **لمحة موجزة عن صورة الواقع الاجتماعي في سورية في المرحلة التاريخية السابقة ، اي في ظل الاستعمار الفرنسي** ، لنتوصل بعد ذلك الى فهم افضل للحركة القومية العربية في ظل هيمنة التحالف المذكور .

ان الاستفادة من سورية كمنطقة سياسية استراتيجية هامة في الشرق العربي وفي شرقي المتوسط كنافذة على اسيا لم تكن كافية لارضاء فرنسا التي ارادت تحويل سورية أيضا الى مصدر كبير لزيادة اغناء دولتها وشركاتها الراسمالية . هذا مايفسر السياسة الاقتصادية التي انتهجتها سلطات الاحتلال الفرنسي في سورية والتي استطاعت من خلالها التأثير الكبير على العمليات الاقتصادية الجارية فيها(٥) والتصرف بها جميعا بما يتناسب ومصلحة فرنسا وشركاتها فقط ، كرفع التعرفة الجمركية متى ارادت وتنظيم الاتفاقيات بحيث تعرقل عملية تصدير الصناعة المحلية ، فتوقفت كثير من الصناعات الوطنية والحرفية والمنزلية والمانيفاتورية(٦) . وعرقلت السياسة الاقتصادية الفرنسية نمو رؤوس الاموال الوطنية ، وبالتالي قيام صناعة محلية تنهض على اساس وجود المعامل والمصانع في سورية(٧) ، مما قاد الى ضعف البرجوازية الوطنية وعدم تطورها ، وقاد هذه البرجوازية الى الهرب من توظيف أموالها في الصناعات ودفع بعضها الى المراباة او الهجرة او الى شراء الارضي . ووضع البرجوازية هذا قادها الى النقمة اكثر فاكثر ضد المستعمر الفرنسي . اما العمال فقد زاد تواجدهم نسبيا بالنسبة للسابق .

أما في الريف كانت خطة فرنسا تقضي بتحويله الى واحد من اكبر مصادر تزويدها بالمواد الزراعية ، فتحالفت مع الاقطاع وشجعته وعملت على ادخاله الى ميدان التبادل التجاري لتزيد من سيطرتها عليه فيكون وسيطها لتحقيق خطتها هذه ، خاصة وانها لم تكن ترغب في استثمار رؤوس الاموال الفرنسية في الزراعة نتيجة لتخوفها الدائم

من التحركات الوطنية المستمرة ، وبالتالي ، لخوفها من أن تطرد من البلاد(٨) مابين يوم واخر . ما تقدم يفسر تلك الاجراءات التي قامت بها سلطات الاحتلال كتوزيع الاراضي المشاع واراضي الدولة على الاقطاعيين والسماح لهم وللمرابين بشراء اراضي الاوقاف وغيرها لتزيد من مساحة الاراضي الزراعية في أيديهم ، كما يفسر غض النظر عن عملية تجريد الفلاحين من اراضيهم من قبل رجال الاقطاع الخ. كل ذلك قاد الى زيادة مساحة الاراضي الزراعية الكبيرة التي تملكها بعض الافراد(٩) في حين نقصت مساحة الاراضي الزراعية التي كان الفلاحون يمتلكونها(١٠) ، مما اضطر كثيرا منهم الى العمل كإجراء زراعيين . ان سياسة فرنسا هذه في تعزيز العلاقات الاقطاعية وسياستها الاستعمارية الاستغلالية عموما قد أدت الى أزدياد حالة الفلاح السوري بؤسا واستغلالا وتخلفا .

وبشكل عام ، تشكلت البنية الاجتماعية لسورية في نهاية فترة الاحتلال الفرنسي من الفئات الاجتماعية الرئيسية الاتية :

١ ــ **طبقة الاقطاع** التي تحالفت مع سلطات الاحتلال وتحول بعضها وبدعم هذه السلطات الى برجوازية زراعية تابعة(١١) .

٢ ــ **طبقة البرجوازية الكبيرة** ، وابرزها : أ ــ الكومبرادور والبرجوازية الزراعية ، ودعمتهما الامبريالية الفرنسية فوضعتا نفسيهما بخدمتها(١٢) ، ب ــ البرجوازية الصناعية : وقد نمت قليلا بالنسبة للسابق الا أنها بقيت ضعيفة للاسباب التي ذكرناها ، وكانت والبرجوازية التجارية التي نزعت منها مراكزها(١٣) معباة بمشاعر النقمة ضد المستعمر الفرنسي المحتل للوطن وبمطامح التطلع الى استلام السلطة بعد اجلائه عنه ، مما يفسر وجودهما في صفوف الحركة الوطنية والقومية .أما خروج برجوازية الكومبرادور من قيادة الحركة القومية العربية في هذه المرحلة ، فقد كان بسبب عمالتها وموقفها السلبي من النضال الوطني والقومي ضد الاستعمار الفرنسي .

٣ ــ **الجماهير الكادحة** ، وتشمل الفئات الاجتماعية التي لا تملك سوى جهدها المادي والعضلي ، وجهدها الفكري ، كالعمال وقسم من المثقفين وصغار الفلاحين والموظفين وغيرهم ، الى جانب الفئات الاجتماعية المالكة لراس مال صغير ، أي البرجوازية الصغيرة ، كالحرفيين وأصحاب المهن الحرة وغيرهم .

فالبنية الاجتماعية للحركة الوطنية والقومية كانت في غالبيتها من صفوف هذه الفئات الاخيرة ، أي فئات الجماهير الكادحة وخاصة المثقفين وصغار الفلاحين . ان

الشعور الوطني في ظروف الاحتلال الاجنبي ، شعور الارتباط بالارض ، وبالذات ، وجودا وثقافة وتاريخا ، اي شعور الارتباط بالذات قوميا ، كان وما زال عند الجماهير السورية فوق كل شعور اخر ، كما كان الارتباط بالارض وما زال فوق كل ارتباط.

احتل الاستعمار الفرنسي الارض السورية وتقاسمها مع حلفائه المستعمرين الاتراك والانكليز والصهاينة وجزاها مصطنعا حدودا جديدة لم تكن موجودة . ولكي يمنع اية وحدة وطنية وقومية ، من شانها ان تهدد وجوده وسياسته في سورية ،لجأ الى بث التفرقة ، الدينية والمذهبية والاقليمية وغيرها ، ومحاولة تعميقها بكل انواعها في صفوف المجتمع السوري . ولاتمام ما بداه الاستعمار التركي من ضرب الذات القومية في الصميم ، عمد الى محاولة طمس التراث العربي القومي وطمس مضامينه التقدمية وخاصة ما تعلق منها بنقاط الوحدة التي كانت تجمع ما بين العرب ،ومحاولة تقويض كل دعائم الثقافة القومية(١٤) وتشويه التاريخ العربي الحضاري بما يبرز نقاط الاختلاف بين العرب ويخدم ، بالتالي ، سياسة التجزئة والتفرقة والتي تحقق بالطبع، اهداف المصالح الاستعمارية عموما في الوطن العربي.

كان النضال الوطني والقومي في سورية رافضا لوجود الاستعمار الفرنسي بكل وجوهه ، السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان ، قبل كل شيء، متمسكا بالارض والاستقلال والذات القومية ولم يتوقف حتى استرجعت الارض وكان الاستقلال . وبالرغم من وجود قيادات فلاحية بطولية كبيرة لهذا النضال فقد استطاعت البرجوازية الوطنية الهيمنة على شؤونه وقيادته منذ الثورة السورية الكبرى ، كما استطاعت الهيمنة على السلطة وامور الحكم في هذه المرحلة بسبب استنفاذ الامكانات المادية للقيادة الفلاحية ، ونظرا لامكاناتها المادية ولقوة نفوذها وحشد قواها السياسية وتنظيمها في تكتل سياسي واحد اخذ اسم « الكتلة الوطنية » استلم شؤون النضال الوطني وبعض امور الحكم في سورية منذ عام ١٩٢٨ .

تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة :

ان نجاح الحركة الوطنية والقومية في ظل هيمنة البرجوازية الوطنية في الحصول على استقلال البلاد واجلاء جيوش الاستعمار الفرنسي منها في عام ١٩٤٦ وفي المساهمة في خلق الجامعة العربية كان انجازا قوميا هاما ، لكن فشل هذه القيادة ، التي استلمت امور الحكم في سورية كليا في الفترة التي اعقبت الاستقلال ، والذي ظهر في معالجتها لعدة قضايا وطنية وقومية اساسية، قدغطى على نجاحها هذا وجعله منقوصا ،واهم هذه القضايا كانت قضية وحدة سورية بحدودها الطبيعية التي كانت لها قبل الاحتلال الفرنسي ، وقضية لواء اسكندرونة ، وقضية فلسطين ، ثم الهزيمة امام

اسرائيل في الحرب الاولى في ايار ١٩٤٨ . ولم تكن ظاهرة استلام الجيش لامور السلطة المدنية سوى نتيجة طبيعية لفشل القيادة البرجوازية الوطنية هذا ، ولفشلها حتى في تسيير امور الحكم . ما تقدم ، بالاضافة الى وضوح عجز هذه البرجوازية عن القيام بمهام الثورة الصناعية والقومية والديموقراطية نتيجة لظروف نشأتها ولضعفها ولوضوح عجزها عن الاستقلال عن الراسمالية العالمية ، ادى الى ضعف تأثيرها ونفوذها في سورية شيئا فشيئا سواء داخل الحركة القومية العربية او خارجها .

زاد في ضعف البرجوازية الوطنية هذا عدم الاستقرار الذي تعرضت اليه البلاد نتيجة للانقلابات العسكرية من جهة ، ونتيجة ممارستها لعبة المحاور العربية من جهة اخرى، مما ادى الى انقسامها وتشتت قواها ، فقسم منها وغالبيته من برجوازية حلب تبني الدعوة الى ارتباط سورية بالمحور العراقي ــ الاردني الهاشمي ، وقسم اخر وغالبيته من برجوازية دمشق تبني الدعوة الى ارتباط سورية بالمحور السعودي ــ المصري .. وقد وصل الصراع في أوساط الحزبين اللذين كانا يمثلان البرجوازية السورية عموما آنذاك ، وهما « الحزب الوطني » و « حزب الشعب »(١٥) ، وفي أوساط الحركة القومية العربية بشكل عام ، حدا كبيرا بسبب لعبة المحاور العربية هذه ، التي سببت انقسام الحركة الى ثلاثة اتجاهات رئيسية : الاول وعلى راسه حزب « الشعب »(١٦) تبنى الدعوة الى انضمام سورية الى المحور العراقي ــ الاردني الهاشمي ، والثاني وعلى راسه « الحزب الوطني »(١٧) تبنى الدعوة الى انضمام سورية الى المحور السعودي ــ المصري ، والثالث ، وعلى راسه « حزب البعث العربي » ، دعا الى الوحدة العربية بشموليتها بغض النظر عن جميع المحاور ، وضرورة معالجة أية مسألة مطروحة على الساحة السياسية الداخلية والعربية والدولية من خلال منعكساتها على القضية الوطنية والقومية بشكل عام .. وبناء عليه هاجم هذا الاتجاه لعبة المحاور واعتبرها لعبة استعمارية لعرقلة الوحدة العربية الحقيقية والاساءة اليها(١٨) .

أن خضوع البرجوازية الوطنية السورية للعبة المحاور العربية زاد في ضعف تأثيرها ونفوذها في الحركة القومية العربية وفي سورية بشكل عام. ومقابل هذا الضعف توضح ازدياد تأثير ونفوذ وجود الفصائل اليسارية المؤلفة من الفئات الكادحة في أوساط العمال وصغار الفلاحين والبرجوازية الصغيرة ، وقد مثلها حزبا « البعث العربي » و «العربي الاشتراكي » اللذان ما لبثا ان اندمجا ليشكلا حزب « البعث العربي الاشتراكي » في أواخر عام ١٩٥٢ ، وكان نفوذ الفصائل اليسارية هذه واضحا في الجيش ايضا ومن خلال الضباط البعثيين بشكل خاص .

اما تأثير البرجوازية الصغيرة عموما فقد كان واضحا في المجتمع السوري ككل،

وذلك بحكم تواجدها الواسع فيه نتيجة لضعف الاقتصاد الراسمالي ونتيجة لهيمنة الاقتصاد الصناعي الصغير والملكية الصغيرة في سورية .

ادركت البرجوازية السورية الوطنيةهذا الواقع العام ومدى تأثيره على الاحداث، وادركت ان ضعفها وفشلها المذكور في المرحلة السابقة لا يخولانها القيام وحدها ،بعد الان ، بقيادة الحركة ، ولا بالوصول الى الاستقرار الضروري لصيانة راس مالها وتحركه ، ولا بتسيير امور الحكم في البلاد ولابالقضاء على حكم الشيشكلي الدكتاتوري الذي توضحت معالم وجهه المتناقض مع مصالحها فتمرد على طلباتها بعد فترة، وادركت أيضا ان تحالفها مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور غير قادر على القيام بهذه المهام لان تأثر هاتين الفئتين كان ضعيفا ومحدودا جدا ، سواء داخل الحركة أم خارجها ، وذلك لضعف تواجدهما ولوضوح عمالتهما لسلطات الاحتلال الفرنسي ولتراجع تأثير فكرهما اليميني مقابل تصاعد تأثير الفكر والاتجاه اليساري عند الجماهير السورية بشكل عام وعند جماهير الحركة القومية العربية بشكل خاص. ادراك البرجوازية الوطنية هذا دفعها الى التوجه نحو البرجوازية الصغيرة للتحالف معها ، سواء داخل الحركة أم خارجها ، وفي نيتها استخدام هذا التحالف لخدمة اهدافها ومصالحها بالدرجة الاولى ، هذا التحالف لم يعن تخلي البرجوازية الوطنية عن تعاملها وتعاونها مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور اذ استمرت بالتمسك به بغاية تنسيق جهودها معهما ومع الفصائل اليمينية في البرجوازية الصغيرة من اجل كبح تصاعد الاتجاه اليساري في سورية بشكل عام وفي حركتها القومية بشكل خاص . ولا شك ان هذا الكبح كان من الاهداف الرئيسية التي كانت وراء تحالف قسم من عناصر البرجوازية الوطنية مع قيادة « حزب البعث » آنذاك ، حيث كان في نيتها ان تجعل من هذا التحالف لجاما للاندفاع القومي الاشتراكي لجماهير هذا الحزب. ولم يكن « التجمع القومي » الذي سيطر على امور الحكم منذ عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٥٨ الا تعبيرا عن هذا التحالف .

السمات الاساسية للحركة القومية العربية (١٩٤٩ ـ ١٩٦٣) .

I ـ تصاعد الاتجاه اليساري حتى قبيل قيام الوحدة السورية ـ المصرية.

١ ـ الضغط الاستعماري ورد الفعل الوطني والقومي عند الجماهير السورية:

ان الشعور بضرورة وحدة النضال ضد الحكم الدكتاتوري قد ساهم في توحيد القوى الاجتماعية للحركة القومية العربية بمختلف اتجاهاتها الفكرية والسياسية ، وهذا ما يفسر تواجدها جميعا في تنظيم « التجمع الوطني » الذي تشكل في اواخر حكم الشيشكلي والذي ضم ممثلين عن حزب « البعث » و « الحزب الوطني » وحزب

« الشعب » وبعض المستقلين . مثل « البعث » الاتجاه اليساري في حين كان حزب « الشعب » يمثل الاتجاهالتوفيقي و «الحزب الوطني » يمثل الاتجاه اليميني ، لا شك ان وحدة نضال التنظيمات السياسية للقومية العربية في سورية ضد حكم الشيشكلي كانت سبب نجاحها في اسقاطه في شباط ١٩٥٤ ، لكن الدور الاكبر بهذا النجاح كان لحزب « البعث » .

عكس هذا التجمع ، من جملة ما عكس ، تحالف القوى الوطنية والقومية المنظمة وتحالف القوى البرجوازية،وان نهايته بانهيار وسقوط الدكتاتورية لم تكن نهاية هذا التحالف ، فبقي مستمرا ، وساهم استمراره في تأزم الصراع داخل الحركة القومية وفي الانشقاقات التي تعرضت لها بعض تنظيماتها نتيجة رفض قسم من قواعدها وقلة من قيادتها استمرارها فيه .. من المؤكد من أهم الاسباب لاستمرار هذا التحالف الذي هيمن على الحكم باسم جديد هو « التجمع القومي » كان ادراك غالبية قيادي وجماهير اطرافه لمدى الاخطار التي كانت تهدد سورية في تلك الفترة بسبب تصاعد الضغط الاستعماري الغربيعليها لجرها الى مشاريعه والانضمام الىاحلافه ،وادراكها، بالتالي، لضرورة الوحدة الوطنية للتصدي لهذه الاخطار . ولم تكن هذه الوحدة، سواء داخل الحركة ام خارجها ، النتيجة الهامة الوحيدة لتصاعد الضغط الاستعماري على سورية ، فلقد كان هناك نتائج هامة اخرى صبغتالحركة القومية العربية بصبغتها في هذه المرحلة ، وسنكتفي بتعداد أبرزها :

أ ـ تصاعد موجة العداء لـ « الغرب » : اصبح موقف الرفض او الموافقة على ارتباط سورية بـ « الغرب » ، تحت أية صيغة كانت ، المعيار الاساسيلليسار واليمين في هذه المرحلة سواء داخلالحركة او خارجها ؛ وادى بروز حزب «الشعب» على انه من مؤيدي التحالف مع « الغرب »» من جهة(١٩)» وبروز موقف « الحزب الوطني »» بعد انشقاقاته الداخلية ، ضد هذا التحالف ، من جهة اخرى(٢٠) ، الى تبادل تمثيل الاتجاهين اليميني والتوفيقي في الحركة القومية بين هذين الحزبين في الفترة الاخيرة من هذه المرحلة فقد اصبح حزب « الشعب » هو الذي يمثل اليمين و « الحزب الوطني » يمثل التوفيقية ، بعد ان كان العكس في بداية المرحلة.اما « البعث » الرافض لاي تحالف مع « الغرب » فقد بقي الممثل الاساسي لليسار القومي العربي .

ب ـ تأجج الشعور القومي عند الجماهير السورية : توافقت الضغط الاستعماري على سورية مع بروز نظام عبد الناصر كنظام عربي معاد للاستعمار نتيجة لتصديه للاستعمار الانكليزي وتاميمه لقناة السويس وصموده أمام العدوان الثلاثي الانكليزي ـ الفرنسي ـ الاسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦ .. وقفت سورية الى جانب مصر في هذه

الحرب ، ثم وقف عبد الناصر الى جانب سورية اثناء معركتها ضد « حلف بغداد » ومشروع ايزنهاور واثناء التهديدات التركية لها ، والتي كانت فصلا من فصول الضغط الاستعماري عليها . كل ذلك كان له اكبر الاثر في تأجج الشعور القومي عند الجماهير السورية ، من جهة ، وفي توجهها نحو مصر وزعامة عبد الناصر للامة العربية من جهة اخرى . ولقد كان لهذا التوجه اكبر الاثر في قيام الوحدة السورية ـ المصرية في عام ١٩٥٨ ، حيث « وصلت موجته الى درجة لم يكن ليجرؤ احد على معارضتها والوقوف في وجهها »(٢١) . مما دفع اليمين والقوى الانفصالية الى ركوبها والتستر بها انتظارا للحظة المناسبة لضربها . من هنا جاء اشتراك البرجوازية الوطنية السورية في صنع وحدة ١٩٥٨(٢٢) . وقامت قواعد حزب « البعث » وقيادته، وقيادة « حركة القوميين العرب » بدور فعال في توجيه هذا الشعور نحو الوحدة مع مصر ونحو زعامة عبد الناصر .

جـ ـ وضوح انقسام الوطن العربي الى معسكرين : المعسكر التقدمي الرافض لاي تحالف مع الغرب وتحت اية صيغة كانت وعلى راسه سورية ومصر ، والمعسكر المرتبط بالغرب والداعي للتحالف معه . ان مساهمة الرجعية العربية مع الاستعمار الغربي في الضغط على سورية لجرها للانضمام الى « حلف بغداد » ثم الموافقة على « مشروع ايزنهاور » بحجة كاذبة هي خطر وقوعها بيد الشيوعيين(٢٣) ، كان له اكبر الاثر ايضا في توجه سورية نحومصر وزعامة عبد الناصر . تساهلت الرجعية العربية على ما يبدو ازاء هذا التوجه انطلاقا من ايمانها بانه « اهون الشرين » ، اي انه افضل من وقوعها في ايدي تلك القوة القومية العربية المندفعة باتجاه تقدمي اشتراكي يساري والتي كانت وحدها ، اي هذه القوة ، تشكل الخطر الحقيقي على مستقبل هذه الدول الرجعية ، وتساهلت انطلاقا من قناعتها ايضا بان الاتجاه الناصري التوفيقي من شأنه ان يكبح اندفاع الاتجاه القومي اليساري وان يستقطب بعض جماهيره الواسعة فيضعفه ، وهذا ما حدث فعلا بعد قيام دولة الوحدة في سورية والحكم الناصري لها .

٢ ـ تصاعد الاتجاه اليساري :

في الفترة التي امتدت حتى قبيل قيام الوحدة كان الضغط الاستعماري بكل وجوهه ونتائجه المذكورة قد ادى الى تصاعد الاتجاه اليساري اكثر فاكثر في سورية نتيجة لمواقفه الوطنية الشجاعة الصامدة امام هذا الضغط وضد الغرب بكل مخططاته ومشاريعه واحلافه . وقد مثل حزب «البعث» الاتجاه اليساري القومي نتيجة لمواقفه النضالية الواضحة هذه ونتيجة لمواقفه التقدمية الاخرى من مجمل

القضايا الوطنية والقومية ، كما برز الحزب الشيوعي أيضا في هذه الفترة وزادت جماهيره .

ان ادراك اليسار عموما لضرورة تنسيق نضاله المشترك من اجل تعزيز صمود سورية امام الضغط الاستعماري عليها يفسر تحسن علاقات « البعث » مع « الحزب الشيوعي السوري » بشكل ملحوظ في هذه الفترة . كان من اهم مظاهر تصاعدالاتجاه اليساري في سورية ومن ابرز نقاط التقائه تدعيم توجه سورية نحو المعسكر الاشتراكي وعلى راسه الاتحاد السوفييتي .. ومما ساهم في هذا التوجه والى درجة كبيرة مواقف دول هذا المعسكر الى جانب سورية في معركتها ضد « حلف بغداد » و «مشروع ايزنهاور » ومن ثم دعمها لمصر في حرب السويس ولنظام عبد الناصر كحاكم عربي معاد للاستعمار كما بينا .

تصاعد الاتجاه اليساري في سورية كان على حساب الاتجاهين التوفيقي واليميني فيها وتجلى ذلك بالنسبة للحركة القومية العربية بتزايد جماهير حزب « البعث » ، وخاصة في اوساط صغار الفلاحين والمثقفين ، وتحسن وضعه التنظيمي مقابل تقلص جماهير حزبي « الشعب » و « الوطني » وانهيار وضعهما التنظيمي . ان موقف هذه الاحزاب من ارتباط سورية « بالغرب » كان سببا هاما لتطور اوضاعها بهذا المنحى ولكن لم يكن السبب الوحيد ، فقد كانت هناك اسباب اخرى لعبت دورا واضحا في هذا التطور واهمها طبيعة بنيتها الاجتماعية والتنظيمية ، ففي حين كانت البنية الاجتماعية لحزب « البعث » منسجمة نسبيا ، ومؤلفة في غالبيتها من عمال وفلاحين صغار ومثقفين ، كانت البنية الاجتماعية لحزبي « الشعب » و « الوطني » مؤلفة بغالبيتها من البرجوازية الكبيرة(٢٤) والمتوسطة والصغيرة وبعض الاقطاع . وكان لعلاقات التنافس والصراع التي كانت تعيشها برجوازية سورية ، وخاصة برجوازية حلب ودمشق ، منعكساتها على تماسك بنية هذين الحزبين الاجتماعية .

اما بالنسبة للبنية التنظيمية ، فقد كان حزب « البعث » من نمط احزاب « الجماهير »(٢٥) التي تعتمد على المركزية ونظام الشعبة والتربية الحزبية والنظرية السياسية، وكان حزبا الشعب والوطني من نمط احزاب «الكادر»(٢٦) ، التي تعتمد نظام اللامركزية ونظام اللجان التي لا تنشط الا في فترة الانتخابات وتفتقر الى التربية الحزبية والاهتمام بالنظرية السياسية .. ولا شك ان ازدياد اقبال جماهير صغار الفلاحين والعمال على الحركة في هذه الفترة وعلى الانتساب لحزب «البعث»بالذات، كان سببا هاما من اسباب تصاعد الاتجاه اليساري فيها أيضا .

ان ماتقدم ، سواء ما تعلق بهذا الاقبال ام بطبيعة البنية الاجتماعية والتنظيمية للاحزاب المذكورة ، ام بطبيعة تطور الاحداث في سورية وخاصة تطور ردود فعلهاضد

الغرب الاستعماري وضغوطه واحلافه ومشاريعه ، قد ادى الى فشل محاولة القيادات البرجوازية اليمينية والتوفيقية لحزبي «الشعب» و «الوطني» في كبح جماح الاندفاع اليساري عند جماهير حزب «البعث» والتي كانت احد الاهداف الرئيسية لتحالفهما مع قيادته(٢٧) .. ومن الملاحظ ان الحرص على هذا التحالف من قبل قيادة البعث كان السبب الاول لقبولها ببعض التنازلات في مجال النضال الاشتراكي ، اما السبب الثاني فهو حرصها على ارضاء عبد الناصر وقيام الوحدة . مع هذا بقي الاتجاه الجماهيري القومي العربي اليساري البعثي في تصاعد مستمر طوال فترة الاحلاف والمؤامرات الغربية التي سبقت قيام الوحدة السورية ــ المصرية .

ان طبيعة الواقع السياسي والاجتماعي لسورية ولحركتها القومية في هذه الفترة قد ساهمت والى درجة كبيرة في اغناء الفكر القومي العربي اليساري في سورية وجعلته اكثر وضوحا ونضجا منه في المرحلة السابقة . ظهر ذلك واضحا في فكر ومواقف «البعث» بشكل خاص ، فقد توضحت عنده قليلا معالم ارتباط النضال التحرري والنضال الوحدوي والنضال الاشتراكي . وقد تبنى البعث في بداية هذه الفترة مقولة الصراع الطبقي والنضال الاشتراكي على انه نضال الطبقات المستغلة ضد الطبقات المستغلة(٢٨) . لكنه ما لبث ان اهمل التحدث في ذلك في الفترة التي سبقت الوحدة مع مصر(٢٩) وذلك بسبب مواقف قيادته التي ذكرناها . لا شك ان مواقف قيادة البعث هذه كانت تعبيرا عن بداية هيمنة الاتجاه التوفيقي عليها مما يفسر كثيرا من الظاهرات الهامة في تاريخ هذا الحزب وابرزها بداية ظهور عجز قيادته عن مواكبة اندفاع جماهيره القومي اليساري ، وبالتالي ، عن تمثل وتمثيل امالها ومصالحها ،ولم يكن قيامها بحل الحزب في سورية الا تعبيرا ناطقا عن هذا العجز ، فالحرص على الوحدة وقيامها ، والذي هو حجة هذه القيادة في الحل ومسايرة توفيقية عبد الناصر آنذاك، لا يكون الا بالحرص على انجازها بصيغة صحيحة تضمن وجود مضامينها القومية التقدمية الثورية وشروط استمرارها ..

II —هيمنة الاتجاه التوفيقي على الحركة القومية العربية في الفترة الممتدة منذ قبيل قيام الوحدة وحتى قيام ثورة اذار ١٩٦٣ :

بالنسبة للاتجاه التوفيقي في هذه المرحلة ككل كان يمثله في بدايتها حزب الشعب نظرا لتبنيه لقضية تاميم المؤسسات الاجنبية في سورية بعد الاستقلال(٣٠) . اما وقوف « الحزب الوطني » ضد التاميم(٣١) وتحالفه مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور في بداية هذه المرحلة فقد ابرزته كممثل ، عن جدارة ، للاتجاه اليميني في الحركة. وقد ساهمت التبدلات في موقف حزبي «الشعب» و «الوطني» في الفترة التي سبقت

قيام الوحدة مع مصر ، وخاصة ما تعلق منها بموضوع ارتباط سورية مع الغرب ،في تبادل التمثيل بينهما للاتجاهين التوفيقي واليميني كما قلنا سابقا(٢٢) .

ويمكن اعتبار تنظيم حركة التحرير العربي مثالا اخر للاتجاه التوفيقي في الحركة القومية العربية في سورية في هذه المرحلة (٢٣) ، والذي كان من نمط تنظيمات الاشخاص التي تنتهي بانتهاء رئيسها ، حيث انتهى نشاطه الفعلي بعد سقوط الشيشكلي ، اي الشخصية التي كانت وراء تشكيله وتوجيهه .

اما بالنسبة لحركة « القوميين العرب » فقد كان نشاطها في سورية في بداياته ولم يكن لها ، بعد ، ذلك التواجد السياسي والجماهيري المعتبر . ونجد من الضرورة الاشارة هنا الى ان تخلي هذه « الحركة» عن تبني اسلوب العنف السياسي الى اسلوب النضال الجماهيري من اجل الوصول الى تحقيق اهدافها(٢٤) ، قد عكس احدى الملامح الهامة في تطورها في هذه الفترة ، من جهة ، وفي تطور الاتجاه الشوفيني الذي كانت تمثله داخل الحركة القومية العربيةفي نهاية المرحلة التاريخية السابقةعندما كانت تحت اسم « كتائب الفداء العربي » من جهة اخرى(٢٥) . وان الفكر القومي الاشتراكي الاصلاحي عند « حركة القوميين العرب »(٢٦) كان قريبا جدا من الفكر الناصري(٢٧) حتى يكاد يكون تكرارا لــه .

هذا التقارب الفكري كان انعكاسا لتقارب سياسي بين « حركة القوميين العرب » وبين عبد الناصر بدأ ببداية وجودها ، وتمثل بصلات قادتها الوثيقة معه مما دفعه الى الثقة بتبعيتها الكاملة له ، ودفعه ، بالتالي ، الى دعمها اكثر فاكثر للاستفادة من تواجدها في سورية ومن تواجد فروع تنظيمها القومي في بعض الاقطار الاخرى ، كالاردن والعراق ولبنان ، لا شك ان تنظيم حركة القوميين العرب في سورية قدساهم في توجيه المشاعر القومية المتاججة نحو الوحدة مع مصر ولصالح زعامة عبد الناصر للامة العربية في الفترة التي سبقت قيام الوحدة(٢٨) .وكان من الطبيعي بعد تحقيق الوحدة واعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة واستلامعبد الناصر لرئاستها انيستمر في دعم حركة القوميين العرب سواء داخل الاقليم الشمالي ، اي سورية ، ام خارجه، وخاصة بعد تبنيها للناصرية وبعد عزمه على طرح تنظيمها القومي كبديل لتنظيم « البعث » ، مما يفسر تساهل نظام عبد الناصر ازاء نشاطها السري بعد قيامها بحل نفسها علنا ، واستمراره في تقريب قيادتها اليه، وابعاد العناصر البعثية عن مؤسسات الحكم وملاحقتها(٢٩) .

وانطلاقا من ايمان عبد الناصر آنذاك بمقولة الوحدة الوطنية بمفهومها البرجوازي القائم على أساس تعايش الطبقات ، قام بتشكيل الاتحاد القومي على ان يكون «اطارا

من الوحدة الوطنية يجمع الجميع »(٤٠) في تنظيم سياسي هدفه العمل على تحقيق اهداف الثورة وحمايتها(٤١) . خرج هذا التنظيم جامعا لجميع التصادمات ولجميع التناقضات على حد قول عبد الناصر نفسه(٤٢) ، فضم مختلف الانتماءات الطبقية والسياسية ،ولكنه كان في غالبيته من العناصر القومية التوفيقية من صفوف حركة القوميين العرب وبقية الناصريين . اما قيادته فقد سيطرت عليها العناصر الرجعية اليمينية المستغلة الانتهازية(٤٣) . وباختصار فقد كان الاتحاد القومي تنظيما متناقضا اكثر منه تنظيما شعبيا عقائديا ثوريا(٤٤) . وكان هذا التنظيم بالنسبة للحكم الناصري كما كان تنظيم حركة التحرير العربي ، بالنسبة لحكم الشيشكلي ، اداة طوع امره يحركها كما يريد ومتى شاء وهذا النوع من التنظيم غير قادر على استقطاب الجماهير والدفاع عن الحكم بشكل فعال لان هذا الدفاع يتطلب تنظيما سياسيا جماهيريا صحيحا، فكان كلا التنظيمين المذكورين مفتقدا الكثير من مواصفاته الاساسية .

ادرك عبد الناصر هذا الحال بالنسبة للاتحاد القومي وادرك ان الاساس الذي بني عليه لم يكن بالاساس السليم ، فهو « شيء ضد العقل وضد الطبيعة »(٤٥). لكن ادراك عبد الناصر اتى بعد سقوط دولة الوحدة . لقد تاخر ، ولكنه اتى .

ان غياب التنظيم السياسي الجماهيري الصحيح كان من أهم الاسباب في نجاح حركة الانفصال والقضاء على الوحدة السورية ـ المصرية . لقد اراد عبد الناصر ان يكون الكل في واحد(٤٦) ، والحلقات التي تشكلت حوله وكل منها يدعي انه يمثل تيارا وطنيا شجعته على ذلك وهي التي احاطت به وعزلته عن الجماهير وحالت دون وجود تنظيمها السياسي الحقيقي(٤٧) .. وكما ادرك عبد الناصر متاخرا اهمية هذا التنظيم ادرك ، متاخرا ايضا ، الموقع الصحيح للبرجوازية ولتحالف الاقطاع وراس المال الذي يستطيع ، كما يقول في احدى خطبه : « ان يشكل نفسه وفقا للحاضر .. ووفقا للموقف »(٤٨) .

ان عدم ادراك عبد الناصر ، في بداية هذه المرحلة وحتى تموز ١٩٦١ ، لموقع البرجوازية الكبيرة هذا قاده الى التحالف معها ، سواء في سورية او في مصر ، وتصور انه قادر على جرها للمساهمة فيعملية التنمية وفي عملية التصنيع بالذات ، فكانت هذه البرجوازية هي الطرف الوحيد المستفيد من هذا التحالف مستخدمة اياه لتوظيف الدولة في خدمة مصالحها بالذات وتنمية راس مالها الخاص وذلك من خلال عملية تخريب مخططة للاقتصاد الوطني .. ادرك عبد الناصر نتيجة لذلك خطا تصوره « فالبرجوازية تؤيد الثورة المجيدة بالكلام وتتصرف معها عمليا ضد الخط العام للحكومة المرتبط بالتصنيع »(٤٩) . لقد وضع موقف البرجوازية هذا عبد الناصر امام

الاختيار بين مواصلة الثورة او الاستسلام لراس المال الوطني واختار مواصلة الثورة فكانت قراراته الاشتراكية في تموز ١٩٦١ بتأميم ممتلكات هذه البرجوازية وضرب مواقعها الاقتصادية تعبيرا عن هذا الاختيار.

ولكن عبد الناصر ضرب مواقع البرجوازية الاقتصادية غافلا عن مواقعها السياسية القوية ، وتواجدها ونفوذها الواسع وخاصة في صفوف الجيش ، بالنسبة لسورية، وذلك بعد قيام حكمه بضرب القوى اليسارية فيه ، البعثية وغيرها ، بحيث تحول الى قوة ضاربة لصالح هذه البرجوازية ولصالح تحالفها مع الاقطاع الذي وطدت تعاونها وصعدت نشاطها معه من اجل ضرب دولة الوحدة وانهائها .

من اهم الاسباب التي كانت وراء فشل هذه الوحدة ايضا سياسة الحكم الناصري التوفيقية سواء على المستوى العربي او على المستوى الخارجي بحيث لم يتخذ صديقا بدافع مقابل عدو يخطط ويتآمر . ولا شك بدور هذا العدو ، أي تحالف الرجعية العربية والاستعمار والصهيونية ، في دعم حركة الانفصال والتخطيط لها .

ومن الاسباب الاخرى لفشل وحدة ١٩٥٨ ايضا ممارسة الحكم الناصري للاسلوب البوليسي والبيروقراطي ، خاصة في سورية(٥٠) . الى جانب السبب الاساسي وهو ضرب الاتجاه اليساري القومي كما بينا ، الذي كان من شأنه الدفاع الفعلي عنها ، خاصة وقد كان له الدور الاكبر في صنعها . وهكذا انتهت وحدة ١٩٥٨ بعد ان تركت آثارها الهامة على الحركة القومية العربية في سورية والتي كان من ابرزها تصاعد الاتجاه التوفيقي فيها مقابل تراجع الاتجاهين اليساري واليميني.

الممثل الاساسي للاتجاه القومي التوفيقي المتصاعد كان الناصرية . وعلينا ان نذكر هنا باننا نتناولها في مرحلة تحالفها مع البرجوازية الكبيرة ، اي قبل قرارات تموز ١٩٦١ الاشتراكية التي كانت نقطة انعطاف كبيرة في تاريخها نحو الاتجاه اليساري وادت الى تغير البنية الاجتماعية والفكرية لها نتيجة لاخراج البرجوازية الكبيرة من صفوفها . اما قبل هذه القرارات فقد كانت الناصرية تضم مختلف الانتماءات الطبقية والسياسية والفكرية ولو انه كان يغلب عليها طابع البرجوازية الصغيرة ، سواء داخل تنظيميها ، حركة القوميين العرب والاتحاد القومي ، أم خارجهما . وطبيعة بنيتها الاجتماعية هذه تفسر تعايش اليمين واليسار فيها وتارجحها بينهما وتفسر غلبة الفكر والموقف التوفيقي عليها . تجلى ذلك في تبنيها ، بشكل رئيسي ، لمقولة الوحدة الوطنية بمفهوم التعايش الطبقي وتبنيها لوحدة الصف العربي وللجامعة العربية وفي نظرتها الى الوحدة العربية وقضية فلسطين ، حيث كانت عاجزة عن رؤية قضيتي

النضال الوحدوي والنضال من اجل تحرير فلسطين في سياقهما التاريخي الصحيح ويمضامينهما الاجتماعية التقدمية . فقد عالجت حركة القوميين العرب قضية فلسطين ، مثلا ، كقضية مستقلة ومنفصلة عن مجمل قضايا التحرر العربي على كل المستويات الخارجية والداخلية(٥١) . ومقابل تبني الناصرية للجامعة العربية ولمقولة وحدة الصف العربي ، تبنى « البعث » مقولة وحدة النضال العربي ودعا الى لقاء الحركات الوطنية الثورية في مختلف الاقطار العربية والى تشكيل مجلس نضال عربي كبديل عن الجامعة العربية(٥٢) .

الاتجاه التوفيقي ، اذا ، كان هو الاتجاه الغالب في الناصرية وفي تنظيمها : « حركة القوميين العرب » و « الاتحاد القومي » في هذه الفترة التي سبقت قرارات تموز ١٩٦١ . وباعتبار ان هذين التنظيمين كانا التنظيمين القوميين الوحيدين اللذين كانا يمارسان نشاطهما في سورية في فترة الحكم الناصري لها ، نظرا لحل التنظيمات الاخرى ، فقد استطاعا استقطاب كثير من الجماهير الوحدوية اليهما وخاصة من صفوف البرجوازية الصغيرة ممن استهواها الفكر الناصري التوفيقي . هذا مما ساهم ، الى جانب السياسة الاعلامية المركزة ، في غلبة الاتجاه التوفيقي الناصري على الحركة القومية العربية في سورية في ظل دولة الوحدة ولكن هذا الاتجاه بدأ بالتراجع نحو الاتجاه القومي اليساري في الفترة التي تلت قرارات تموز ١٩٦١ كما قلنا سابقا .

نهاية التحالف ونهاية المرحلة :

كان للحركة القومية العربية ولسورية في ظل هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة ، وبفضل الاتجاه الجماهيري القومي اليساري بالدرجة الاولى، كثير من الانجازات القومية الهامة في هذه المرحلة ، وخاصة من حيث التصدي بنجاح لـ « الغرب » ومشاريعه واحلافه وضغوطه ومن حيث المساهمة من خلال تنظيم « التجمع القومي » ، الذي كان شكلا من أشكال هيمنة هذا التحالف على الحكم في سورية ، في انجاز مشروع الدفاع العربي المشترك والتعاون الاقتصادي ومشروع الوحدة الاقتصادية العربية . اما اهم فعل قومي فقد كان انجاز وحدة سورية مع مصر في عام ١٩٥٨ ، بغض النظر عن الصيغة الخاطئة التي تمت بها .

في فترة دولة الوحدة هذه وفي ظل الحكم الناصري لها ، وبزوال الخطرين الاساسيين اللذين كانا وراء التحالف المذكور ، خطر وقوع سورية في دائرة نفوذ الغرب واحلافه «بالنسبة» للقوى اليسارية ، وخطر سيطرة الاتجاه الاشتراكي القومي

اليساري فيها بالنسبة للقوى اليمينية ، بدأت التناقضات الداخلية في التحالف بالظهور على السطح ، وتجلت بمحاولة كل طرف من اطرافه اثارة عبد الناصر وادارته ضد الطرف الاخر بهدف كسب ثقته واقناعه بان يكون هو وحده اداته في حكم سورية. ولا شك ان الطرف الذي نال ثقة ودعم عبد الناصر في البداية كان ، كما رأينا سابقا، طرف البرجوازية السورية التي استمرت في ركوب الموجة القومية بعد حل تنظيميها السياسيين ، الحزب الوطني وحزب الشعب ، في بداية الحكم الناصري لسورية، متقنعة بلباس الناصرية نفسها . لقد رات هذه البرجوازية في المواقف التوفيقية للناصرية وخاصة ما تعلق منها بمقولة السلم الطبقي والوحدة الوطنية ضمانة تستطيع ان تعتمد عليها في جرها لخدمة مصالحها ونفوذها وتعزيز مواقعها السياسية . هذا يفسر تسللها في بداية فترة الحكم الناصري الى صفوف الناصرية وصفوف تنظيميها، ولا شك بمطامح البرجوازية السورية في استخدام هذا التسلل كوسيلة لتسلل اكثر اهمية ، الى الحكم والسلطة ، فلقد كانت تدرك مدى دعم الحكم الناصري لهذين التنظيمين ، وبنت على هذا الدعم والتصور امالا كبيرة سرعان ما خابت .

هذه الخيبة اتت بعد اصدار الحكم الناصري لقرارات التاميم الاشتراكية في تموز ١٩٦١ ، وبعد ما لحقها من تاييد واسع من قبل التنظيمين الناصريين المذكورين . ان هذه القرارات التي وجهت ضربة كبيرة الى البرجوازية السورية الوطنية من خلال ضرب مواقعها الاقتصادية(٥٣) قد وضعت حدا لاي امل لها في امكانية تحول الناصرية في سورية لخدمة مصالحها فكان قرارها بالخروج منها ومن تنظيميها ومعاداتها والعمل على انهاء وجود حكمها في سورية .. ما تقدم يفسر توجه البرجوازية الوطنية السورية الى تحالفها مع الاقطاع الذي كان ناقما على الحكم الناصري منذ قيامه باصدار قانون الاصلاح الزراعي في السنة الاولى من حكمه، وذلك لتصعد نشاطها وتامرها معه للتخلص من هذا الحكم (٥٤) وكان ان نجحت في ذلك في ايلول ١٩٦١ .

خروج البرجوازية السورية الوطنية من الناصرية الحاكمة قد عنى ، من جملة ما عنى ، خروجها من التحالف المهيمن عليها ، تحالف قوى البرجوازية الوطنية والصغيرة ، وبالتالي ، بداية النهاية بالنسبة لهذا التحالف ، اما تامرها مع الاقطاع وقوى الرجعية العربية والمحلية عموما ضد حكم الوحدة ولصالح الانفصال فقد وضعها نهائيا في صف هذه القوى الانفصالية المعادية للحركة القومية العربية وللثورة العربية الوحدوية الاشتراكية الحضارية . وكانت ثورة اذار ١٩٦٣ الحدث التاريخي الهام الذي وضع ، في آن واحد ، نهاية مرحلة هيمنة التحالف المذكور على الواقع الاجتماعي والسياسي في سورية وبداية مرحلة جديدة هي المرحلة التي نعيشها ، مرحلة هيمنة تحالف « الطبقات والفئات الكادحة » حسب تعبير «البعث» وتحالف « قوى الشعب العاملة » حسب تعبير الناصرية .

الحواشي :

(١) انظر الاية ٤٦ من سورة العنكبوت « وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » وانظر الاية ١٣٦ من سورة البقرة « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي من موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » .

(٢) في الفترة الممتدة ما بين اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تمكن الاستعمار الغربي من السيطرة على غالبية مناطق الوطن العربي المنضوية تحت راية الرابطة العثمانية الاسلامية في الجزيرة العربية ومصر والمغرب العربي، حيث استطاعت انكلترا فرض سيطرتها ، باشكال مختلفة، على شواطىء الجزيرة العربية من عدن الى حضرموت والشواطىء الجنوبية الشرقية وعمان والبحرين والكويت ، واحتلت مصر في عام ١٨٨٢ . اما فرنسا فقد احتلت الجزائر في عام ١٨٣٠ وتونس في عام ١٨٨١ ومراكش في عام ١٩١١ ، واحتلت ايطاليا ليبيا (طرابلس الغرب) في عام ١٩١٢. ولم يكن الوجود العثماني التركي في الوطن العربي الا عاملا مساعدا على نجاح السيطرة الاستعمارية الغربية هذه .

اما بالنسبة للصهيونية فقد تحالفت معها سلطات الاحتلال التركي ممثلة بالسلطان عبدالحميد الذي حكم مابين ١٨٧٦و١٩٠٩، وذلك على عكس ما اعلنه اعلام هذه السلطات . ان الصهيونية بدات بانشاء مستعمرات في فلسطين في عهده في عام ١٨٨٢ واستمرت بذلك منذ ذلك الحين . هذا وان جميع مستعمراتها الرئيسية قد اقامتها في فترة حكمه بالتحديد ، والسلطان عبد الحميد هو الذي قدم النيشان المجيدي للسلطنة الى زعيم الصهيونية هرتزل في عام ١٩٠١ . ونذكر ، على سبيل المثال وليس الحصر ، بان منظمة الاستعمار اليهودي في فلسطين التي انشاها المليونير اليهودي روتشيلد في عام ١٨٨٢ قد انشات لوحدها ما بين هذا العام وعام ١٩٠٠ (٤٢) مستعمرة في فلسطين ، وفي عام ١٩٠١ عقد ، ولاول مرة في فلسطين ، جتماع المؤتمر الصهيوني العالمي ، وفي نفس العام انشىء في فلسطين الصندوق القومي اليهودي، ثم وفي عام ١٩٠٢ انشىء بنك انجلو فلسطين الذي سيطر على اقتصاديات العرب . وفي عام ١٩٠٧ انشئت مستعمرة تل ابيب ..الخ. (انظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ ص ٩٨٠ – ٩٩٣) .

وهكذا فان المرحلة الاساسية من الوجود الصهيوني في فلسطين قد تمت في عهد السلطان عبدالحميد وبمباركة السلطات التركية كما تذكر كثير من المصادر وكما يؤكد الواقع التاريخي الفعلي بكل بساطة ووضوح .

(٣) من خطاب فيصل في حلب في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، انظر : ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، الطبعة الثالثة ، دار الاتحاد ، بيروت ، بلا تاريخ ، ص٢١٤.

(٤) علي محمود العمر ، حركة التحرر العربية الى أين ؟ الطبعة الاولى ، دار المسيرة ، بيروت، ١٩٧٩ ، ص٥٥–٨٩ .

(٤) مكرر – انظر الى الامام ، ص٥ .

(٥) راجع : ف.ب.فيكتوروف ، اقتصاد سورية الحديثة ، اكاديمية العلوم ، موسكو ، ترجمة هشام الدجاني ، دار البعث ، دمشق ، ١٩٧٠ ، ص١٦ .

(٦) انظر ذوقان قرقوط ، تطور الحركة الوطنية في سورية ، ١٩٢٠ ـ ١٩٣٩ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٤٣ـ٤٤ .

(٧) لم تكون في سورية في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٢٨ ـ ١٩٤٥ سوى سبع شركات صناعية مساهمة برؤوس اموال مقدارها ٣ر١٩ مليون لس واهمها : معمل الكونسروة والاسمنت في دمشق ومعمل الغزل والنسيج في حلب . ولقد رفضت السلطات الفرنسية في عام ١٩٢٩ ، مثلا ، فكرة اقامة مصرف صناعي سوري برأسمال قدره ٥٠٠ الف لس فقط ليقدم المساعدة الممكنة للمؤسسات الصناعية . انظر فيكتوروف ، المصدر السابق ، ص١٧ .

(٨) نفس المصدر ، ص١٨ـ٢٠ .

(٩) نفس المصدر ، ص٢٠ ، وانظر صلاح وزان ، من التخلف الى التطور الاشتراكي في القطاع الزراعي ، دمشق ، ١٩٦٧ ، ص٤٠ .

(١٠) محمد الزعبي ، مواقف حزب البعث العربي الاشتراكي من مسالة الصراع الطبقي ، دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ٢٨ .

(١١) انظر :

Samir Amin, La Nation Arabe, ed. de Minuit, Paris 1976, p.39.

(١٢) Ibid, p. 63.

(١٣) Ibid, p.54 .

(١٤) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، لندن ، ترجمة م. اسد و م.عباس ، الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٤٩٦ـ٤٩٩ .

(١٥) انقسم كل من هذين الحزبين الى جناحين : احدهما ينادي بالوحدة مع العراق والثاني ضدها ويميل الى التعاون مع المحور السعودي ـ المصري (مقابلة مع بعض زعماء الحزبين ومنهم عبد الوهاب حومد في ١٩٧٧/٢/٥ ورشاد برمدا في ١٩٧٦/٦/٢ وعلي بوظو في ١٩٧٦/٤/٢٦) .

(١٦) كانت الغالبية في الحزب تميل الى جناح الوحدة مع العراق (مقابلة مع برمدا في ١٩٧٦/٦/٢) .

(١٧) كانت الغالبية في الحزب تميل الى جناح التعاون مع المحور السعودي ـ المصري (مقابلة مع نصوح بابيل في ١٩٧٧/٢/٣ .

(١٨) راجع : نضال البعث ، الجزء الثاني ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٥٨ـ٥٩ و ص١٧١ـ١٧٢ .

(١٩) راجع : باتريك سيل ، الصراع على سورية ، لندن ، ١٩٦٥ ، ترجمة سمير عبدو ومحمود فلاحة ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٨٠ وما يتبع .

(٢٠) المصدر نفسه .

(٢١) مقابلة مع عبد الحليم قدور (من مؤسسي الحزب العربي الاشتراكي) ، في ١٩٧٧/٢/١٤ .ومقابلة مع جلال فاروق الريف (من البعثيين القدامى) في ١٩٧٦/١/٢٨.

(٢٢) حول اسباب مساهمة البرجوازية السورية في صنع الوحدة انظر : محمد عبد المولى ، الانهيار الكبير ، الطبعة الثانية ، دار المسيرة ،بيروت ،١٩٧٩ ، ص ٤٦٠-٦٦٧ وانظر عبد الله الامام ، الناصرية دراسة بالوثائق في الفكر الناصري ، منشورات الوطن العربي ، بدون مكان او تاريخ، ص ٢٢١ .

(٢٣) انظر : سيل ، المصدر السابق ، ص٢٧٣-٤٠٠.

(٢٤) كبيرة اذا ما قورنت ببقية الفئات البرجوازية الاخرى الموجودة في المجتمع السوري ليس الا .

(٢٥) انظر :

Maurice Duverger . Les Partis politiques, 5 em . ed.,A. Colin, Paris 1969, p. 84-101 .

(٢٦) المصدر نفسه .

(٢٧) مقابلة مع جلال فاروق الشريف في ١٩٧٦/١/٢٨.

(٢٨) انظر جريدة البعث ، عدد ٥٦١ ، ايار ١٩٥٤ ، في : نضال البعث، الجزء الثاني، دار الطليعة، بيروت ، ١٩٦٣ ،ص٢٥٠-٢٥٢ وانظر ص ٢٧٠-٢٧٢ .

(٢٩) قارن بين بيانات الحزب ومنشوراته في هذه الفترة وبينها في الفترة السابقة القريبة وذلك في الجزء الثاني والثالث من نضال البعث ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٣-١٩٦٤ .

(٣٠) ان حكومة ناظم القدسي، المؤلفة بغالبيتها الساحقة من حزب الشعب ، هي التي اصدرت في ٢١ كانون الثاني ١٩٥١ قرارات تاميم شركات الكهرباء في سورية ، واصدرت في ١٧ اذار من نفس العام قرار تاميم ادارة حصر التبغ والتنباك .

(٣١) لقد اعتبرها : مغامرة خطيرة ستؤدي الى هروب رؤوس الاموال الاجنبية وعدم دخولها لسورية بعد اليوم (انظر القبس، الاعداد : ٤٢٥٢ تاريخ ١٩٥١/١/٤ وعدد ٤٢٦٣ تاريخ ١٩٥١/١/١٩ وعدد ٤٢٧٢ تاريخ ١٩٥١/٢/١ وعدد ٤٢٩١ تاريخ ١٩٥١/٢/٢٧ .

(٣٢) للاطلاع على مبادىء هذين الحزبين الرئيسية راجع كتاب بعنوان : الاحزاب السورية ،دار الرواد، دمشق ،١٩٥٤، ص ١٥٧ -١٧٠ وراجع : الحزب الوطني ، الميثاق ، حلب ،بدون تاريخ.

(٣٣) للاطلاع على مبادىء هذا التنظيم السياسية انظر دستوره في كتاب : الاحزاب السورية ،المعطيات السابقة ، ص ٢١٤-٢٢١.

(٣٤) مقابلة مع جهاد ضاحي (من قياديي « كتائب الفداء العربي») ومع سامي ضاحي (من ابرز قياديي « حركة القوميين العرب ») ،في ١٩٧٦/٤/٢٤ .

(٣٥) مقابلة مع جهاد ضاحي في ١٩٧٦/٤/٢٤.

(٣٦) للاطلاع على فكر الحركة في ذلك الحين انظر : حكم دروزة وحامد الجبوري ، مع القومية العربية، الطبعة الرابعة ، دار الفجر الجديد ، بيروت ١٩٦٠ .

(٣٧) كتب الكثير في الفكر الناصري ، ومن الممكن اخذ فكرة واضحة عنه تماما من المصادر الاتية : عبد الله الامام ، المصدر السابق مارلين نصر ، التطور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ . و :

Paul Balta et Claudine Rulleau , La Vision nassérienne , Sindbad ; Paris 1982.

(٣٨) مقابلة مع جلال فاروق الشريف في١٩٧٦/١/٢٨ .

(٣٩) المصدر نفسه ، وحول ابعاد ناصر للبعثيين انظر نشرة قيادة « البعث » القومية السرية في اذار ١٩٦٠ في نضال البعث ، الجزء الرابع ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٤ ، ص١٣١-١٧٩ وانظر ،عوني فرسخ ، الوحدة في التجربة ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٨٠ ص ٢٨٤-٢٩٩ .

(٤٠) عبد الله امام ،المصدر السابق ص ٣٠٢ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص٣٠٢.

(٤٣) المصدر نفسه ،ص٣٠٢ .

(٤٤) محسن ابراهيم ، في الديمقراطية والثورة والتنظيم الشعبي ، من منشورات « حركة القوميين العرب »، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٢٨-١٢٩ وص ٢١٤-٢١٧ .

(٤٥) من خطاب عبد الناصر في عيد السد العالي في يناير ١٩٦٣ « شيء ضد العقل وضد الطبيعة ، واحنا كنا طيبين جدا ، عايزين نلم الاقطاعي اللي خدنا منه الف فدان مع الفلاح اللي وزعنا عليه خمسة افدنة » . انظر : عبد الله الامام ، المصدر السابق ص٣٠٨-٣٠٩.

(٤٦) سعد التائه ، مصر بين عهدين ، دار النضال بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٩٧.

(٤٧) المصدر نفسه .

(٤٨) من احدى خطب عبد الناصر ، امام ، المصدر السابق ،ص٣٢٠ .

(٤٩) ايغور بيليايف وافغيني بريماكوف ، مصر في عهد عبد الناصر ، تعريب عبد الرحمن الخميسي، دار الطليعة ، بيروت ،١٩٧٥، ص ١٣٠ .

(٥٠) انظر : احمد عبد الكريم ، اضواء على تجربة الوحدة ، مكتبة اطلس ، دمشق ، ١٩٦٢ ،وانظر

فرسخ ، المصدر السابق ،ص ٣٠١ ، ٣١٠ ، وص ٢٨١-٢٨٨ ، وانظر : مجموعة مؤلفين ،سورية محطمة الاستعمار والصهيونية ، دارالاستقلال ، دمشق ،١٩٦٢.

(٥١) انظر دروزة وجبري، المصدر السابق ، ص١٧٨ ومايتبع .

(٥٢) انظر ، على سبيل المثال ، بيان البعث بعد مؤتمره القومي الثالث ، بتاريخ ١٩٥٩/١٠/١٠ في جريدة الصحافة عدد ٢٨٣ ، في : نضال البعث ، الجزء الرابع ، نفس المعطيات السابقة . ص٩٢-١١٣- وانظر المصدر نفسه ،ص١٥٩(وهو قسم من بيان القيادة القومية للبعث في اذار ١٩٦٠).

(٥٣) انظر محمد عبد المولى ، المصدر السابق ، ص٤٥٠-٤٧٧ .

(٥٤) المصدر نفسه ص ٤٦٢-٤٧٠ .

* * *

مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية

(١٥٣٥ و ١٢٩٠)

د. محمد رجائي ريان

جامعة اليرموك

مقدمة : في عام ١٨٦٠ حدث تدخل عسكري فرنسي في سورية (١) ، وهذا التدخل احاطت به ظروف دولية وحسابات استراتيجية ، وكان للدوافع الاقتصادية دور مهم فيه(٢) .

وحدث بعد ذلك تدخل اخر في عام ١٩١٩ ، يسمى تاريخيا بالتدخل الثاني،وهو التدخل الذي اعقبه مباشرة القضاء على الدولة العربية الناشئة في دمشق في شهر تموز (يوليو) ١٩٢٠ واحتلال سورية ، وفرض الانتداب الفرنسي عليها واقراره من قبل عصبة الامم في ١٩٢٢(٣) . وكان لهذا التدخل ايضا ظروفه الدولية وحساباته الاستراتيجية والدبلوماسية المعلنة والمستترة . ولكن هل كان لفرنسا مصالح اقتصادية ادت الى هذا التدخل العسكري الفرنسي ؟.

في هذه الورقة ستكون الاجابة على هذا السؤال هي العنصر الرئيسي ، ولا يمكن ان نصل الى هذه الاجابة ، الا اذا تعرضنا الى الجذور التاريخية لتلك المصالح الاقتصادية ، وهذا يحتم علينا الخوض في الامور التالية :

١ ـ المصالح الاقتصادية الفرنسية من خلال الامتيازات في الدولة العثمانية .

٢ ـ التنافس الاقتصادي الفرنسي ـ الانجليزي ، والتنافس الفرنسي ـ الالماني في الامبراطورية العثمانية ، واثر ذلك على التجارة الفرنسية .

٢٧ و ٢٨ ـ ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٧ .

٣ ـ الاستغلال الاقتصادي الفرنسي في الدولة العثمانية والاستثمارات والديون .

٤ ـ طبيعة المصالح الاقتصادية الفرنسية في سورية في مطلع القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى .

وفي هذه المقدمة يجدر بنا ان نشير ان تركيز فرنسا من الناحية الاقتصادية في البداية كان على العلاقات التجارية بالذات ، وهي علاقات تعود الى العصور الوسطى وتوسعت في العصور الحديثة(٤) .

والحقيقة فان العلاقات الاقتصادية التجارية الفرنسية مع الشرق هي جزء من علاقات التبادل بين العالمين الغربي والاسلامي ، وتعود الى حقبة بعيدة في التاريخ كانت المرحلة الصليبية احدى حلقاتها . واستمرت هذه العلاقات وتأكدت لدرجة انه في القرن الثالث عشر التقى العالمان في اشكال النشاط الاقتصادي والانتاج ذاتها .

لكن حقيقة هذا الواقع لم تدم طويلا ، فمنذ القرن الخامس عشر ادى اكتشاف البرتغاليين طريق الهند الى انتزاع المبادرة من يد اصحاب القوافل والملاحين العرب الذين كانوا يقومون بالدور الاول في تجارة الترانزيت ، لذلك لم تستمر اشكال النشاط الاقتصادي والانتاج ذاتها خلال كل مراحل التبادل بين العالمين ، فمنذ الفتح العثماني الذي ترادف زمنا مع الصعود الاوروبي والتراجع في الدور الاقتصادي العربي ، انكفأ النشاط الاقتصادي في البلاد الاسلامية على نفسه ليصبح نشاطا داخليا لعالم وضعه تطور التجارة العالمية على الهامش ، وهذه الهامشية في علاقات التبادل العالمية كانت المدخل لتغلغل رأسمالي اوروبي ، ادى الى قلب ميزان التبادل لصالح الغرب(٥) .

كذلك يجدر بنا ان نشير ايضا ، انه في مطلع القرن السادس عشر ، اصبحت سورية عدة ولايات في كيان سياسي كبير هو الامبراطورية العثمانية ، ولم تشكل وحدة ادارية ضمن ولاية عثمانية واحدة(٦) ، وتأثرت بالاتجاهات الاقتصادية التي بدأت تواجهها الدولة العثمانية مع الدول الاوروبية ذات الانظمة الرأسمالية بشكل عام ومع فرنسا بشكل خاص ، اذ اخذت هذه الدول وعلى رأسها فرنسا تتجه بانظارها نحو الدولة العثمانية لربطها بعجلة الرأسمالية الاوروبية ، وللحصول على المواد الاولية لتسيير ماكينة صناعة الغرب ومن ثم لتسويق بضائعها . فهيمن التجار الاوروبيون داخل الامبراطورية العثمانية هيمنة كاملة على عمليات التبادل ، وكان لفرنسا دور بارز في هذا المضمار ، وكانت سورية نقطة بارزة فيه .

مصالح فرنسا الاقتصادية من خلال الامتيازات :

بدات التوجهات الاقتصادية الاوروبية وخاصة التجارية نحو الدولة العثمانية عن طريق ما سمي بالامتيازات (Capitulation)(٧)، التي بدأ عن طريقها التدخل الاقتصادي المنظم ، ويرجعها البعض الى القرن الثاني عشر الميلادي(٨) ، وقد منحت امتيازات تجارية لتجار المدن الايطالية في القرن الخامس عشر ، وخاصة البندقية(٩)، ولكنها لم تكن باتفاقية ، لان اول اتفاقية عقدت بين الطرفين كانت في كانون الاول (ديسمبر) ١٥٢١ ، صيغت فيها الامتيازات التجارية السابقة التي أعطيت للتجار البنادقة(١٠) ، خاصة فيما يتعلق باعفائهم من الرسوم الجمركية وغيرها من العوائد، بالاضافة الى حرية التجارة(١١) . ولكن ، ومع مرور الايام ، أخذت المكانة الاولى في التجارة مع الامبراطورية العثمانية تنتقل الى فرنسا التي منحت الامتيازات في اتفاقية الصداقة والتجارة التي عقدت في شباط (فبراير) ١٥٣٥(١٢) ، وعلى أساس التحالف بين فرنسوا الاول الفرنسي (١٤٩٤ ــ ١٥٤٧) وسليمان الاول القانوني العثماني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) ضد امبراطورية الهابسبرج ممثلة بامبراطورها شارل الخامس(١٣).

لقد حصل الفرنسيون على الامتيازات ، وخاصة الاقتصادية ، في ظل ظروف هيات لعقد هذا الاتفاق الشهير . ذلك ان عهد سليمان الاول تميز بعلامات هامة في علاقات الدولة العثمانية الدولية ، فقد بدأ الصراع العثماني مع دولتين كبيرتين ، امبراطورية الهابسبرج في الجانب الاوروبي ، والدولة الصفوية الاسيوية في المجال الاسيوي . ومن ناحية أخرى تميز هذا العهد بالتحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا، وكان ذلك نتيجة طبيعية للعداء التقليدي بين فرنسا وامبراطورية الهابسبرج، وكانت الدولة العثمانية تشتبك في صراع مع اسبانيا للسيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط وشمال افريقيا (١٤) .

ضمنت هذه الامتيازات في ستة عشر بندا ، نصت في جملتها على « انه يجوز لرعايا الطرفين المتعاقدين او تابعيهم السفر بحرا بمراكب مسلحة او غير مسلحة والتجول في بلاد الطرف الاخر والمجيء اليها والاقامة بها او الرجوع الى الثغور والمدن أو غيرها بقصد الاتجار على حسب رغبتهم بكامل الحرية بدون أن يحصل لهم أدنى تعد عليهم او على متاجرهم ، ويجوز لرعايا وتابعي الطرفين البيع والشراء والمبادلة في كافة السلع مع دفع الفوائد والضرائب المعتادة قديما » وجاء فيها ايضا « انه لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين فيما يختص بالمسائل الدينية امام القاضي العثماني ، بل تكون محاكمتهم امام الباب العالي ويكون مصرحا لهم باتباع شعائر دينهم ، ولا يجوز لستخدام التجار الفرنساويين او سفنهم جبرا عنهم في خدمة جلالة السلطان الاعظم أو غيره في البر والبحر ما لم يكن ذلك بطوعهم واختيارهم »(١٥) .

وترجع أهمية هذه الاتفاقية الى انها اعتبرت المنظمة لحياة الرعايا الفرنسيين التجار واقامتهم في اقاليم الدولة العثمانية ، وتمتعت فرنسا في ظلها ، من الناحيتين القانونية والعملية ، بمركز مرموق ومتفوق في ولايات الدولة وكانت الاساس في التعاون الواسع مع فرنسا ، والذي استمر لثلاثة قرون(١٦) . وبعد عقد هذه الاتفاقية تدفق التجار الفرنسيون الى بلاد الشرق الادنى عن طريق غرفة التجارة بمرسيليا التي كانت تتركز فيها تجارة الشرق (١٧) .

بقيت هذه المعاهدة حجر الزاوية في سياسة فرنسا الاقتصادية نحو الامبراطورية العثمانية ، وبقيت بنودها المتضمنة للامتيازات الاقتصادية الطريق الذي سلكته لجني الفوائد الاقتصادية . وقامت فرنسا بعد ذلك بتعزيز وتأكيد امتيازاتها بعدة اتفاقيات لاحقة جديدة ، الا ان جذورها كانت مستمدة من الاتفاقية الاولى ، التي نص بندها الاول ان مفعولها يستمر في حياة المتعاقدين عليها(١٨) ، وهذا تقليد سارت عليه معظم تلك الاتفاقيات .

ففي اول شباط (فبراير) ١٥٥٣ ابرمت بين السلطان سليمان الاول القانوني وهنري دي فالوا الفرنسي ، معاهدة من تسعة بنود تتعلق في معظمها بالحرب البحرية (٢٠) ، وفي عام ١٥٦٩ واثر وفاة سليمان القانوني ، ومن اجل استمرار فعالية الصداقة الفرنسية العثمانية التي وضعت في عهده ، كان من الضروري لصعود سليم الثاني الى العرش عقد هذه الاتفاقية(٢١) ، وقد اعطت الحرية الكاملة لابحار السفن الفرنسية في المياه العثمانية والموانىء التابعة لها ، وحتى تحصل المراكب الاوروبية الاخرى على الامتيازات التي اعطيت للسفن الفرنسية كان عليها رفع العلم الفرنسي، عدا مراكب جنوه والبندقية التي تمتعت بمثل هذا الامتياز(٢٢) .

ولما راى هنري الرابع محاولات دول اوروبية اخرى للحصول على مثل الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا ، اضطر الى عقد معاهدة صداقة مع السلطان وعمل على تجديد الامتيازات على يد « دي بريف » في العشرين من ايار (مايو)عام ١٦٠٤ . اضافت مكسبا اخر وهوالسماح للتجار الفرنسيين بالعيش بأمن وطمانينة وحرية التنقل دون عائق(٢٣) . واستطاع الكاردينال ريشيلو (Richelieu) (٢٤) الذي سار على سياسة فرنسوا الاول وهنري الرابع في التقرب الى السلطان العثماني بسبب نجاحه في ايقاف الحرب بين الامبراطورية العثمانية وجمهورية البندقية ، وبينها وبين بلاد الغرب، أن يحصل على امتيازات للتجار الفرنسيين اوسع مما حصل عليه رعايا الدول الاوروبية الاخرى(٢٥) .

لكن هذه الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا في الامبراطورية العثمانية كانت تتارجح بين التجديد والتجميد حسب السياسة التي كانت تنهجها الحكومة الفرنسية تجاه الدولة العثمانية بشكل خاص وتارجح العلاقات الفرنسية العثمانية بشكل عام ، وظهر ذلك واضحا بعد انقضاء السنوات الاولى من القرن السابع عشر.

فبعد التجديدات في الامتيازات التي حصل عليها الفرنسيون في عهد السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ ــ ١٦٠٣) واحمد الاول (١٦٠٣ــ١٦١٧)(٢٦) فشلت محاولات كونت دي كيسي Comte de Cesy لتجديد الامتيازات السابقة وذلك في عام ١٦١٩، ومنذ ذلك الوقت بدا التاثير الفرنسي في الباب العالي وفي اسواق الشرق في الضعف. وفي عهد اسرة كوبر يلي(٢٧) انقطعت العلاقات السياسية مع فرنسا لفترة من الزمن، وهبط مستوى التجارة الفرنسية الى عشر ما كانت عليه في عام ١٦٢٠(٢٨) .

كذلك ساءت العلاقات بين الدولتين بسبب مساعدة لويس الرابع عشر للنمساويين في سان غوتار (St. Gutar) في الثلاثين من تموز (يوليو) ١٦٦٣، وللبندقية في كريت ١٦٦٨ رغم معارضة وزرائه لا سيما كولبير (Colbert) وزير المالية الذي كان يرغب في تعزيز التجارة الفرنسية في الشرق ، فاصبح الرعايا الفرنسيون في الامبراطورية العثمانية مهددين بايقاف مصالحهم ، بعد ان توقفت الحركة التجارية بين البلدين وفرضت الدولة العثمانية القيود على التجار الفرنسيين(٢٩) .

الا ان لويس الخامس عشر تمكن من تجديد هذه الامتيازات في الثاني والعشرين من ايار (مايو) ١٧٤٠ على يد المركيز فيلنوف (Villeneuve) ، الذي كان سفيرا لفرنسا في استانبول وعرف بحنكته السياسية ، وصاحب الكلمة النافذة واليد العليا لدى السلطان(٣٠) ، واضفى عليها صفة الابدية ، فبعد ان كانت غير سارية المفعول الا في عهد السلطان الذي يمنحها اصبحت سارية المفعول في عهد خلفائه(٣١) واصبحت امتيازات ١٧٤٠ مرة اخرى قانونا للفرنسيين يعيشون بمقتضاه في الدولة العثمانية(٣٢).

كان من نتائج تجديد الامتيازات عام ١٧٤٠ تفوق فرنسا في مجال التجارة مع الاقطار العثمانية ، وازدياد اهتمامها بتطوير هذه التجارة وزيادتها ، من ذلك ارسال الحكومة الفرنسية البارون « دي توت » ما بين (١٧٧٧ و ١٧٧٨) في رحلة سرية لدراسة الاحوال في الامبراطورية العثمانية واقتراح افضل الوسائل للنهوض بالتجارة الفرنسية في الشرق(٣٣) .

ومما لا شك فيه ان هذا التفوق الاقتصادي الفرنسي ، الذي كانت التجارة احدى مظاهره الواضحة ، يعود في جزء كبير منه الى المركز السياسي الفرنسي المؤثر

في الدولة العثمانية ، ولكن اعقب هذا التفوق انحدار مؤقت نجم عن الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، والضربة الحاسمة التي تلقتها حملة نابليون على مصر وبلاد الشام ، اذ اعتبرت الدولة العثمانية ان هذه الحملة موجهة ضدها فجمدت امتيازات فرنسا الاقتصادية فيها(٢٤) .

وعندما اصبح نابليون بونابرت قنصلا اولا اقنع سفير الدولة العثمانية في فرنسا المدعو اسعد افندي ، بوجوب تجديد العلاقات الودية مع فرنسا ، فكاتب السفير العثماني دولته بذلك ، وبعد الحصول منها على الاذن امضى مع بونابرت مشروع معاهدة بتاريخ ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٠١ اساسها اخلاء مصر وتأييد امتيازات فرنسا السابقة في الشرق .. وحول الامتيازات نص البند الرابع من المعاهدة على « ان المعاهدات الكائنة فيما بين فرنسا والباب العالي حتى قبل الحرب الحاضرة تجددت بتمامها ، وبناء على ذلك حق لجمهورية فرنسا ان تتمتع في كافة انحاء الممالك العثمانية بجميع الحقوق التجارية وحقوق الملاحة التي كانت تتمتع بها قبلا او سيتمتع بها غيرها من الدول الاكثر تفضيلا في مستقبل الايام »(٢٥) .

كان من نتائج عقد هذه المعاهدة عودة الهيمنة الاقتصادية الفرنسية في الشرق وعودة الامتيازات الاقتصادية الفرنسية في الامبراطورية العثمانية الى سابق عهدها(٢٦) . وتم تدعيم هذه المعاهدة باتفاقية جديدة منحت فرنسا الحق في « ان تشتري من اي مكان في الدولة العثمانية السلع كافة بلا استثناء من منتجات الاراضي او الصناعات في المناطق الخاضعة للدولة اما بغرض التجارة او الاستغلال ، وتعهد الباب العالي بالغاء اي احتكار على المنتجات الزراعية او منتجات اخرى في اراضيه ، وبان تلغى التعريفات المفروضة من جانب السلطات المحلية على شراء هذه السلع او على نقلها من مكان شرائها الى مكان اخر » (٢٧) .

ان هذه الامتيازات الاقتصادية صارت ومنذ مطلع القرن التاسع عشر في نظر فرنسا حقوقا مكتسبة لها ، واصبح بمقدورها تغيير تلك الامتيازات لصالحها دون ان تسمح للسلطان العثماني باعادة النظر فيها ، وكان السلاطين يعون جيدا هذه الحقيقة. وكانت معاهدة باريس ١٨٥٦(٢٨) فرصة مواتية للتخلص من هذه الوصاية ، غير ان المحاولة العثمانية باءت بالفشل . ولجأت فرنسا الى استغلال هذه الاتفاقيات، مستغلة ضعف الدولة العثمانية ومتاعبها الداخلية وحروبها الخارجية ، فجاءت معاهدة باريس في ٢٨ اذار (مارس) ١٨٥٦ لتؤكد ان الباب العالي قد قبل بالمشاركة في فوائد القانون العام والتنسيق الاوروبي.وحرمان الدولةالعثمانية من حقهافي اعادة النظر في الامتيازات او الغائها (٢٩)، وجاءت المادة (٣٢) من هذه المعاهدة لتجدد جميع الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا ، وغيرها من الدول من قبل(٤٠) .

ولكن محاولات الباب العالي للتخلص من هذه الامتيازات لم تقف عند مؤتمر باريس ١٨٥٦ ، فقد جرت محاولات اخرى تزامنت في معظمها مع مرحلة التنظيمات الخيرية(٤١) كان اهمها عام ١٨٦٣ في عهد الصدر الاعظم عالي باشا، الذي اصدر نظاما، لم يمس الامتيازات الاقتصادية الفرنسية وانما حدد ما يبيح للمواطن العثماني التمتع بالحماية الفرنسية ، وذلك اذا كان مكلفا بمهمة رسمية من السلطات الفرنسية فقط، والغاء منح الحماية الفرنسية بصورة شرفية(٤٢) .. اي انها بقيت بعيدة عن جوهر تلك الامتيازات الاقتصادية التي تمتعت بها فرنسا في املاك الدولة العثمانية ، والدليل على ذلك ان المادة الثانية من معاهدة برلين المبرمة في ١٣ تموز (يوليو) ١٨٧٨ ، اكدت الحقوق الواردة في الامتيازات السابقة(٤٣) .. اما الغاء الامتيازات الفرنسية في الدولة العثمانية ، فقد تم بصورة رسمية من قبل الحكومة التركية في ٥ ايلول (ستبمبر) عام ١٩١٤(٤٤) .

التنافس الاقتصادي واثر ذلك على التجارة الفرنسية .

التنافس الانكليزي ـ الفرنسي : ان الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا في الامبراطورية العثمانية ، اصبحت ، في نظرها ، حقا مكتسبا لها دون غيرها ، فكان همها بالدرجة الاولى ان يظل لها السبق في هذا المجال او ان تحول دون غيرها من دول اوروبا والحصول على ما حصلت عليه ، الا انها لم تستطع منع دول اوروبية اخرى ان تحذو حذوها ، بل وتنافسها ، وتمثل ذلك بشكل خاص مع انكلترا اولا ومع المانية ثانيا .

دخلت انكلترا مع فرنسا في تنافس اقتصادي منذ عهد مبكر ، خاصة في المجال التجاري ثم عن طريق الحصول على الامتيازات . فقد حاولت الحكومة الانكليزية الحصول على فوائد للتجار الانكليز بعدما اعطي من امتيازات عثمانية للبنادقة ثم للفرنسيين ، وذلك لتوسيع المصالح التجارية الانكليزية في ممالك السلطان العثماني، لكن هذا النوع من المحاولات كان يجابه عادة بمعارضة شديدة خاصة من قبل ممثلي فرنسا في استانبول(٤٥) . هذا في الوقت الذي كانت فيه المراكب الانكليزية قد بدات تاخذ طريقها نحو الموانيء العثمانية في النصف الاول من القرن السادس عشر ولكن بدون ان يكون لها وكالات تجارية دائمة .

بدات المحاولات الانكليزية عن طريق الافراد ، اي التجار انفسهم ، وليس عن طريق الحكومة الانكليزية . واول محاولة كانت تلك التي قام بها انتوني جنكنسون (Anthony Jenkinson) في عام ١٥٥٣م ، الذي قابل السلطان العثماني سليمان

القانوني في حلب ، وكان يجهز حملة لمحاربة الفرس ، ممثلا عن نفسه وعن تجار اخرين انكليز ، وتقدم اليه بطلب « حرية التجارة في الامبراطورية العثمانية على نفس الاسس المعطاة للبنادقة والفرنسيين »٠. والذي حصل عليه جنكنسون هو « السماح له ولشركائه بان يحضروا بضائعهم الى الموانيء العثمانية على المراكب الانكليزية ، ولكن بمجرد ان تصبح سفنهم داخل المنطقة الخاضعة للقضاء العثماني كان عليهم الابحار والمرور تحت العلم الفرنسي »٠. وعلى ان هذه الميزة التي حصلوا عليها من السلطان لم ينتفعوا بها ولم تبدا التجارة المنظمة الانكليزية في داخل الامبراطورية العثمانية الا بعد ذلك بثلاثة عقود(٤٦) ، حيث قام اثنان من التجار الانجليز ، اسبورن(Osborn) وستابر (Staper) وارسلوا وكيلهم وليم هاربورن(william Harborn) محملا برسالة من الملكة اليزابث الى السلطان مراد الثالث ، وبمطالب محددة تتعلق بالتجارة مع اسطنبول ، وفي رسالته الجوابية للملكة اليزابث وافق مراد الثالث على منح الامان للتجار الانكليز كتعبير منه عن الصداقة والوفاء اللذين سيحافظ عليهما.

هذا التقارب بين الدولتين العثمانية والانكليزيةادى الى تدشين علاقات ودية، والى نتائج سياسية واقتصادية ، في الوقت الذي كانت فيه السلطات العثمانية قد وقعت تحت اغراء فرصة شراء المنسوجات الانكليزية بثمن ارخص ، والحصول على المواد الاولية ، مثل القصدير والفولاذ ، التي كانت بحاجة اليها لصناعة الاسلحة. وبرسالة من اليزابث مؤرخة في ٢٥ اكتوبر ١٥٧٩ ، طلبت فيها من السلطان توسيع الامتيازات التجارية بحيث تشمل جميع رعاياها وتكون على اسس الامتيازات الفرنسية ، وتمت الموافقة على هذا الطلب في ايار (مايو) ١٥٨٠(٤٧). ونتيجة لهذه المفاوضات في اسطنبول والمراسلات بين مراد الثالث واليزابث ما بين ١٥٧٧و١٥٨٠ صيغت الامتيازات الممنوحة للانكليز على شكل اتفاقية من اثنين وعشرين بندا ، جاء في احدها « يسمح للتجار الانكليز بالقدوم الى الامبراطورية العثمانية مع بضائعهم عن طريق البر او البحر وتحت حماية علمهم الخاص ويشتروا ويبيعوا في ممتلكات الدولة العثمانية بدون اي عائق، كما يسمح لهم بالعيش في ظل القوانين التابعة لدولتهم »(٤٨) .

واعقب هذه الخطوة الهامة خطوة اخرى ، هي انشاء شركة الشرق الانكليزية (The English Levant Company) في ١١ سبتمبر عام ١٥٨١(٤٩) ، لتبدا التجارة الانكليزية مع الامبراطورية العثمانية وفق قواعد ثابتة وفي ظل امتيازات معينة ، وليصبح معظم المستشارين والدبلوماسيين الانكليز في الممالك العثمانية مستخدمين في الشركة(٥٠) . وقد بقيت هذه الشركة تقوم بالعمل في املاك الدولة العثمانية وتشرف على التجارة الانكليزية ، تماما كما كانت تقوم غرفة تجارة مرسيليا الفرنسية بالاشراف على التجارة الفرنسية ، الى ان حلها البرلمان البريطاني في حزيران ١٨٢٥(٥١).

ولتدعيم هاتين الخطوتين ، قامت الملكة اليزابث بافتتاح سفارة في الاستانة ؛ وجددت الامتيازات السابقة في عام ١٥٨٣ ، وحينئذ ارسى هاربورن سفير انكلترا في العاصمة العثمانية ومندوب شركة الشرق الانكليزية القواعد الراسخة لنفوذ بلاده الاقتصادي في الشرق الادنى(٥٢) .

واجهت فرنسا النجاح الذي حققته انكلترا ما بين ١٥٧٧ و ١٥٨١ في مجال الامتيازات والتجارة مع الامبراطورية العثمانية ، بمقاومة عنيفة ، وحاولت ان تضع العراقيل في وجه المحاولات الانكليزية في اسطنبول ، وبذلك يمكن القول ان عهد التنافس الاقتصادي بين انكلترا وفرنسا يكون قد بدأ واخذت ملامحه تظهر واضحة.

لكن شركة الشرق الانكليزية لم تستطع ان تقف في وجه المنافسة الفرنسية، ولذلك كانت تجارة الحوض الشرقي للبحر المتوسط في صالح فرنسا بصفة خاصة حتى اواخر القرن الثامن عشر ، ففرنسا كانت الدولة الاوروبية الاولى لدى البلاط العثماني ، وكانت صادراتها من الصوف ارخص من مثيلتها الانكليزية واكثر ملائمة لمناخ المنطقة ، هذا بالاضافة الى افراط شركة الشرق الانكليزية في البحث عن الربح(٥٣) . ويؤيد هذا الراي جورج كيرك الذي يضع اللوم كله على شركة الشرق الانكليزية في «الهبوط المحسوس في التجارة الانكليزية وما ترتب عليه من فائدة لفرنسا، وهي السياسة القائمة على الاكتفاء بالمبيعات القليلة مع ارتفاع نسبة الارباح فيها» ويقول ايضا : « حقا لقد كانت الاصواف الانكليزية تتمتع بشهرة عظمى ولكن الاصواف القرنسية كانت اخف منها واكثر ملائمة لجو هذه الاصقاع ، فضلا عن انها تقل عنها فى الثمن بنحو ١٠٪ ، وعندما قامت المصانع الانكليزية بصنع اصواف اخف من سابقتها واقل ثمنا تبين ان نوعها قد تدنى لدرجة ان التجار اعرضوا عنها ، وقد قيل في هذه المناسبة : « ان الاتراك في استانبول لم يجدوا الاقمشة التي تلائم رغباتهم وبالسعر الذي يرضونه ولاالبن الذي يستسيغونه الا عند التجار الفرنسيين»(٥٤) .

ويمكن ان نضيف الى ما سبق ان مكانة الفرنسيين التجارية كانت قد تطورت في الامبراطورية العثمانية ، مع انهم لم يستطيعوا منع الانكليز من فتح قنصلية لهم في حلب لتشرف على رعاية مصالحهم ، ولترعى تجارة شركة الشرق الانكليزية الا ان وصول الانكليز الى اسواق الشرق الادنى منذ عام ١٥٨١ انقص من مجموع التجارة الفرنسية ومن عدد السفن الفرنسية ، وظهر ذلك واضحا بعد ٢٥ سنة من هذا التاريخ(٥٥) .

لكن على المدى البعيدلم تؤثر التجارةالانكليزية بشكل عام على التجارة الفرنسية، التي بلغت قبيل اندلاع الثورة الفرنسية ثلاثة امثال هذه الاخيرة ، واضطرت شركة

الشرق الانكليزية بين عامي ١٧٧٨ و ١٧٩١ الى اغلاق محطاتها الاربع في سورية تاركة نسبة كبيرة من تجارة هذا الاقليم في يد الفرنسيين(٥٦) .

اما على صعيد الامتيازات فقد قامت الحكومة العثمانية تدريجيا بتوسيع الحقوق الممنوحة للتجار الانكليز المقيمين في املاك الدولة على اساس عدم الخضوع للقوانين العثمانية ، وتحديد هذه الحقوق ، وعمل اضافات جديدة على الاتفاقيات السابقة باتفاقيات جديدة عقدت في الاعوام ١٦٠٦ و ١٦٢٤ و ١٦٤١ و ١٦٦٢ واخيرا ١٦٦٥، وفي هذه الاخيرة وضعت جميع الامتيازات السابقة والتي بقيت سارية المفعول حتى زوال الامبراطورية العثمانية (٥٧). ثم تم عقد اتفاقية ١٦٧٥ اثر مفاوضات قام بها السفير الانجليزي في استانبول جون فنش (John Finch) نيابة عن حكومته مع الحكومة العثمانية(٥٨) .

وفي خضم التنافس الفرنسي ـ الانكليزي الاقتصادي في الامبراطورية العثمانية، فان هذا التنافس كان يتأثر الى حد بعيد بعلاقات الدولة العثمانية السياسية بهاتين الدولتين وهذا يظهر واضحا من موقف الدولة العثمانية من حملة نابليون بونابرت على مصر والشام ما بين ١٧٩٨ و ١٨٠١ ، فقد اعتبرت الحملة اساسا موجهة ضدها، فجمدت امتيازات فرنسا الاقتصادية فيها ، ولان بريطانيا قامت بالدور الرئيسي في التصدي للحملة وافشالها عسكريا وسياسيا ، لان من اهدافها الرئيسية قطع شريان الطريق التجاري الموصل للهند والحيوي لمصالح بريطانيا الاقتصادية ، وظهرت وكانها حامية للامبراطورية العثمانية ، فزادت التجارة الانكليزية . وبعد انهاء الحملة انتهزت انكلترا ذلك الوضع السياسي ، فعقدت مع العثمانيين اتفاقات جديدة وسعت العلاقات الاقتصادية بين الدولتين ، خاصة في المجال التجاري . ففي عام ١٨١٨ ، عقدت اتفاقية انكليزية ـ عثمانية للتجارة ، استكملت بفرمان صدر عام ١٨٢٠ ،حددت الرسوم على المستوردات الانكليزية الى ولايات الدولة العثمانية بـ ٣٪(٥٩) . ثم عقد اتفاق اخر تجاري بين الدولتين بتاريخ ١٦ اب (اغسطس) عام ١٨٣٨ ، ونص بنده الاول « على ان جميع الحقوق والامتيازات والاعفاءات التي اعطيت للاشخاص والسفن البريطانية في الامتيازات والمعاهدات السابقة ، تؤكد الانوتستمر الى الابد»(٦٠). وعلى هذا النمط جاء الاتفاق الفرنسي مع الباب العالي في ٥ ٢تشرين الثاني(نوفمبر)١٨٣٨.

وعندما حاربت كل من بريطانيا وفرنسا ضد روسيا في حرب القرم ، استطاعت الدولة العثمانية ان تقيم توازنا اقتصاديا في موضوع الامتيازات ، فاعطت الدولتين حقوقا متساوية في معاهدة باريس في ٣٠ اذار (مارس) ١٨٥٦ ، خاصة ما يتعلق بالمتاجرة وجلب البضائع الى الامبراطورية(٦١) . ثم تأكدت حقوق الدولتين بالنسبة

للامتيازات السابقة وبشكل متساو في معاهدة برلين في ١٣ تموز (يوليو) ١٨٧٨ وذلك في المادة الثانية منها(٦٢) . وبالتالي فقد تميز الربع الاخير من القرن التاسع عشر بجمود التنافس الاقتصادي الانكليزي ـ الفرنسي في الامبراطورية العثمانية .

التنافس الالماني ـ الفرنسي : جاء النشاط الاقتصادي الالماني في الدولة العثمانية متأخرا . ومنذ النصف الاول من القرن الخامس عشر ،بدأ التجار الالمان من أوغسبورغ (Augsborg) ونورنبورغ (Nurenburg) بالتجارة مع الشرق الادنى تحت حماية علم البندقية ، واستمرت المصالح الالمانية في الشرق الادنى حتى عام ١٨٧٠ يمثل فيها الجانب الاقتصادي جانبا ضعيفا وهو جانب تجاري(٦٣) .

ثم حدث في عام ١٨٧٠ وعام ١٨٧٨ حادثان اكسبا مركز المانيا سموا كبيرا في أعين الاتراك ، واقترن ذلك بتضاؤل هيبة فرنسا في الدولة العثمانية . ففي ١٨٧٠ جرت الحرب الفرنسية ـ الالمانية(٦٤) ، فتأثرت مشروعات فرنسا من جراء ويلات تلك الحرب ، واصبح همها اثر ذلك المحافظة على مصالحها الاقتصادية في الامبراطورية العثمانية ، امام مزاحمة الدول الاوروبية الاخرى . وفي عام ١٨٧٨ عقد مؤتمربرلين الذي تخلت فيه الدول الاوروبية عن سياسة المحافظة على تمامية الدولة العثمانية فوجدت فرنسا ان الخطر بدأ يحيق بمصالحها الاقتصادية في سورية . واتخذت المانيا الخطوة الاولى على طريق الزحف نحو الشرق (Drang nach Osten) في محاولتها التوسط بين الدولة العثمانية والدول الاوروبية(٦٥) . وخرجت المانيا من المؤتمردولة كبرى تريد ان تنفذ الى الشرق وتدخل رؤوس اموالها ومنتجاتها الصناعية(٦٦) .

ولذلك وبعد الانتهاء من اعمال مؤتمر برلين بدأت تركيا تعتمد بصورة كبيرة على تأييد المانيا بعد ان تخلت انكلترا وفرنسا عن سياسة التكامل السياسي للدولة العثمانية . وكانت المانية في تطورها كدولة صناعية واستعمارية قد تطلعت الى مجالات استعمار خارج اوروبا ، وكان الشرق الادنى احدى هذه المجالات ، وبالتالي فقد بدأ نشاطها الاقتصادي في الدولة العثمانية . ورحبت المانيا بسياسة التقارب مع هذه الدولة لتتخذ ميدانا للتوسع الاقتصادي ، فطبيعة المانيا في ذلك الوقت كانت تحتم هذه السياسة ، فقد كان عدد السكان يتزايد فيها ، كما ازدادت حاجتها الشديدة الى المواد الغذائية والمواد الاولية (٦٧) . في الوقت نفسه كانت الدولة العثمانية غنية بمواردها الاولية ومن الممكن ان تكون سوقا رابحا للبضائع الالمانية وهي ذات موقع جغرافي ممتاز وقريبة نسبيا خاصة املاك الدولة العثمانية في اسيا العربية ، التي يمكن ان تكون ميدانا واسعا للتوسع الاقتصادي والسياسي الالماني(٦٨) .

كان الامبراطور فيلهلم الثاني (Wilhelm II) يعمل جاهداً في هذا الاتجاه ، فبعد سنة واحدة من وصوله الى العرش ، اي في عام ١٨٨٩ ، قام بزيارة للاستانة على الرغم من معارضة بسمارك(٦٩) . وبعد سقوط بسمارك وظهور الاتجاه الامبراطوري الجديد بشكل واضح تقوى هذا الاتجاه .

وكانت مؤسسة المانية قد حصلت في ١٨٨٨ على موافقة الحكومة العثمانية على بناء خط حديدي الى انقرة ، وتأسست بذلك شركة خط حديد الاناضول من قبل نقابة المانية(٧٠) للقيام بهذا العمل .

وفي عام ١٨٩٨ قام الامبراطور الالماني بزيارته الثانية للسلطان للوصول الى وفاق اقتصادي الماني ــ عثماني ، وكان من نتائج هذه الزيارة اعطاء دفعة قوية للمشاريع الاقتصادية الالمانية . فحصل الامبراطور على وعد من تركيا بالتصريح ببناء خط حديد بغداد بين قونية وبغداد ، وكان الهدف منه تمكين الرأسمالية الالمانية من استغلال المصادر المعدنية والزراعية في الامبراطورية ، وكذلك الاستفادة من هذا الخط لمد فرع منه الى حلب عبر سورية ثم الى شبه الجزيرة العربية ، وقد بقي هذا المشروع معطلا حتى تم تنفيذه في عام ١٩٠٣ وذلك لمعارضة كل من بريطانيا وروسيا له (٧١)، ففي ١٨٩٩ منحت الشركات الالمانية امتياز بنائه باتفاقية ابرمت في برلين بين البنك الالماني (Deutsch Bank)، والبنك العثماني وشركة سكة حديد ازمير ــ قصبة (Cie de Smyrne - Cassaba)(٧٢) .

اما على صعيد التجارة فحتى عام ١٨٨٠ كانت تجارة المانيا مع الدولة العثمانية تعادل عشرة ملايين مارك ونصف المليون ، وفي عام ١٨٩٣ ارتفع رقم الصادرات الالمانية الى ما يبلغ خمسين مليون مارك وارتفعت صادرات الدولة العثمانية الى المانيا من نحو ٥ر٢ مليون مارك الى ٥ر١٦ مليون(٧٣) . وهذه الزيادة كانت ناجمة عن معاهدة تجارية المانية عثمانية عام ١٨٩٠ وانشاء شركة الخطوط الالمانية المشرقية (Deutsch Levant linie) لتسيير السفن التجارية بين بحر الشمال والشرق الادنى(٧٤) . والواقع انه منذ عام ١٨٨٩ امتد التوسع الالماني الاقتصادي الى الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية فزادت تجارة المانيا زيادة ملحوظة مع بلاد الشام (٧٥) .

ومنذ عام ١٨٩٩ ولدعم التغلغل الاقتصادي الالماني في الدولة العثمانية ومجاراة المشاريع الاستثمارية الفرنسية الواسعة فيها ، بدأ تأسيس البنوك الالمانية ، ففي تلك السنة أسس بعض المولين الالمان البنك الالماني ـ الفلسطيني (Die Deutsche

Palestina Bank) الذي كانت له فروع في عدة مدن منها دمشق وطرابلس وفي عام ١٩٠٤ ، انشأ البنك القومي لالمانيا مصرفا ماليا في الدولة العثمانية تحت اسم « بنك المشرق » ، وفي عام ١٩٠٥ انشأ بنك درسدنر (Dresdner) بنكا سمي بنك الشرق الادنى ، وكان لهذا البنك بالذات دور هام في التطوير الصناعي في الدولة العثمانية، وفي ١٩٠٦ انشىء بنك الشرق الالماني (Deutsch Orient Bank) (٧٦) .

ولم تغفل المانيا عن حاجة الدولة العثمانية الى القروض ، وقد ادركت ذلك بوضوح بعد عقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، ولتدخل في منافسة مكشوفة مع الدول الاوروبية الاخرى في هذا المجال وخاصة فرنسا ، كان اول القروض الرسمية الالمانية للدولة العثمانية عام ١٨٨٨ ، ثم قرض ثان في عام ١٨٩٤ وتعاقب بعد ذلك عقد هذه القروض مع بنوك المانية من جهة ومع الحكومة العثمانية من جهة اخرى من اجل تغطية عجز الدولة . وتراوحت نسبة الفائدة ما بين ٤و٥ بالمائة . وقد بلغت القروض الالمانية للدولة العثمانية ما بين ١٨٨١ و ١٩٠٨ حوالي ١٢ مليون ليرة عثمانية ذهبا ، وبلغت هذه القروض بين عامي ١٩٠٨ و ١٩١٤ حوالي ٤٦ مليون ليرة عثمانية ذهبا(٧٧) .

ومما لا شك فيه ان هذا التغلغل الاقتصادي الالماني في الدولة العثمانية وبالاشكال والاساليب التي ذكرناها ، قد اثر على دور فرنسا الاقتصادي التقليدي في تلك الدولة ، وكمثال على ذلك ان عدد التجار الالمان بدأ يكبر ، ان لم يتفوق في بعض الاوقات على عدد التجار الفرنسيين بالرغم من زيادة التجارة الفرنسية مع الدولة العثمانية ، وبدت هذه الصورة واضحة في مطلع القرن العشرين (٧٨) .

الاستقلال الاقتصادي الفرنسي في الامبراطورية العثمانية والاستثمارات والديون :

استطاعت فرنسا من خلال اتفاقيات الامتيازات ، ان تبدأ بتطبيق سياسة اقتصادية قائمة على الاستغلال المنظم منذ عام ١٨٥٤ ، وقامت بتمويل عشرات المشاريع برؤوس اموال فرنسية عن طريق طرح الاستثمارات ، وهذه الاستثمارات اتخذت شكلين :

أولهما : الاستثمار المباشر في مشروعات المواصلات والنقل لخدمة الاستيراد والتصدير .

ثانيهما : الاستثمار غير المباشر للحصول على الاحتكارات والامتيازات لانشاء هذه المشروعات(٧٩) .

ففي سنة ١٨٦٣ أنشىء البنك الامبراطوري العثماني (Banque Imperiale Ottoman) وكان لفرنسا حصة الاسد فيه ، وهو البنك الذي منح امتياز اصدار اوراق النقد وكانت له فروع متعددة في الولايات العربية ، مثله مثل بنك كريدي ليونيه (Credit lyonnais) كما ساهمت رؤوس الاموال الفرنسية في البنك العقاري العثماني (Credit foncier Ottoman) وفي بنك لبنان (Banque de Liban) (٨٠) .

اما اول استثمار فرنسي مباشر في سورية فكان في ميدان سكك الحديد تم ابرامه في عام ١٨٨٩ لمدة ٧١ سنة واوكل البناء للشركة الفرنسية (Société des travaux publiques). كذلك قامت شركات فرنسية بشق طريق بيروت ــ دمشق ، وادى نجاح المشروع الى تشجيع الشركات الفرنسية على مد سكة حديد بيروت ــ دمشق ــ حوران فتشكلت الشركة الاقتصادية لسكة حديد ــ بيروت ــ دمشق ــ حوران
La Société des chemins de fer economiques de Beyrouth - Damas - Hauran) في سنة ١٨٩١ ، وتولت منذ عام ١٨٩٣ تنفيذ مد سكة حديد دمشق ــ حمص ــ حماه ــ حلب ــ بيرجك (٨١) .. وتولت الشركة الامبراطورية العثمانية وهي شركة ذات راسمال فرنسي توسيع ميناء بيروت(٨٢) . وتعددت مشاريع الاستثمار الفرنسية في الامبراطورية العثمانية بشكل عام وفي سورية بشكل خاص ، ودلت احصائيات البنك الامبراطوري العثماني في عام ١٨٩٦ ان حصة فرنسا من الاموال المستثمرة في الدولة العثمانية هي ٦٧ بالمائة ، بينما بلغت نسبة الاموال الالمانية ١٧ بالمائة(٨٣) ، وفي عام ١٩١٤ بلغ مجموع رؤوس الاموال الفرنسية المستثمرة في الدولة العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى ذلك العام ٥٨٨٠٠ مليون فرنك(٨٤) .

اما النوع الاخر من الاستغلال الاقتصادي الفرنسي في الدولة العثمانية فهو الديون ، ذلك ان الدولة العثمانية اضطرت الى الاستدانة من البنوك والمصارف الاوروبية منذ مطلع النصف الثاني للقرن التاسع عشر لمواجهة الازمات المالية المتوالية والحروب العديدة التي خاضتها ، وكان لفرنسا النصيب الاكبر من هذه الديون ، وابرمت الحكومة العثمانية اول قرض اجنبي بعد بداية حرب القرم في اب ١٨٥٤ مع شركة بالمر (Palmer and co.) في لندن وشركة جولد شميت (Goldschmidt) في باريس نيابة عن بنكي انكلترا (Bank of England) وفرنسا (Banque de France) وكان مقدار هذا القرض ثلاثة ملايين جنيه استرليني، اي ما يعادل ٢٫٥ مليون ليرة عثمانية ذهبا بفائدة ٦ بالمائة ، وبعد ذلك بعام واحد ، ابرمت الحكومة العثمانية قرضا ثانيا في ٢٧ حزيران (يونيو) ١٨٥٥ مع مؤسسة روتشيلد في لندن ومقداره (٥٫٦٥) مليون ليرة عثمانية ذهبا بفائدة ٤٪ . وهكذا تورطت الدولة العثمانية بالديون ؛ فلم

تتمكن من تسديدها ، وبلغ مجموع الديو ن التي تراكمت على الدولة العثمانية منذاول قرض ابرمته وحتى اندلاع الحرب العثمانية ـ الروسية عام ١٨٧٧ ، ٢٥١ر٢٠٩ر٧٥٨ ليرة عثمانية ذهبا(٨٥) .

ولما انتهت تلك الحرب وانعقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ اخذت الدول الدائنة وخاصة فرنسا تواجه ضغطا من الشركات صاحبة الاسهم من اجل دفع اموالها .وابرم اتفاق في ١٠ـ٢٠ تشرين الثاني عام ١٨٧٩ بين الحكومة العثمانية والبنك الامبراطوري العثماني وعدد من البنوك في استانبول لتسوية الامر ، ولكن هذه الاتفاقية لم ترض الشركان المالية ، فتعرض الباب العالي لضغوط شديدة ادت الى صدور فرمان محرم الموافق (٨ـ٢٠) كانون الاول عام ١٨٨١ والذي نص على قيام ادارة الدين العمومي العثماني (Administration de la Dette Publique Ottoman)(٨٦) لتتولى تسديد ديون الدول الاجنبية ، وتشكل مجلس تنفيذي لهذه الادارة عام ١٨٨٣، وبذلك اصبحت ادارة الدين العام تشرف على الشؤون المالية للدولة العثمانية ، وكانت حصة فرنسا من الدين العام العثماني اكبر النسب ، اذ بلغت حوالي ٤٠٫٠ ٪ في الوقت الذي بلغت فيه حصة انكلترا ٢٩ ٪ والمانيا ٤ر٧ ٪ ، والباقي توزعته الدول الاوروبية الاخر ى. وفي عام ١٨٩٨ اصبحت النسبة كما يلي : بريطانيا ١٠ ٪ ، المانيا ١٢ر١ ٪ فرنسا ٤٤ر٩ ٪(٨٧) وبهذا تكون نسبة فرنسا قد ازدادت وكذلك المانيا التي كانت تنافسها وانخفضت نسبة بريطانيا .

طبيعة المصالح الاقتصادية الفرنسية في سورية في مطلع القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى

مما لاشك فيه ان مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية ، بدات تتاثر بمتغيرات سياسية كثيرة منذ مطلع القرن العشرين ، اهمها الحرب العالمية الاولى وما سبقها او رافقها من محادثات تقسيم مناطق النفوذ في الولايات العربية الاسيوية التي كانت تابعة للدولة العثمانية ، وفي الحقيقة فان هذه المحادثات كانت تجري على اساس اقتسام اسيا العثمانية من الوجهتين الاقتصادية والسياسية بين الدول الاوروبية .

ولما كانت فرنسا قد استطاعت عبر فترة طويلة من الزمن ان تحقق قدرا كبيرا من المصالح الاقتصادية لم تحققه دولة اوروبية اخرى ، فانها بدات تخشى على هذه المصالح وخاصة في سورية ، وكانت تثير دائما وباصرار ان سورية هي حصتها التي يجب ان تعطى لها سياسيا لصيانة مصالحها الاقتصادية فيها .

هذه الرغبة لدى فرنسا برزت بشكل واضح في مؤتمر برلين ١٨٧٨ الذي اتفقت فيه الدول على تغيير سياسة المطالبة ب (تمامية الدولة العثمانية) فالحت في هذا

المؤتمر على ان تكون حصتها هي سورية لما لها فيها من مصالح وامتيازات . ثم عندما تعرضت الامبراطورية العثمانية لازمات سياسية وانفصال بعض المقاطعات الاوروبية عن جسمها رات فرنسا الخطر يحيط بمصالحها في سورية ، فلم تتاخر في اعلان رايها بكل صراحة واظهرت عزمها على المحافظة على حقوقها القديمة في هذه المنطقة(٨٨) . وهذا ما اكده رئيس وزراء فرنسا المسيو بوانكارية (Poincaré) في العشرين من كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٢ في بيان له امام مجلس الشيوخ عن القضية السورية وعن مصالح فرنسا هناك فقال « اننا مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا بكل قوة، وعازمون على المحافظة على تقاليد فرنسا العظيمة في الشرق »(٨٩) . وذكر امام مجلس الشيوخ وفي مناسبة اخرى « ان حكومته اتخذت الخطوات التي تضمن مصالحها في سورية »(٩٠) .

وقبل اندلاع الحرب العالمية الاولى مباشرة جرت مفاوضات فرنسية وعثمانية نجم عنها ابرام اتفاقيات مختلفة ، وذلك في ١١ ايلول (سبتمبر) ١٩١٣ بين المفاوض العثماني جاويد بك ووزير الخارجية الفرنسية دومروغ ، تضمنت عدة امور ، منها ما يتعلق بالامتيازات والرسوم الجمركية ، ومد خطوط حديدية بين مختلف المدن السورية ، ونصت على ان يتولى ادارة الشركة الحديدية وفروعها مدير عام فرنسي لمدة عشر سنوات تمنح له صلاحيات واسعة، كما نصت على ان يكون الخبراء والمهندسون الاجانب فرنسيين . واستطاعت فرنسا ان تضيف في هذه الاتفاقيات نصا يحدد منطقة النفوذ الالماني بعيدا عن مركز مصالحها(٩١) .

وفي اعتقادي ان هذه الاتفاقيات كانت في اساسها لتاكيد المصالح الاقتصادية الفرنسية في سورية ، ولابعاد المانيا بشكل خاص عن هذه المصالح وكذلك بريطانيا ، اذ ان هاتين الاخيرتين اجرتا مفاوضات مع الدولة العثمانية في الوقت نفسه تمخضت عن عقد اتفاقيات ايضا(٩٢) كانت في مجملها بعيدة عن الحاق المساس بالمصالح الفرنسية خاصة في سورية .

لقد اعتبرت الحكومة الفرنسية ان عقد هذه الاتفاقيات في هذا الوقت جعل مصالحها الاقتصادية في سورية في امان ، ولكن تلاحق الاحداث السياسية التي كان ابرزها نشوب الحرب العالمية الاولى وابرام الدولة العثمانية معاهدة صداقة مع المانيا، دفع بهذه المصالح الى حالة الخطر ، اذ قامت الدولة العثمانية والغت جميع الامتيازات الاجنبية ، لا سيما الفرنسية والانكليزية لكونها دول الحلف المعادي ، وذلك في اول ايلول (سبتمبر) ١٩١٤ ، وبحجة انها تتعارض مع القواعد القضائية للقرن العشرين ومبادىء السيادة القومية وانها تقف حجر عثرة امام تقدمها وتطورها (٩٣). لكن قرار

الدولة العثمانية لم يمنع فرنسا من متابعة محاولاتها للحفاظ على مصالحها خلال الحرب ،وبالتالي اخذ موافقة الدول الاخرى التي تقف معها للاعتراف بهذه المصالح، لذلك وفي اثناء المحادثات التي كانت تجري بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في عام ١٩١٥ والتي تمخض عنها اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ ، كشف السفير الفرنسي في بطرسبرغ في ١٤ اذار (مارس) ١٩١٥ لوزير خارجية روسيا عن اطماع حكومته في سورية ، وحاول ان يضمن موافقة روسيا على ضم بلاد الشام (بما فيها فلسطين) لمنطقة نفوذ فرنسا(٩٤) .

ترافق اهتمام فرنسا بامكانات سورية الاقتصادية مع صعود خطين مترابطين. خط نمو المصالح الفرنسية في سورية نموا مضطردا يهيء للمزيد من المشاريع ، وخط تأزم العلاقات ما بين الامبرياليات الاوروبية لاختلاف مواقفها من مصير الدولة العثمانية وطبيعة المصالح الاقتصادية الفرنسية اصبحت تمثل باشكال التلاقي بين معطيات اقتصادية محلية اهمها المواد الاولية الزراعية وبين مجموعة المصالح الفرنسية التي تمثلت في تملك واستثمار عددمن المشاريع التي تلبيحركة التصدير والاستيرادوانتقال السلعة وتسويقها بين محطات الاسواق التاريخية في المشرق(٩٥) . هذه المصالح كانلابد لها ان تتأثر مباشرة بمصير الدولة العثمانية الذي بدأ في احداث الحرب العالمية الاولى، والتي كانت سورية احد ميادينها الرئيسية ، واخذت فرنسا تدرك المتغيرات التي يمكن ان تحصل على الخريطة السياسية للدولة العثمانية واثرها على مصالحها الاقتصادية ، وانتاب هذا الادراك شعور بالخوف والقلق عند المسؤولين في الحكومة وفي المؤسسات الاقتصادية في فرنسا ذات العلاقة المباشرة مع هذه المصالح.

وعبر هذا القلق عن نفسه بوسائل وخطط في جهود حثيثة ، وافكار ومشاريع من قبل الدبلوماسيين والخبراء والعلماء واساتذة الجامعات وغرف التجارة ورجال الاعمال واتاحت الظروف السياسية التي رافقت الحرب العالمية الاولى وما اعقبها من تسويات الفرصة المناسبة للتعبير عن هذه الافكار والمشاريعولاخذ المبادرات وترتيب الاستعدادات ، كل ذلك من اجل تلك المصالح الاقتصادية التي تركزت في طبيعة معينة في اطار لعبت فيه مدينة ليون دورا رئيسيا خاصة في مجال الاستفادة منزراعة التوت، وكذلك مرسيليا التي كانت عبارة عن مركز فرنسي مهم في حركة التصدير والاستيراد بين السوق الفرنسي وسوق المناطق السورية .

والجدير بالذكر ان زراعة التوت المرتبطة بتجارة وصناعة مدينة ليون الحريرية، قد نشطت في السنوات الاولى من القرن العشرين . وتشكل الرساميل الليونية الحافز الحقيقي لنشاط زراعة الحرير السورية(٩٦) . ونستطيع من خلال دراسة تجارة هذه

المادة الخام وهي الحرير ان نتوصل الى المدى الذي وصل اليه الاهتمام الفرنسي في امكانات سورية الاقتصادية .

فاهم مادة كانت تستوردها فرنسا من سورية هي الحرير التي تقوم عليها الصناعة خاصة في مدينة ليون(٩٧) ، وكان تجار ليون يسيطرون سيطرة كاملة على هذه التجارة، ففي بداية القرن العشرين كان اكثر من ٩٠٪ من حرير سورية يذهب الى فرنسا ، وفي عام ١٩١٠ دفعت ليون نحو ٨ ملايين وهو مبلغ يعادل اكثر بقليل من ثلث ما يشتريه تجار الحرير من سورية(٩٨) .. وقد ادت سيطرة فرنسا على انتاج الحرير السوري الى دفع رجال الاعمال الى البحث عن الوسائل التي تؤدي الى توسيع هذه السيطرة واستغلال مناطق جديدة اخرى في سورية .

لكن انتاج الحرير السوري هبط في فترة ما قبل الحرب ، من ٥٠٠ الف كيلو غرام حرير سنويا قيمتها ٢٥ مليون فرنك فرنسي ، بين ١٩٠٢ و ١٩١١ الى ٤٠٠ الف كيلو غرام(٩٩) عام ١٩١٢ . وهذا التقهقر في الانتاج جعل رجال الاعمال الفرنسيين في كل من مرسيليا وليون يعملون على دراسة الوضع لتدارك التدهور الذي حصل ، ولذلك ارسلت غرفتا تجارة ليون ومرسيليا عام ١٩١٢ بعثة الى سورية قام احد اعضائها وهو (M.Croizat) بوضع تقرير حول زراعة الحرير فيها ، جاء فيه ان انتاج الحرير تدنى اثناء الحرب العالمية الاولى الى اربعة اخماس ، ويعلل الاسباب التي ادت الى هذا التدهور في :

اولا : نقص البذور التي كانت تستورد كلها تقريبا من فرنسا ، فالحرب بقطعها للعلاقات التجارية حرمت البلاد من هذه المادة الاولية .

ثانيا : النقص في الايدي العاملة .

ثالثا : قطع اشجار التوت .

ثم يشير التقرير الى ان الانتاج السوري من الحرير استؤنف بفضل تدخل الحكومة الفرنسية ، ولكن حتى تعود امور الانتاج الى وضعها الطبيعي لابد من تدخل الراسمال الفرنسي والتقنية الفرنسية . وضمانات ذلك تكمن في ضبط الامن وتحقيق الاستقرار وتأمين احترام الملكية ، وهي الشروط التي يؤكد عليها التقرير لتخطي المشاكل التي تعترض عملية استئناف الانتاج بعد الحرب .

وفي راي صاحب القرير فان الحل المنشود ، والذي اكده في السابق رجال الاعمال الفرنسيون ، هو ادارة جديدة لسورية تؤمن حقوق الناس واحترام الاشخاص وملكية

الاخرين ، كل ذلك لا يتحقق الا بحل المسالة السورية بشكل يتلاءم مع اماني فرنسا(١٠٠) .

اما (Huvelin) رئيس البعثة فقد وضع هو الاخر تقريرا موسعا في المسالة الزراعية وتطوير الاقتصاد الزراعي السوري ، وقدم هذا التقرير امام مؤتمر رجال الاعمال الفرنسي الذي انعقد في مرسيليا لدراسة اوضاع سورية .

جاء في تقرير هوفولان ان الانتاج الزراعي في سورية يمكن ان يجعل من سورية اغنى البلدان الزراعية واخصب اراضي المعمورة ، وقد بنى اعتقاده هذا على اسس معينة وهي « ان هناك اراضي خصبة في سورية وينبغي على مشاريع الاقتصاد الفرنسي ان ترتكز عليها وان تدخل في مناطق الانتداب الفرنسي . والمناطق السورية التي ستوضع تحت الانتداب الفرنسي تبلغ مساحتها ١٧٫٠٠٠٫٠٠٠ هكتار يزرع منها نحو ٧٧٥٫٠٠٠ هكتار ، اي ما يعادل ٤٫٥٪ ، اما الاراضي الصالحة للزراعة فكانت تبلغ نحو ٤٫٦٠٠٫٠٠٠ هكتار اي ما يساوي ٢٧٪ .

ويذكر التقرير ايضا ان ما كان مزروعا من الاراضي في سورية قبل الحرب تقدر انتاجيته بـ ٧٢٫٠ مليون فرنك ، في حين انه لو استغلت الارض الصالحة للزراعة فيمكن ان تغل انتاجية تقدر بمليار ونصف الى مليارين ، وهذا ما يمكن ان يدخل في قيمة الانتاج السنوي للاقتصاد الزراعي وفي حدود الانتداب ، ويعتبر هوفولان أن المشكلة ناجمة عن عدم استغلال جميع الاراضي الصالحة للزراعة ، وحتى الارض المزروعة لا تقدم كل ثروتها ، وفي اعتقاده ان هذا ناجم عن نوعين من العوامل :

١ ــ اسباب ظرفية ناجمة عن الحرب تزول مع زوالها .

٢ ــ اسباب فرضية وتعود الى ما قبل ١٩١٤ ، بل احيانا الى عدة قرون ، وهذه الاسباب تعود في رايه الى النظام السياسي الذي فرضته السيطرة التركية والنظام الاجتماعي الذي استدعته التقاليد الموروثة ، وهذا ما ساهم في شل الانطلاقة التقنية والاقتصادية للزراعة السورية .

اما الحل الذي اقترحه هوفولان فيقوم على اساس تنظيم زراعي راسمالي على غرار ما حدث في اوروبا ، وبالتحديد في فرنسا في سياق التطور الراسمالي ، ثم اصلاح النظام السياسي والمالي(١٠١) .

اما التقرير الثالث فقد قدمه (Achard) (١٠٢) ، وجاء فيه ان المشروع الراسمالي الذي يقترح تطبيقه في سورية يتطلب قرارات تنخرط في مشروع سياسي هو انشاء

دولة حديثة برجوازية على النمط الاوروبي ، وهذا بدوره يتطلب وجود قوى قادرة على التصدي للقوى الاجتماعية المعيقة للمشروع الزراعي الذي يقترحه خبراء الراسمالية الفرنسية ، والادارة التي يقترحها لتنفيذ هذا المشروع هي الانتداب الفرنسي ، وهي الادارة ذات المشروع السياسي الخاص بها والذي يتطلب اولا ضبط الاوضاع في سورية وقمع او استيعاب القوى المعارضة والرافضة لدخول الاجنبي(١٠٣) .

نلاحظ مما سبق ان الفترة الممتدة ما بين عام ١٩١٢ وعام ١٩١٩ ، كانت غنية بالتقارير والدراسات التي دلت على اهتمام فرنسا الاقتصادي بسورية ، ومن ضمن ما تناولته أيضا هذه التقارير موضوع التبادل التجاري ، ويبقى تقرير هوفولان خير ما وضع في ذلك من حيث « انه استطاع رصد السياسة الاقتصادية الفرنسية في سورية ورؤية مجموعة المصالح الاوروبية في نطاق حركة التبادل بين المناطق السورية والاوروبية » (١٠٤) ، فيذكر في تقريره ان قيمة مستوردات سورية من الخارج عام ١٩١٠ ــ ١٩١١ بلغت نحو ١٦٩مليون و ٣٠٠ الف فرنك فرنسي ، بينما بلغت قيمة صادراتها نحو ٨٥ مليون و ٣٦٨الف ، اي ان القيمة الاجمالية بلغت نحو ٢٥٤ مليونا و ٦٨٦ الف واذ يقدر هوفولان هذه المبادلات بقيمة الربع ، فان ٣٢٠ مليون فرنك هي قيمة المبادلات التجارية السورية في سنة عادية قبل الحرب(١٠٥) .

وبناء على احصاءات قام بها القناصل الانكليز في المدن السورية وضع هوفولان جدولين بين فيهما كيف تتوزع قيمة المبادلات بين الدول الاوروبية(١٠٦) .

الواردات ، المجموع الاجمالي ١٠٧ر٨٨٩ر٠

الدولة	القيمة	النسبة المئوية
بريطانيا	٤٠ر٢٥٢ر٠٠٠ فرنك	٢٧ر٣٪
تركيا	١٨ر٠٨٨ر٠٠٠ فرنك	١٦ر٧٪
فرنسا	١٠ر٥٨٩ر٠٠٠ فرنك	٩ر٨ ٪
النمسا	١٠ر٢٠٩ر٠٠٠ فرنك	٩ر٤ ٪
ايطاليا	٨ر٩٣٣ر٠٠٠ فرنك	٨ر٢ ٪
المانيا	٧ر٣٨٨ر٠٠٠ فرنك	٦ر٨ ٪
روسيا	٥ر٤٠٩ر٠٠٠ فرنك	٥ر٠ ٪
بلجيكا	٤ر٠٦٩ر٠٠٠ فرنك	٣ر٧ ٪
مصر	٢ر٩٥٢ر٠٠٠ فرنك	٢ر٧ ٪

الصادرات ٠٠٠ر٤٠٩ر٦٧

الدولة	القيمة	النسبة المئوية
فرنسا	٠٠٠ر٠٨٣ر٢٢	٥٢ر٣٢٪
تركيا	٠٠٠ر٦٥٦ر١٥	٠٥ر٢٣٪
مصر	٠٠ر٤٢٦ر١٥	٧١ر٢٢٪
بريطانيا	٠٠٠ر٧٠٧ر٦	٨٧ر٩٪
الولايات المتحدة	٠٠٠ر٠٦٨ر٤	٩٩ر٥٪
ايطاليا	٠٠٠ر٤٢٤ر١	٠٩ر٢٪
روسيا	٠٠٠ر٢٠١ر١	٧٦ر١٪
المانيا	٠٠٠ر٧٢٦	٠٦ر١٪
النمسا	٠٠٠ر٦١٣	٩٠ر٠٪

ومن هذين الجدولين يتبين ان فرنسا كانت تحتل المقام الاول في الاستيراد من سورية ، وهذا ما تؤكده مذكرة غرفة تجارة مرسيليا المرفوعة الى وزير الخارجية الفرنسية عام ١٩١٥ والتي جاء فيها ان فرنسا هي افضل مستورد من سورية ، فقد بلغت صادرات سورية الى فرنسا ماقيمته ١٥ مليون فرنك فرنسي ، فيما بلغت قيمة الصادرات الى بريطانيا ٦ ملايين ، والمانيا ٠٠٠ر٣٠٠ر١ ، والنمسا ٠٠٠ر٩٧٥ ، واهم هذه الصادرات الحرير ، ويليه الصوف والقطن والجلود والبرتقال .

هذه المعلومات تدل على ان فرنسا كانت تستفيد بشكل اساسي من الموارد الزراعية الاولية تلبية لحاجات صناعاتها ، بينما لا تستفيد بنفس القدر من الامكانات الشرائية السورية ، وتنافسها في ذلك بريطانيا . وقد تنبه الفرنسيون الى ان امكانات سورية الشرائية كانت اخذة في التقهقر وان سورية اخذت تتلقى اكثر مما تعطي ، وفي عام ١٩١٤ ، بلغت قيمة صادراتها نصف قيمة وارداتها ، وفي سنة ١٩١٩ اتسع الفرق بين الصادرات والواردات ، فاذا كان الفرق قبل ذلك بنسبة ١ الى ٢ ، أصبح ١ ـ ٦ ، وفي رأي هوفولان ، وهذا ما ذكره في تقريره ، ان عدم التوازن بين الصادر والوارد مؤقت ، وان التدني عام ١٩١٩ يعود بالدرجة الاولى الى انقطاع العلاقات الاقتصادية بين الداخل الذي تحتله السلطات الشريفية ـ الانكليزية والساحل الذي تديره فرنسا(١٠٧) .

في الوقت ذاته ، كانت غرفة تجارة مرسيليا تتطلع الى تعويض ما فاتها في حركة التبادل مع سورية من جهة مبيعاتها واحتكار السوق السوري كوسيلة لمحاربة تدفق السلع الاوروبية المنافسة لها .

بعد عرضنا للتقارير السابقة والتي جاءت كوثائق هامة ، ليس فيما تحويه من معلومات واحصائيات فحسب ، وانما للاهداف التي وضعت من اجلها ، وظروف وضعها ، وتقديمها للمسؤولين الفرنسيين والمؤسسات الاقتصادية والراي العام ،يمكن ان نجمل مضمونها فيما يلي :

أ ـ ان الوضع الاقتصادي في سورية منذ عام ١٩١٢ وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، كان يسير من سيء الى اسوا .

ب ـ ان التدهور الذي اصاب الاحوال الاقتصادية في سورية ، والعلاقات الاقتصادية الفرنسية معها والتي اصبحت في غير مصلحة فرنسا ، تعود الى عوامل عديدة ،بعضها آني يتعلق بالحرب العالمية الاولى واحداثها وبعضها مزمن يتعلق بوجود الدولة العثمانية وارتباط سورية بها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا .

جـ ـ بعد ان توصلت التقارير الى ذلك طرحت حلولا متعددة للمشاكل التي قدمتها ، وذلك من وجهة النظر الفرنسية ، تمثلت باقامة نظام سياسي جديد وتغير اجتماعي واقتصادي . ولا يتم ذلك الاعن طريق فرنسا .

وهذه التقارير بما جاء فيها من حلول واقتراحات جاءت في وقت كان فيه القلق والاضطراب قد اجتاح العالم وخاصة بعد ان هبت رياح الحرب العالمية الاولى وما سبقها واحاط بها من تنافس دولي ، وهذا القلق كان لفرنسا نصيب وافر منه ، فهي صاحبة المصالح الاقتصادية المتعددة في سورية ، وقد بدا واضحا على المؤسسات الاقتصادية التي كانت تضغط وبصورة مستمرة على الدوائر السياسية في باريس لتقف بحزم الى جانب الاحتفاظ بهذه المصالح. وهذا ما تؤكده رسالة غرفة تجارة ليون بشأن اتفاقية سايكس بيكو والمؤرخة في ٢٥ تشرين الاول ١٩١٨ والموجهة الى وزير الخارجية الفرنسية(١٠٨) ، فهي تظهر المزج الواضح بين الهدف الاقتصادي والغاية السياسية ، ولذلك ، ومن خلال هذا القلق ، وضعت تلك التقارير المسالة الاقتصادية كمسالة رئيسية يجب حلها بطريقة تخدم مصالح فرنسا الاقتصادية .

لقد توصلت هذه التقارير الى النتيجة التي هدفت اليها وهي ان تقوم الدوائر السياسية بوضع يدها على سورية ، لتقيم فيها النظام السياسي الذي يضع الحلول للوصول الى الاهداف الاقتصادية ، ويربطها بعجلة الراسمالية الفرنسية . ولذلك

حدث التدخل العسكري الفرنسي الثاني في سورية عام ١٩١٩ ، وتلاه القضاء على الدولة العربية القائمة بدمشق عام ١٩٢٠ .

وكان قد رافق هذا التدخل العسكري طرح نظام الانتداب الذي لم يكن سوى شكل جديد من انواع الاستعمار تفتقت عنه عقلية المستعمرين ، عندما اشارت هذه التقارير وبصراحة الى ان نظام الانتداب هو خير طريق لوصول فرنسا الى غرضها في استغلال سورية اقتصاديا ، وهذا سيؤدي الى تحسين اوضاع سورية الاقتصادية ؛ وتعود الفائدة على فرنسا ذاتها .

من ناحية عامة ، فان ما صورته التقارير الفرنسية السابقة بالوضع السيء الذي كان في سورية من الناحية الاقتصادية لم يكن حقيقة ، فالاقتصاد السوري كان مزدهرا ، وهذا لا يعني انه لم يكن يتعرض للازمات خصوصا في الازمات العالمية ؛ ولكن الاحوال الاقتصادية بوجه عام كانت مزدهرة ، والاقتصاد السوري يتمتع بوضع خاص في الامبراطورية ، واوضاع سورية الاقتصادية تعتبر افضل من غيرها من الولايات العثمانية . فالتجارة فيها كانت رابحة ، يخدمها في ذلك وضعها الجغرافي الممتاز ، وتجارة الترانزيت كان لها سهم وافر . وفي الزراعة ، كانت تعتبر موردا رئيسيا للمصادر الزراعية في الامبراطورية العثمانية ، وصناعاتها التقليدية كانت مزدهرة ، والصناعة الحديثة اخذت تجد لها مكانا .

معنى ذلك ان التصور الذي اعطاه الفرنسيون عن سوء الاحوال الاقتصادية قبل الاحتلال الفرنسي لم يكن حقيقة ، وهنا ننتقل الى الاحوال الاقتصادية بعد هذا الاحتلال .

عندما سيطر الفرنسيون على سورية ، ارادوا ان يجعلوا منها قاعدة هامة من قواعدهم الاقتصادية(١٠٩) وذكر غورو (Gouraud)(١١٠) في تموز ١٩٢٠ وبعد دخوله دمشق « لقد انفتح مستقبل غني للتجارة الفرنسية في الشرق(١١١) » لذلك اصبحت المهمة العاجلة للراسمالية الفرنسية هي فتح سورية سوقا لسلع فرنسة المصنعة .

خاتمة :

لقد تركزت مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية في بادىء الامر من خلال الامتيازات العديدة التي حصلت عليها فرنسا في الدولة العثمانية ؛ على اساس ان سورية كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية .

ان التطور التاريخي لهذه المصالح الاقتصادية تاثر بالعلاقات التي كانت تربط الدولتين العثمانية والفرنسية وبالاهداف التي كانت تسعى اليها فرنسا من وراء تلك

العلاقات ، كما ان هذه العلاقات كانت تتأثر تأثرا مباشرا ايضا بالعلاقات التي كانت تربط الدولة العثمانية بالدول الاوروبية الاخرى وهذا بالتالي كان يترك بصماته على المصالح الاقتصادية الفرنسية .

لقد كانت الامتيازات Capitulation هي الباب الذي نفذت منه فرنسا الى الشرق واقامت مصالحها الاقتصادية فيه خاصة في سورية ، من حيث أن هذه الامتيازات كانت في معظمها اقتصادية ، والدارس لبنود هذه المعاهدات التي صيغت فيها هذه الامتيازات ، يجد ان المظاهر الاقتصادية هي الغالبة ، واصبحت هذه المصالح الاقتصادية حسب المنظور الفرنسي المبني على الاستغلال حقوقا مكتسبة لفرنسا لا تقبل فيها المساومة او المنافسة ، خاصة عندما اغتنمت فرنسا فرصة ضعف الدولة العثمانية وحاجتها الى الاموال ، فانفتح الضغط الاوروبي عامة والفرنسي خاصة على مصراعيه ليجعل من الدولة العثمانية ارضا خصبة وملائمة للاستغلال الاوروبي.

وفي مطلع القرن العشرين كانت سورية تشكل الحلقة الرئيسية في بناء المصالح الاقتصادية الفرنسية ، واصبحت الاموال الفرنسية ذات اهمية بالغة في الاقتصاد السوري ، واصبحت معظم المشاريع الاقتصادية يتم تحويلها برؤوس اموال فرنسية.

وكانت قد دخلت تأثيرات اقلقت المسؤولين الفرنسيين وجعلتهم في حالة من الخوف على هذه المصالح ، وهذه التأثيرات بدأت بدخول عنصر المنافسة الانكليزية اولا ثم الالمانية ثانيا . ثم اصبحت انظار فرنسا مركزة على سورية وتخشى ضياع مصالحها الاقتصادية فيها ، وقامت المؤسسات الاقتصادية الفرنسية بتوجيه من المسؤولين السياسيين بدراسة الاوضاع الاقتصادية في سورية ذات العلاقة المباشرة مع المصالح الفرنسية ووضعت التقارير التي بينت ، من وجهة النظر الفرنسية ، مدى التدهور الذي أحاط بالوضع الاقتصادي السوري وتأثر فرنسا اقتصاديا بتلك الاوضاع ، وأخذت تشير هذه التقارير بصورة واضحة الى وجوب وضع فرنسا يدها على سورية وخلق نظام سياسي يتمشى مع المصالح الاقتصادية الفرنسية ، خاصة بعد اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى .

لقد قامت المؤسسات الاقتصادية الفرنسية بدور رئيسي في توجيه السياسة الفرنسية نحو الاستيلاء على سورية ، وهذا ناجم عن الترابط بين المؤسستين السياسية والاقتصادية في نظام راسمالي تقوم عليه الدولة الفرنسية ، ثم تبنى العسكريون الفرنسيون مبدأ التدخل العسكري الفرنسي في سورية لوضع توجيهات السياسيين والاقتصاديين موضع التنفيذ ، ولذلك كان التدخل العسكري الفرنسي الثاني عام ١٩١٩ في سورية ، الذي اعقبه تدهور اقتصادي انعكست آثاره على السوريين انفسهم وارتبطت سورية بعجلة الراسمالية الفرنسية .

الحواشي :

(١) ان تعبير سورية في هذه الورقة سيطلق اصطلاحا على سورية الطبيعية او بلاد الشام ، والحقيقة توجد اختلافات في استخدام تعبير سورية ، وخير من تعرض لهذه الاختلافات وبين حدود سورية الطبيعية او بلاد الشام الجغرافية ـ التاريخية هو محمد كرد علي في خطط الشام جـ١، بيروت، ١٩٦٩ ، ص ٩ـ١٠ .

وايضا :

A. Hourani , Syria and Lebanon, A political Essay (London: Oxford University Press, 1954), PP.4-5.

(٢) للاطلاع على هذا التدخل والظروف والدوافع التي احاطت به ، راجع : احمد طربين ١٠ زمة الحكم في لبنان ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ١١٩ ومابعدها .

وايضا :

Emerit M. « la crise Syrienne et l'expansion econmique française en 1860», Revue historique 22711, 1952, 67 année, pp. 211-232 .

(٣) للاطلاع على نص صك الانتداب على سورية ولبنان ، راجع : حسن الحكيم ، الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتدابي الفرنسي (بيروت : دار صادر، ١٩٧٢) ص ٢٢٩ـ٢٣٤ .

(٤) ـ كان التجار الايطاليون من البنادقة والفلورنسيين اسبق الاجانب الى المتاجرة مع بلاد الشرق الادنى والاقامة فيها ، وكان التجار الاخرون من انكليز وفرنسيين وغيرهم يمارسون تجارتهم عن طريق هؤلاء التجار الايطاليين . راجع : احمد عزت عبد الكريم ، دراسات في تاريخ العرب الحديث (بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٠) ص ٣٨.

(٥) وجيه كوثراني ، الاتجاهات الاجتماعية ـ السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠ (بيروت ، معهد الانماء العربي ، ١٩٨٢)، ص ٢١ـ٤٢ . وللتوسع في هذا الموضوع راجع: محمد انيس ، محاضرات في تاريخ الشرق الاوسط الحديث (القاهرة : مكتبة دار العالم العربي، بدون تاريخ) ص ١١٧ـ١١٨ .

(٦) عبد العزيز محمد عوض ، الادارة العثمانية في ولاية سورية (القاهرة : دار المعارف ١٩٦٩) ، ص ٨٠ وما بعدها

(٧) « Capitulations » وهي ماخوذة من Treaty Capitula او Chapter at

انظر: George Lenczowski, The Middle East in world Affairs (Ithaca, New York: Cornell University press,1958), p.5.

اما محمد انيس فهو يستخدم تعبير المعاهدات المنظمة لحياة الاوروبين بدل الامتيازات ، حول ذلك ورايه في اصول الامتيازات راجع : محمد انيس المرجع السابق ، ١١٨ـ١١٩ . اما تعريف « الامتيازات » فان ساطع الحصري يعرفها «بانها تلك التي نشات عن الفرامين التي اصدرها

والمعاهدات التي ابرمها سلاطين ال عثمان في تواريخ مختلفة في شتى الظروف والمناسبات وانها كانت تاخذ شكل نظم تعهدية » .

راجع : ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠)، ص ١٤٢ .

(٨) The Encyclopaedia of Islam, New Edition « Imtiyazat » Vol 111, pp. 1178 - 1195. Leiden :E.J. Brill, and London: Luzac Co. 1979, p. 1178.

(٩) المصدر ذاته ، ص ١١٨٢ . وايضا :

William Yale, The Near East, A modern History (Ann Arbor : The University of Michigan press, 1958),p.23.

ويذكر ستانفورد شو انه في عام ١٤٥٤ اعطيت للبندقية حقوق تجارية خاصة من قبل الدولة العثمانية.

راجع :

Stanford Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol. 1. Empire of the Gazis (Cambridge: Cambridge University press, 1956), p. 62.

(١٠) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقي ، (بيروت : دار النفائس، ١٩٨٣) ، ص ٢٠٢ ويذكر محمد فريد ان اول معاهدة تجارية امضيت بين الدولة العثمانية والاوروبيين تلك المعاهدة التي عقدها مراد الاول مع جمهورية راجوزة (راكوز) Raguse عام ١٣٦٥ وهي الان بلدة يوغوسلافية وتسمى دوبروفنيك Dobrovnik وتقع على شاطىء البحر الادرياتيكي . راجع : المرجع ذاته ، ص ١٣١.

(١١) George kirk, A short History of the Middle East.(Methuens London: University paper Backs, 1964, p. 55.

(١٢) امكن التوصل الى هذه الاتفاقية بعد مفاوضات اجراها السفير الفرنسي في استانبول جان دي لافوريه (Jean de laforet) وابراهيم باشا الصدر الاعظم . للاطلاع على هذه المفاوضات راجع : The Encyclopaedia of Islam, p. 1183.

(١٣) شارل الخامس هو ملك اسبانيا والهابسبرج هي الاسرة التي ينتمي اليها وهي من الاسر العريقة في اوروبا وتنسب اسرة الهابسبرج الى قلعة هابس (Habs - bourg) اي قلعة الصقر وهي قلعة في سويسرا الالمانية .

راجع : عبد العزيز محمد الشناوي ، اوروبا في مطلع العصور الحديثة ج١ (الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧)، ص ٢٢٧.

(١٤) محمد انيس المرجع السابق ، ص ٩٨-٩٩.

(١٥) نص هذه الاتفاقية وهو نص مترجم من مجموعة البارون دي تستا الموجودة في الكتبخانة الخديوية في: محمد فريد ، ص ٢٢٤-٢٢٩ . وايضا في J.C. Hurewitz, The Middle East and

North Africa in world politics, A documentary Record, Vol.1. (New Haven and London: Yale University press, 1975), pp. 1-5.

(١٦) Lenczowski, op. cit. p. 5.

(١٧) احمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق، ص ٢٨

(١٨) للاطلاع على الدور الذي لعبته غرفة تجارة مرسيليا في التجارة مع الشرق راجع : رسالة غرفة تجارة مرسيليا الى وزير الخارجية الفرنسية المؤرخة في ٢٦ تموز ١٩١٥ في : وجيه كوثراني ، بلاد الشام ، السكان والاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ـ قراءة في الوثائق (بيروت ، معهد الانماء العربي ، ١٩٨٤)، ملحق رقم ٢٢، ص ٢٩٠ـ٢٩١ .

(١٩) للاطلاع على البند الاول من اتفاقية ١٥٢٥ والذي جاء فيه ذلك في : محمد فريد ، ص ٢٢٤.

(٢٠) للاطلاع على نص هذه المعاهدة راجع : محمد فريد ، ص ٢٢٤ـ٢٢٥ .

(٢١) The Encyclopaedia of Islam, p. 1184.

(٢٢) Stanford Shaw, op. cit, p. 177.

(٢٣) عادل اسماعيل واميل خوري ، السياسة الدولية في الشرق العربي (٧٨٦ ـ ١٩٥٨) ج١ (بيروت : دار الكتب ١٩٦٤) ، ص ١٨

(٢٤) اشتهر هذا الكاردينال الفرنسي في تاريخ العالم الاوروبي بالسياسة والتدبير وكانت كل مساعيه موجهة نحو امرين اولهما : اذلال اشراف فرنسا لتقوية سلطة الحكومة وثانيهما : اضعاف مملكة النمسا حتى لا يخشى منها على فرنسا .

راجع : محمد فريد ، ص ٢٩٢ هامش رقم (٣).

(٢٥) حكمت ياسين، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية (تونس الدار التونسية للنشر ، ١٩٨١) ص ١٤ـ١٥ .

وايضا : Lenczowski, p. 266

(٢٦) للاطلاع على هذه التجديدات في الامتيازات ونوعيتها راجع :

The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.

(٢٧) اسرة كوبريلي (١٦٥٦ ـ ١٦٨٣) مؤسسها هو محمد كوبريلي الالباني الاصل الذي دخل في خدمة الدولة عن طريق الدفشرمة ثم التحق بالخدمة العسكرية ثم بقوة حراسة قرية كوبري في الاناضول (ومنها اتخذ اسمه) ثم تولى منصب الصدارة العظمى حيث تصدى للمشاكل الداخلية والتهديدات الخارجية ، وفي عام ١٦٦١ تولى منصب الصدارة ابنه فاضل احمد باشا الذي توفي عام ١٦٧٦، وخلفه اخرون من نفس الاسرة .

للاطلاع على هذه الاسرة ونشاطها في الدولة العثمانية راجع : احمد عبد الرحيم مصطفى ، اصول التاريخ العثماني ، (بيروت : دار الشروق ١٩٨٢) ص ١٥٢ـ١٥٨ .

(٢٨) The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.

(٢٩) حكمت ياسين ، ص ١٥ .

(٢٠) راجع : حسين مؤنس الشرق الاسلامي في العصر الحديث (القاهرة ، مطبعة حجازي ١٩٣٨، ص ١ ٧.

(٢١) The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.

(٢٢) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص٧٢.

(٢٣) احمد عزت عبد الكريم ،ص٤٩ــ٥٠ .

(٢٤) للاطلاع بشكل واسع على الاسباب التي ادت الى انحدار التاثير السياسي الفرنسي راجع : Hourani, p. 148

(٢٥) للاطلاع على نص مشروع هذه المعاهدة وما سبقها من اتصالات بين الدولتين راجع : محمد فريد ص ٢٧٩ــ٢٨٠ .

(٢٦) Stanford shaw, p. 270.

وايضا: Lenczowski, p. 266.

(٢٧) William Roe Polk and R.L. Chambers, eds., Beginings of modernization in the Middle East: The Nineteenth Century (Chicago : University of Chicago press, 1968), p. 208 .

(٢٨) جاء ابرام هذه المعاهدة اثر عقد مؤتمر في باريس سنة ١٨٥٦ لاعادة الصلح والسلام بين المتحاربين في شبه جزيرة القرم والتي بدات كحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٤ عندما هجم الاسطول العثماني الذي كان راسيا في ميناء سينوب ودمره وهبت بريطانيا لمساعدة الدولة العثمانية ، واقنعت دول اخرى للاشتراك معها ومن ضمنها فرنسا لارسال حمله الى القرم لضرب روسيا في بلادها . راجع : ساطع الحصري ، ص ١٥١ .

(٢٩) علي محافظة ، موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ــ١٩٤٥ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٥) ،ص١٦.وللتوسع في هذا الموضوع راجع :
The Encyclopaedia of Islam ,p. 1187.

(٤٠) للاطلاع على نص هذه المادة راجع محمد فريد، ص ٥٢١ ويمكن الاطلاع على نص المعاهدة كاملة في:
Hurewitz, pp. 319-322.

(٤١) للاطلاع على هذه التنظيمات راجع : محمد انيس ص ١٥٤ــ١٥٥.

(٤٢) يمكن مراجعة هذه المحاولة التي قام بها عالي باشا في :

Jacques Thobie, Interets et imperialisme français dans l' Empire Ottoman, 1895 - 1914, (Paris: publications de la Sorbonne , 1977), pp. 25 - 27.

وايضا : The Encyclopaedia of Islam, p. 1188.

(٤٤) William yale, op. cit., p. 215.

(٤٥) Stanford Shaw, p. 181.

(٤٦) Hurewitz, pp. 5-6.

(٤٧) للاطلاع على ذلك وبالتفصيل راجع : The Encyclopaedia of Islam, p. 1184.

(٤٨) Shaw, p. 181.

وللاطلاع على النص الانجليزي لهذه الاتفاقيةراجع :

Hurewitz , pp. 8-10 .

(٤٩) تالفت هذه الشركة من نفس المجموعة من التجار الانجليز الذين ارسلوا هاربورن الىاسطنبول وضمت اخرين ، وفي ١١ سبتمبر ١٥٨١ اصدرت الحكومة الانجليزية ميثاقا للشركة تقوم بموجبه بمزاولة التجارة الانجليزية مع الامبراطوريةالعثمانية . انظر : Shaw, p. 181.

وللاطلاع على نصوص ذلك الميثاق بالانجليزيةراجع :

Hurewitz, pp. 10-15.

(٥٠) Ibid., p. 10.

(٥١) للاطلاع على النص الانجليزي لقرار البرلمانالبريطاني ، راجع :

Hurewitz, pp. 223-226 .

(٥٢) A.C. wood, A History of the Levant Company, (London : oxford University press, 1935) , pp. 6-14.

(٥٣) محمد انيس ، ص ١٢٠.

(٥٤) Kirk, p. 69.

(٥٥) احمد عزت عبد الكريم ، ص٢٨.

(٥٦) Kirk, p. 65.

(٥٧) Hurewitz, p. 34.

(٥٨) للاطلاععلىهذهالمفاوضاتراجع: G.F. Abbot, Under the Turk in Constantinople, A record of Sir John Finch's Embassy, 1674 - 1681 (London, Macmillan, 1920), pp. 9-11.

وللاطلاع على نصوص هذه الاتفاقية راجع: Hurewitz, pp. 34-41.

(٥٩) وجيه كوثراني ، الاتجاهات الاجتماعية ـ السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي،ص٤٦.

(٦٠) للاطلاع على نص هذه الاتفاقية راجع : Hurewitz, pp. 265-266.

(٦١) راجع نص المعاهدة في : Hurewitz, pp. 319-322.

(٦٢) للاطلاع على ذلك راجع : على محافظة ، موقف فرنسا والمانيا وايطالية من الوحدة العربية ١٩١٩ـ١٩٤٥ (بيروت : مركز دراسات الوحدةالعربية ،١٩٨٥) ص ١٦. اما نص المادة (٨) من معاهدة برلين فيمكن الاطلاع عليها في : محمد فريد ، ص ٦٨٣.

(٦٣) Kirk, p. 89.

وايضا : The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.

(٦٤) في هذا العام تقدمت الجيوش الالمانية سريعاً في الاراضي الفرنسية واخذت تهزم الجيش الفرنسي في مواقع متتالية ، واضطرت باريس في النهاية الى التسليم في ٢٨ كانون الثاني (يناير)١٨٧١ انظر : محمد قاسم واحمد نجيب هاشم ، التاريخ الحديث (القاهرة : دار المعارف ، بدون تاريخ) ، ص ١٧٣-١٧٤.

(٦٥) للاطلاع على معاهدة برلين راجع :

Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, Vol.1 A docu mentary Record, (Princeton : Van Nostrand, 1956), pp. 189-190.

(٦٦) علي محافظة ، العلاقات الالمانية الفلسطينية، ١٨٤١ - ١٩٤٥ (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١) ، ص ١٢-١٣.

(٦٧) محمد انيس ، ص١٠٣ و ص ١٤٢.

(٦٨) المرجع ذاته ، ص ١٤٢ .

وايضا : Lenczowski, p. 23.

(٦٩) للاطلاع على وجهة نظر بسمارك حول تلك المعارضة رجع :محمد انيس ، ص ١٠٤.

(٧٠) المرجع ذاته ، ص ١٠٥.

وايضا : زين نور الدين زين ، الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سورية ولبنان (بيروت : دار النهار للنشر ،١٩٧١) ص ٥٠.

(٧١) Kirk, pp. 89-90.

وايضا : محمد انيس ، ص ١٠٥-١٠٦

Raymond Poidevin, les relaitons économiques et Financieres entre la France et l'Allemagne de 1898 - 1914,(Paris : Armand Colin, 1969) p. 254 .

(٧٢) محمد انيس ، ص ١٤٣-١٤٤.

(٧٤) Kirk, p. 90.

وايضا : Poidevin, p. 65.

(٧٥) محمد انيس ، ص ١٤٣-١٤٤.

(٧٦) للاطلاع على نشاط هذه البنوك والشركات التي اسستها راجع : Poidevin, p. 568.

(٧٧) Ibid., pp. 488-589.

(٧٨) للتوسع في هذا الوضوع والقارنة بين التجارةالالمانية والفرنسية راجع :
E.m. Earle: Turkey, The great powers and the Bagdad Railway,A study in the imperialism, London, New York, 1923, p. 106.

(٧٩) جلال احمد امين ، الشرق العربي والغرب(بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ،١٩٧٩)، ص ٢٥ .

(٨٠) حول هذه البنوك ونشاطها راجع : Thobie, pp. 450-524.
وايضا :
P. lyautey, le Drame oriental de la Role de la France, paul Brodard, 1924, p. 151.

(٨١) Thobie, pp. 170-172.
وللاطلاع على العوامل التي كانت تشجع الشركات الاجنبية الىالتسابقفي مد الخطوطالحديدية راجع : ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠) ص ١٤٦ـ١٤٧.

(٨٢) علي محافظة ، موقف فرنسا والمانيا وايطاليةمن الوحدة العربية ،ص٢١.

(٨٣) Poidevin, op. cit,. p. 65.

(٨٤) Thobie, p. 524.

(٨٥) علي محافظة ، موقف فرنسا والمانيا وايطاليةمن الوحدة العربية ص ١٧ـ١٨.

(٨٦) Thobie, pp. 95-100.

(٨٧) Ibid., p. 158-160.
وايضا : علي محافظة ، العلاقات الالمانية الفلسطينية ، ص ١٨.

(٨٨) حكمت ياسين ، ص ١٩.

(٨٩) Poincaré, Raymond, Au service de la France Les Petits fils de plont et Nouvrit. Paris , 1945, p. 405.
وايضا : ساطع الحصري ، يوم ميسلون ،مذكرات (بيروت : دار الاتحاد ، بدون تاريخ)ص.٥.

(٩٠) Leonard Stein, Syria (London: rnest Ben , 1926), p. 19.

(٩١) حكمت ياسين ، ص ٢٨
وللاطلاع على نص الاتفاقيات التي عقدت بينالدولة العثمانية وفرنسا راجع : ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت :دار العلم للملايين ، ١٩٦٠) ،ص٢١٩ـ٢٢٠ .

(٩٢) للاطلاع على تلك المفاوضات والاتفاقيات راجع: المرجع ذاته، ص ٢٠٤ ـ٢١٥ و ٢٢٣، ويمكن الاطلاع على تعليق ساطع الحصري حول تلك الاتفاقيات في المرجع ذاته، ص ٢٢٤ـ٢٢٧.

(٩٣) فاضل حسين ، مؤتمر لوزان واثره في البلادالعربية (القاهرة : دار النهضة ، ١٩٥٨) ، ص ٢٤-٢٥.

(٩٤) على محافظة ، موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية ، ص ٤١ نقلا عن :
Emile Laloy, ed ., les documents secrets des archives du Ministère des Affaires Etrangères de Russie Publiés par les Bolcheviks(Paris: Brossard, 1919), pp. 107 - 110 .

(٩٥) وجيه كوثراني ، بلاد الشام : السكان والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، قراءة في الوثائق (بيروت : معهد الانماء العربي،١٩٨٤) ، ص ١٠٢ .

(٩٦) P. Chevallier, « lyon et la syrie en 1919, les bases d' un intervention» Revue Historique, oct.-dec . 1960, p.286 .

(٩٧) للاطلاع على المزيد حول هذا الموضوع راجع: حكمت ياسين ، ص ٣٥.

(٩٨) Chevallier, op. cit., p. 295.

(٩٩) وجيه كوثراني ، المرجع السابق ، ص ١١٢نقلا عن :
Chambre de commerce de Marseille:Note sur la valeur économique de la Syrie, Marseille, 1915, p. 22.

ويمكن الاطلاع على تجارة الحرير السورية معفرنسا في :
Henry Richard , la Syrie et la Guerre,Dessaint et Cie. 1916., p. 19.

(١٠٠) هذا التقرير في : وجيه كوثراني ، المرجع السابق ، ص ١١٢-١١٤ نقلا عن التقرير الذي وضعه بالفرنسية
(M. croizat) Rapport sur la Sericiculture en Syrie etabli par M. Croizat, a la suite de la mission envoyée en Syrie par les Chambres de Commerce de lyon et de Marseille(1919) .

(١٠١) للاطلاع على هذا التقرير راجع : وجيهكوثراني ، المرجع السابق ، ص١١٥ - ١٢١، نقلا عن تقرير Huvelin بالفرنسية Paul Huvelin, que vaut la Syrie, Documents economiques Politiques publiés par « L'Asie française » des. 1921 pp. 15-18.

(١٠٢) هو احد المهندسين الزراعيين اشترك في بعثةحولونوالعام ١٩١٩لدراسة اوضاع سورية الاقتصادية.

(١٠٣) للاطلاع على هذا التقرير راجع : وجيهكوثراني ، ص١٢١-١٢٢ ،نقلا عن تقرير (Achard) بالفرنسية .
Achard, Notes Sur la Cilicie et Notes sur la Syrie par Ed - c. « Supplement a' L'Asie Française » juillet - Aout , 1922, p. 102.

(١٠٤) وجيه كوثراني ، بلاد الشام ، السكان ،الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، قراءة في الوثائق ، ص ١٣٩ .

(١٠٥) المرجع ذاته ، ص ٣٩ ١.

(١٠٦) تقرير هوفولان ، ص٤١ .

للاطلاع على نص هذه المذكرة راجع : وجيه‌كوثراني ، ملحق رقم ٢٢، ص٣٩٠-٤٠٩ .

(١٠٧) تقرير هوفولان ، ص ٤١ .

(١٠٨) للاطلاع على نص هذه المذكرة راجع : وجيه‌كوثراني ، ملحق رقم ٢٤ ، ص٤١١-٤١٣.

(١٠٩) جريدة فتى العرب ، العدد ٢٤٢٧ ، السنةالثانية عشرة ، ١٢ اذار (مارس) سنة ١٩٢٠ .

(١١٠) غورو هو الجنرال الفرنسي الذي دخل دمشق‌في تموز ١٩٢٠ بعد معركة ميسلون وهو اول مفوض سامي فرنسي في سورية ولبنان .

(١١١) وجيه كوثراني ، بلاد الشام . السكان والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، ص١٤٦.

تنويه :

حدث خطأ في السطر الثاني من‌عنوان البحث ، والصحيح (١٥٢٥ - ١٩٢٠) .

القطائع في صدر الإسلام
(عصر الرسول والخلفاء الراشدين)

د . محمد عبد القادر خريسات

الجامعة الادرنية

مقدمة : عرف نظام القطائع منذ اقدم العصور ، ومارسته شعوب عديدة كالبابليين واليمنيين والفرس والبيزنطيين . ففي بلاد ما بين النهرين مواد قانونية عديدة تتعلق بالاراضي والملكية وشروط الاستغلال والايجار والقطائع . وتذكر لامبتون ان حكام بلاد ما بين النهرين اعتمدوا في تموينهم للجند ودفع مرتباتهم على منح القطائع لمن يقدمون الخدمات العسكرية(١) .

وقد اشارت المادتان (٢٧ ، ٢٨) من شريعة حمورابي الى هذا الشكل من القطائع(٢). واشارت المادة ٢٧ الى ما نصه : اذا اسر جندي او سماك في أثناء الخدمة المسلحة للملك . وبعد ذلك اعطي حقله وبستانه لرجل آخر ، وأوفى ما عليه من الالتزامات الاقطاعية . فاذا عاد (الاسير) ووصل بلدته ، فعليهم ان يعيدوا له حقله وبستانه ، وعليه ان يمارس حقوقه الاقطاعية . اما المادة (٢٨) فقد نصت على ما يلي: اذا اسر جندي او سماك اثناء الخدمة المسلحة للملك ، وكان ابنه قادرا على القيام بالالتزامات الاقطاعية ، فعليهم ان يعطوه الحقل والبستان ، وعليه ان يمارس حقوق والده الاقطاعية . وحظرت المادة (٣٨) من شريعة حمورابي ان يقطع الجندي او السماك زوجته او ابنته من الحقل والبستان والبيت الذي اقطع له او يعطيه مقابل ما عليه من التزامات .

وفي اليمن شكلت الارض العنصر الاول في نظام الاقتصاد اليمني ، فكانت من الوجهة النظرية ملكا للآلهة ، لكنها من الوجهة العملية ملكا للملك يتصرف بها كما يشاء . وكان الملوك اذا غلبوا اعداءهم جعلوا ارضهم ملكا لهم ، لانهم استولوا عليها

بالقوة ، فهي لهم ومن حقهم مصادرتها ، ويسلم الملك جزءا منها الى الآلهة أي المعبد، وجزءا الى شعب سبأ . وكان الملك يقطع هذه الاراضي الى البارزين في المجتمع مثل رؤساء القبائل : « شعبها » ، والقادة الكبار (كبر) ، مقابل دفع خراج يتفق عليه ، ويقوم هؤلاء باستغلالها (٣) . وقد تشكل هؤلاء (اوليغاركية) اقطاعية تحكم مع الملك (٤) .

وبرزت القطائع عند الفرس في القرنين الثالث والرابع الميلاديين وتميز ذلك بنمو المدن وتكاثرها ، وهي ظاهرة تلازم مقتضيات الاقطاع الشرقي(٥) . وتشير المصادر أن القطائع الفارسية كانت كغيرها من قطائع الشعوب الاخرى تهدف الى تقديم الخدمة العسكرية دون ان تكون حق ملكية خاصة . واصبح أصحاب هذه القطائع يشكلون مع الزمن طبقة بيدها الوظائف الهامة ، كما أصبحت هذه الوظائف وراثية في الدولة الساسانية وسميت بوظائف « شرف » تبين مكانة شاغليها ...... وكانت قوة هؤلاء تستند على دخل اقطاعاتهم ، ثم على ما بينهم وبين رعاياهم في الاقطاع من صلة قوية وخاصة في العهد السابق على قباذ وكسرى الاول(٦) . ويعني مصطلح الدهاقين الذي بقي في العصور الاسلامية أنهم « الرؤساء وملاك الاراضي والقرى ». وكان هؤلاء (الدهاقين) كعجلات لا غنى عنها فيالآت الدولة ، ولهم قيمتهم التي لا تقدر على أساس ، من حيث أنهم أساس متين للادارة وبناء الدولة(٧) . وقد اقطع سابور مناطق الطف والقطقطانة والرهيمة وعين جمل الواقعة خلف الخندق الذي حفره بينه وبين العرب الى مرازبته يعتملونها من غير أن يلزمهم الخراج . وغلب العرب على طائفة من تلك العيون بعد ذي قار(٨) . كما كانت هناك قطائع لكسرى في القادسية وبارق ولعلع(٩) .

ولم تقتصر قطائع الفرس على مرازبتهم فحسب ، بل امتد ذلك الى القبائل العربية التي كانت مجاورة لهم . لقد اقطع الفرس الى ذوي الآكال من وائل شيبان ، واقطع قيس بن مسعود الشيباني الأبلة وثمانين قرية من قراها(١٠) ، واقطع الفرس امرأ القيس بن عمر بن عدى بن نصر وشرفوه توجوه(١١) . كما قاموا باقطاع عدي بن زيد العبادي ، وكان هؤلاء أهل بيت يكونون مع الاكاسرة لهم معهم أكل وناحية ويقطعونهم القطائع ويجزلون صلاتهم(١٢) .

وتعدت قطائع الفرس أشراف القبائل الى الاشخاص العاديين ، فقد اقطع كسرى امراة يقال لها ابان فسميت القرية باسمها (١٣)، واقطع المخرم بن يزيد بن شريح منزلا كان ينزله أيام نزول العرب السواد في بلاء الاسلام فسمي الموضع به(١٤) .

وفي الامبراطورية البيزنطية كانت الارض المصدر الرئيسي لخزانة الدولة ، والاقطاع لا يعطى الا لغرض الحماية والمؤونة . وقد كون الاقطاعيون طبقة من النبلاء الذين يتمتعون بالامتيازات الواسعة ، تمكنوا في القرن الرابع الميلادي من الحصول على حق الحماية Autopragia وذلك يعني عدم دخول الجباة اراضيهم . ويضاف الى ذلك ان التجارة والحياة المدنية قد ازدهرت الى جانب الاقطاع . وكان النبلاءوالسادة الاقطاعيون يعيشون في المدن ، واراضيهم موزعة في جهات مختلفة(١٥) . ويذكر ابن عساكر ان قطائع بطارقة الروم في بلاد الشام يديرها الانباط ، اما البطارقة فيقيمون في المدن(١٦) . ومن قطائعهم في بلاد الشام بالس وقاصرين وما جاورهما من القرى(١٧) واندركسيان ، وقبيس بالبلقاء ، وفي خمص(١٨) .

وفي الاسلام اكتسب مفهوم القطائع مدلولات مختلفة عبر فترات التاريخ الاسلامي ، وبدات وجهات النظر تتباين حول مفهوم ملكية الارض منذ زمن عمر بن الخطاب ، وهذا الاختلاف شكل مفاهيم فقهية اخذت تتبلور في الفترة العباسية(١٩) .. وقد ادى ذلك الى اختلاف مفاهيم الاقطاع وتباينها حتى في العصر الواحد احيانا . وتغير المفاهيم واختلافها امر طبيعي فلكل مجتمع مفاهيمه الفنيةالتي يتغير استعمالها بين فترة واخرى .

والقطائع لغة جمع قطيعة والقطيعة ما اقتطعته منه .. واقطعني اياها اذن لي في اقتطاعها . واستقطعه اياها : سأله ان يقطعه اياها . واقطعته قطيعة : اي طائفة من ارض . واقطعه نهرا : اباحه له(٢٠) . وورد في المصادر لفظة اقطاع وقطائع .. وفي المعنى الاصطلاحي عرف قدامة بن جعفر (ت بين ٣٢٨ - ٣٣٧ هـ) الاقطاع فقال « ان يدفع الائمة الى من يرون ان يدفعوا اليه شيئا مما ذكرناه (الارضين) ، فيملك المدفوع ذلك اليه رقبته بحق الاقطاع ، ويجب عليه فيه العشر (٢١) .

وعرّفه الخوارزمي (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) بقوله : « الاقطاع ان يقطع السلطان رجلا ارضا فتصير له رقبتها ، وتسمى تلك الارضون قطائع ، واحدتها قطيعة»(٢٢).

اما ياقوت الحموي فنظر الى الاقطاع من زاويتين وقال: للقطيعة معنيان(٢٣) :

الاول : ان يعمد الامام الجائز الامر والطاعة الى قطعة من الارض ، يفرزها عما يجاورها ويهبها من يرى ، ليعمرها وينتفع بها .. إما ان يجعلها منازل ويسكنها من يشاء ، وإما ان يجعلها مزدرعا ينتفع بما يحصل من غلتها ولا خراج عليه فيه . او ربما جعل على مزدرعها خراج .

والثاني : ان يقطع السلطان من يشاء من قواده وغيره القرى والنواحي ، ويقطع عليهم عنها شيئا معلوما يؤدونه في كل عام قل أو كثر ، توفر محصولها او نـزر ، لا مدخل للسلطان معه في أكثر من ذلك .

اما الخزاعي (ت ٧٨٩ هـ) فقد قال عن الاقطاع : « بأنه تسويغ الامام من مال الله لمن يراه أهلا لذلك، فاصله كانه اقطع من جملة المال » (٢٤) .

وهذه التعريفات وان اختلفت في اللفظ ، الا أنها تتفق في المعنى الذي يتمثل بمنح ولي الامر قطعة من الارض لشخص معين إما لغايات السكن أو الزراعة او الجندية(٢٥).

واورد الفقهاء الى جانب مصطلح الاقطاع والقطائع مصطلحات اخرى تختلف بعض الشيء عن القطائع وهي :

الايغار : وهو ان تحمي الضيعة من أن يدخلها احد من العمال واسبابهم بما يأمر الامام به من وضع شيء يؤدى فى السنة اما في بيت المال او في غيره من الامصار(٢٦). والايغار هنا شكل من أشكال القطائع التي اشار اليه ياقوت .

الطعمة : وهي ان يدفع للرجل الضيعة يستغلها مدة حياته حتى اذا مات ارتجعت بعده . والفرق بين الاقطاع والطعمة ان الاقطاع يكون لعقبه من بعده ، والطعمة ترتجع منه(٢٧) . وهناك مصطلح ثالث وهو اقطاع الارفاق ويقصد به التمليك المؤقت كالقاعدة بالاسواق التي هي طرق المسلمين ، فمن قعد في موضع منها كان له بقدر ما يصلح له ما كان مقيما فيه ، فاذا فارقه لم يكن له موضع غيره كابنية العرب وفساطيطهم ، فاذا انتجعوا لم يملكوا بها حيث نزلوا(٢٨) ، وكذلك الاختصاص بالمساجد والربط لا ملك فيها مع التمكن من التصرف(٢٩) .

ولا يطلق لفظ الاقطاع او القطائع الا على ما يقطعه الامام لمن يراه من رعيته، فاذا صدر عن شخص عادي سمي عطية . فقد اورد البلاذري ما نصه : « كانت عين الرومية وماؤها للوليد بن عقبة بن ابي معيط فاعطاها ابا زبيد الطائي ، ثم صارت لابي العباس أمير المؤمنين فاقطعها ميمون بن حمزة »(٣٠) . كما لا يطلق لفظ القطائع على الارض التي يمنحها الخليفة لغير المسلم . فقد كتب عمر الى نصارى نجران عندما اجلاهم عن اليمن : « فمن مروا به من أمراء الشام وامراء العراق فليوسعهم من حرث الارض ، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم ، صدقة لوجه الله عقبة لهم مكان ارضهم ولا سبيل عليهم فيه لاحد ولا مغرم »(٣١) وكتب عثمان بشانهم الى الوليد بن عقبة

ما نصه : واني وفيت لهم بكل أرضهم التي تصدق عليهم عمر عقبي مكان أرضهم باليمن(٣٢) .

القطائع في عهد الرسول (ص) :

عرف العرب قبل الاسلام الملكية الفردية في المناطق الزراعية ، والملكية الجماعية في المناطق الرعوية . فقد جاء في الاغاني أن أوس بن قلامة قال لايوب بن محروف ، جد عدي بن زيد لما لحق به : فانظر احب مكان في الحيرة اليك فاعلمني به لاقطعكه او ابتاعه لك(٣٣) . وكان اللخميون يقطعون مساعديهم في الحيرة ، فقد اقطع النعمان بن المنذر السوادية لسواد بن زيد بن عدي(٣٤) . كما عرف العرب نظام القبالة ، فذكر البلاذري أن مرداس بن ابي عامر وكليب بن عهمة الظفري من بني سليم قد اختطا القرية وهي خطة بني سليم ، فلم يكن عندهما نفقة فجعلا لمن ينفق عليها ثلثها(٣٥) .

وعندما جاء الاسلام وهاجر الرسول «ص» الى المدينة كانت الملكية الفردية واضحة لان المدينة منطقة زراعية ماهولة . ولم يحاول الرسول «ص» ان يقلب المؤسسات الاقتصادية والمالية التي كانت قائمة فيها او ان يمس املاك اهلها(٣٦) . وبادر الانصار فجعلوا للرسول «ص» كل أرض لا يبلغها الماء يصنع فيها ما يشاء(٣٧) كما وهبوا له كل فضل في خطط المدينة(٣٨) . ثم تبلور بعد ذلك ملكية الدولة للاراضي ، وقد انطلق هذا المفهوم من موات الارض التي لا مالك لها ، ومن هنا قال الرسول «ص» عادي الارض لله ولرسوله ثم هي لكم(٣٩) ، والعادي كل ارض لها ساكن في قديم الدهر ، فانقرضوا حتى لم يبق بها احد فحكمها الى الامام . وتحدد المفهوم الثاني للارض عندما اقصي بنو النضير ، واعتبرت فيئا ، وهو تعبير غير محدد في أصله ومعناه ولكنه يستلزم حتما ان تكون هذه الغنيمة بيد الرسول «ص» يتصرف بها كما يشاء(٤٠) . وقد خص المهاجرين دون غيرهم ما عدا سهل بن حنيف وسماك الانصاريين لفقرهما .

وتمثلت دوافع الاقطاع في عهد الرسول «ص» بالامور التالية :

تالف القبائل على الاسلام : تشير المصادر الى ان الرسول «ص» قد اكثر من هذه القطائع خاصة في السنة التاسعة للهجرة التي سميت بعام الوفود . ومن تتبع المصادر يلاحظ أن هذه القطائع قد جاءت بمبادرة من رؤساء القبائل . وهذه القطائع كما يذكر ابو عبيد(٤١) كانت من موات ارضهم بعد ان اسلموا ، أو من الاراضي التي كانت مشاعا بين القبائل حيث كانت القبائل تتحامى بعض الارض تحاميا(٤٢) ، أو

كانت ملكيات مشتركة بين قبيلة او اكثر كالدهناء التي كانت لبني بكر وتميم(٤٣) . علما بأن القبائل كانت تضع علامات لها تسمى المنار(٤٤) .

ومن الذين اقطعهم الرسول «ص» لغايات التالف على الاسلام فرات بن حيان العجلي ، اقطعه ارضا باليمامة(٤٥) ، والعباس بن مرداس السلمي عندما شخص اليه «ص» واستقطعه الدثنية فاقطعه اياها على ان ليس له منها الا فضل ابن انسبيل(٤٦) ، والدثنية ماء لبني سليم(٤٧) ، واقطع «ص» راشد بن عبد ربه السلمي رهاطا وهي في ينبع ، وسعجى(٤٨) ، واقطع «ص» ربيع بن معاوية ومطرف بن عبد الله ، وانس بن قيس وهم وفد عقيل بن كعب عقيق بن عقيل ، وهي ارض فيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتابا ، ولم يعطهم حقا لمسلم(٤٩) ، واقطع الرقاد بن عمرو الفلج ضيعة وكتب له كتابا(٥٠) ، وزيد الخيل الطائي فيد ومحطين في أرضه(٥١) ومجاعة بن مرارة بن سلمى الغورة وغرابة والحبل وهي مواضع ومياه في اليمامة(٥٢). واستقطع عمرو بن سلمة حمى بين الشقراء والسعدية فاقطعه اياها(٥٣) ، واقطع حمزة بن النعمان العذري رمية سوط من وادي القرى ، وكان حمزة سيد بني عذرة، وهو اول أهل الحجاز قدم على الرسول «ص» بصدقة بني عذرة(٥٤) . واقطع وائل ابن حجر الحضرمي وكان من ملوك اليمن ارضا بحضرموت(٥٥) ، والعداء بن خالد بن هوذة مياها كان لبني عمرو بن عامر(٥٦) ، ومعاوية بن جرول ما اسلم عليه وقومه من بلادهم ومياههم وغدوة الغنم من وراء البلاد التي اسلموا عليها(٥٧) ، واقطع الرسول «ص» كذلك بلال بن الحارث المزني قطائع متعددة(٥٨) . واقطع «ص» عوسجة بن حرملة الجهني من ذي المروة وهي قرية بوادي القرى ، وما بين بلكثة الى الطيبة الى الجعلاب الى جبل القلعة وهذه المناطق قريبة من ذى المروة(٥٩) . واقطع كشد بن مالك الجهني ينبع ، فلما أخذها قال اني كبير ، ولكن اقطعها لابن اخي فاقطعها له(٦٠)، واقطع لبني شيخ من جهينة ما خطوا من صفنية وما حرثوا (٦١)، والى حصن بن نضلة الاسدي ترمد وهي موضع في بلاد بني أسد(٦٢) ، والى قتادة بن الاعور بن ساعدة التميمي الشبكة وهي موضع بالدهناء(٦٣) ، كما اقطع عيينة بن حصن والاقرع بن حابس ، والرجال بن عنفوة ، ومحكم بن الطفيل(٦٤) .

واقطاع الرسول (ص) لهذه القبائل هو من باب اقرار الحقوق لها او لتاليفها على الاسلام كما ذكرت ، فقد سال صخر بن العيلة الرسول (ص) ماء لبني سليم هربوا عن الاسلام وتركوا الماء ، فقال يا نبي الله انزلنيه انا وقومي . قال : نعم . فانزله . ولما أسلم السلميون أتوا صخرا فسالوه أن يدفع اليهم الماء ، فابى .. فاتوا النبي (ص) فقال يا صخر : ان القوم اذا اسلموا حرزوا اموالهم ودماءهم ، فادفع الى القوم ماءهم . قال نعم يانبي الله (٦٥) ..

لاحياء الارض الموات : احياء الموات وسيلة لاستصلاح الاراضي واستغلالها ، ومن هنا راى الرسول (ص) منح هذه الاراضي الى اناس معينين كي يقوموا باستغلالها. ومن الذين اقطع لهم من الاراضي الموات ابيض بن حمال المازني ، اقطعه الملح الذي بمارب وهو يعتقد أن ذلك ارض موات يريد احياءها(٦٦) ، وسليط الانصاري اقطع أرضا ليحييها فاحياها ، لكنه عاد واستاذن الرسول (ص) بالتخلي عنها ، لانها تشغله عنه ، كما لم يعد له بها حاجة فاستقطعها الزبير فاقطعه اياها(٦٧) . واقطع كذلك الزبير بن العوام وابا بكر وعمر وسهيل بن حنيف وعبد الرحمن بن عوف عامرا ومواتا من اموال بني النضير ، وفي بعض الروايات غامرا وهي الخراب التي يبلغها الماء(٦٨) . واقطع عليا ارضا بينبع ، وعمار بن ياسر بذى العشيرة(٦٩) ، واقطع ابا بكر حجر ، وعمر بن الخطاب بئر جرم وصهيب بن سنان الضراطة ، وعبد الرحمن بن عوف سواله وكيدمه ، وابا سلمة بن عبد الاسد البويرة(٧٠) .

والواقع ان الرسول (ص) قد خص المهاجرين بأراضي بني النضير لحاجة المهاجرين أولا ، وحتى يخفف عن الانصار ، ويعيد للانصار ما اعطوا للمهاجرين عند قدومهم المدينة فقال (ص) مخاطبا الانصار : ليست لاخوانكم المهاجرين اموال ، فان شئتم قسمت هذه واموالكم بينكم وبينهم جميعا ، وان شئتم امسكتم اموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة(٧١) . فلما طابت نفس الانصار عن هذه الاموال امر المهاجرين برد ما كان للانصار لاستغنائهم عنهم . ولانهم لم يكونوا ملكوهم ذلك وانما دفعوا اليهم تلك النخيل لينتفعوا بثمرها(٧٢) . فكان هذا الاتجاه نحو الارض الموات وسيلة لاستصلاحها .

الخطط : لما هاجر الرسول (ص) الى المدينة انزل المهاجرين في دور الانصار يسكنون فيها معهم ، حيث يذكر أن سهم عثمان بن مظعون وقع على ام العلاء الانصارية(٧٣) . وبعد أن تخلى الانصار عن فضل خططهم ، واراضيهم التي لا يبلغها الماء الى الرسول (ص) ، قام عليه الصلاة والسلام باقطاع المهاجرين دورا وخططا في المدينة . ومن الذين اقطعوا دورا من الصحابة : أبو بكر(٧٤) ، وعثمان بن عفان(٧٥) ، وعمار بن ياسر(٧٦) ، والمغيرة بن شعبة ، اقطع خطة في البقيع (٧٧) . ولما خط الرسول (ص) المدينة جعل للزبير بن العوام بقيعا واسعا(٧٨) ، ولبني زهرة خطة في ناحية من مؤخرة المسجد فكان لعبد الرحمن بن عوف الحش ، والحش نخل صغر لا يسقى(٧٩) . وجعل الرسول (ص) لسلمة بن عبد الاسد موضع داره(٨٠) كما اقطع خطة لعمر بن الخطاب(٨١) ، وخطة لعثمان بن مظعون واخوته(٨٢) .

اقطاع النفل : وهناك شكل آخر من أشكال الاقطاع ، قام الرسول (ص) بمنحه لبعض الصحابة ، اعتبر من اقطاع النفل ، اي ان الاقطاع كان بمثابة الوعد بعد فتح

انبلاد . ومن الذين اقطعوا تميم بن اوس الداري . والواقع أن المصـادر اختلفت في اسماء المواضع التي تم اقطاعها ، كما أن هناك اختلافا في صيغة الاقطاع . ويذكر ابو عبيد ان عمر بن الخطاب قد امضى لتميم اقطاعه لكنه اشترط عليه عدم البيع(٨٣)، كما اقطع لابي ثعلبة الخشني ايضا ارضا بالشام(٨٤) . وقال عبد الرحمن بن عوف: «قطع لي رسول الله ارضا بالشام يقال لها السليل ، ولم يكتب له بهاكتابا(٨٥) .

وقد جاءت صيغ القطائع في كتب الرسول (ص) للمقطع اليهم على أشكال :

اني اقطعتك(٨٦) ، وهذا ما اعطى(٨٧)، وأن لهم (٨٨) ، وما وهب(٨٩) ،وهب لي(٩٠) ، وأن له (٩١) . اما مساحات هذه القطائع فلم تكن معروفة تماما ، ولكن بعض المصادر اشارت الى الغلوة وهي قدر رمية السهم(٩٢) ، وفدوة الغنم(٩٣) .

مما تقدم يمكن القول ان قطائع الرسول(ص) كانت لغايات محددة ، فهي اما بيوتا للسكن او لزراعتها ، وأغلب هذه القطائع من الارض البور او « عادي الارض » التي لم يكن لها مالك،او لم تكن لها اهمية ، وهي بداية لظهور فكرة الملكية الفردية .

القطائع في عهد ابي بكر :

لم تاخذ القطائع بعدا كبيرا زمن ابي بكر ، نظرا لقصر مدته في الحكم وانشغال المسلمين بحروب الردة . وبعد الانتهاء من حروب الردة أخذ مفهوم ملكية الدولة يتبلور بصورة أوضح . فقد اورد الطبري ان أبا بكر اقام على الابرق عندما ارتدت ذبيان اياما وقال : حرام على ذبيان ان يتملكوا هذه البلاد اذا أغناها الله وأجلاها. فلما غلب أهل الردة جاءت بنو ثعلبة وهي كانت منازلهم لينزلوها فمنعوا منها ،فأتوا ابا بكر المدينة فقالوا : علام نمنع من نزول بلادنا . فقال : كذبتم ليست لكم ببلاد ولكنها موهبي ونقدي(٩٤) . ولم يعتبهم . وحمى الابرق لخيول المسلمين ، وارعى سائر بلاد الربذة الناس على بني ثعلبة ثم حماها كلها لصدقات المسلمين(٩٥) . واسكن المجازة ، وهي قرية من ارض اليمامة ، اخلاطا من الناس من موالي قريش وغيرهم بعد مقتل مسيلمة لانها لم تدخل في صلح خالد بن الوليد عندما صالح أهل اليمامة(٩٦) وبهذا المفهوم اصبحت الارض التي فتحها المسلمون ملكا للدولة ، يتولى صاحب الشأن النظر فيها حسب ما يراه منفعة للمسلمين .

واقطع ابو بكر بعض رؤساء القبائل تألفا لهم على الاسلام ، ومن هؤلاء مجاعة الحنفي حيث اقطع الخضرمة في اليمامة(٩٧) ، واقطع عيينة بن حصن قطيعة ، وكتب

له كتابا الا أن عمر رفض ختم الكتاب ورده(٩٨) . وأقطع أبو بكر لغايات احياء الارض واستصلاحها الزبير بن العوام ، فاقطعه الجرف والقناة ، والقناة واد يأتي من الطائف ويصل الى قبور الشهداء بأحد(٩٩) . واقطع عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بعد مقتل والده في اليمامة ، ولم يشر البلاذري الى مكان الاقطاع(١٠٠) . وتشير بعض المصادر الى ان ابا بكر اقطع طلحة بن عبيد الله أرضا ، فاتى طلحة عمر بالكتاب ، فقال : اختم على هذا . فرفض عمر وقال : أكل المسلمين اعطي مثل ما أعطاك فجاء طلحة الى ابي بكر وقال :والله ما ادري انت الخليفة أم عمر ؟ فقال بل انا ، ولكنه ابى (١٠١) .

القطائع في عهد عمر بن الخطاب :

لم تختلف وجهة نظر عمر بن الخطاب عن وجهة نظر ابي بكر حيث قال : « لنا رقاب الارض »(١٠٢) وهذا يعني أن الارض اصبحت ملكا للدولة ايضا ويشير الطبري الى ذلك فيقول : فسواد العراق أخذ عنوة ، فدعي اهله الى الرجوع ، فمن أجاب فعليه الجزية وله الذمة ، ومن أبى صار ماله فيئا ، فلا يحل بيع شيء من ذلك الفيء فيما بين الجبل الى العذيب من ارض السواد ولا في الجبل(١٠٣) . وأرض مصر كسواد العراق(١٠٤) ، وكذلك أرض الشام الا المدن خاصة(١٠٥) . وقد اقر عمر اهل البلاد في الشام على أراضيهم مقابل دفع الجزية ويكونوا عمارا للارض(١٠٦) . ووجهة نظر عمر بهذا الخصوص ان العرب لم يكن لهم طاقة بعمارة الارض فطلب منهم ان يتركوها لاهلها مقابل دفع الجزية (١٠٧) . ومن مفهوم هذه الملكية للاراضي رجع عمر عن وعده لجرير بن عبد الله وقومه عن نفله لهم بربع السواد وقال : اني قاسم مسؤول، ولولا ذلك لسلمت لكم ما قسمت لكم ولكن ارى أن يرد على المسلمين(١٠٨) .

وقد ابدى عمر بن الخطاب تشددا في بيع هذه الاراضي أو اقطاعها ، ففي مجال البيع قال لعتبة بن فرقد عندما اشترى ارضا من أرض الخراج ، ممن اشتريتها ؟ قال : من أهلها قال : فهؤلاء أهلها (للمسلمين) ابعتموه شيئا .؟ قالوا : لا . قال : فاذهب واطلب مالك حيث وضعته(١٠٩) .

وعن سيف ان جرير بن عبد الله البجلي اشترى من أرض السواد صافية على شاطىء الفرات ، فاتى عمر فأخبره ، فرد ذلك الشراء وكرهه ونهى عن شراء شيء لم يقتسمه أهله(١١٠) ، وكأنه أراد أن تبقى هذه الارض ملكا للمسلمين اجمع لا تباع ولا تورث(١١١) ، في حين رخص البيع في الاراضي التي بقيت بيد أهلها عند فتحها كأرض الحيرة وبانقيا واليس وصلوبا وغيرها (١١٢). وقد استثنى الخليفة أيضا من الارض

الخراجية تلك الاراضي التي اطلق عليها اسم الصوافي حيث ترك أمرها الى الخليفة ليجيز منها ويعطي من كان له غناء في الاسلام ويضع ذلك مواضعة ولا يحابي به(١١٣). واعتبرت الصوافي في العراق كل ارض كانت لكسرى ومرازبته ، وكل ارض جلا عنها اهلها ، ولم يبق بها ساكن ولا عامر ، ومفايض الماء ، وكل دير بريد ، والآجام ، وارض من قتل في المعركة(١١٤) . وعندما مسح عثمان بن حنيف ارض السواد امره ان لا يمسح تلا ولا اجمة ولا سبخة ولا مستنقع ماء ولا ما لا تبلنه المياه(١١٥) . وبهذا المعنى فان الصوافي تمثل خمس الدولة من ارض الفيء يحق للخليفة التصرف به ووضعه كما يرى لمصلحة الدولة .

وفي الشام ومصر فان الاشارات عن طبيعة ارضها قليلة ، وقد طبق عليها ماطبق على ارض السواد . ويذكر البلاذري(١١٦) ان كل عشري بالشام فهو ما جلا عنه أهله فاقطعه المسلمون فاحيوه ، وكان مواتا لا حق فيه لاحد فأحيوه . كما يذكر ابن عساكر بعض الصوافي التي كانت لبطارقة الروم في الشام(١١٧) . أما مصر فالاشارات الى القطائع فيها تكاد تكون معدومة ، ولم يرد فيها الا قطيعة واحدة كما سنرى .

اما من ناحية القطائع فقد اتخذت الاشكال التالية :

ـ **خدمة النفع العام** : فقد اقطع عمر اقواما يقدمون خدمات عامة للدولة ، ومن بين هؤلاء نافع بن الحارث الثقفي الذي اقطع عشرة أجربة في البصرة ، لانه كان اول من افتلا خيلا ليغزو عليها المسلمون . واشترط عمر أن لا تضر هذه القطيعة بمسلم ولا معاهد ولا تقطع شربا ولا طريقا وليس لاحد فيها حق(١١٨) . ويذكر ابن دريد انه اقطعه ثلاثماية جريب ، ولم يقطع بصريا غيره(١١٩) ، ولكن يبدو أن الرواية الاولى اقرب الى الواقع .

وفي الشام طلب أناس ان يقطعهم ارضا من صوافي اندركسيان بدمشق لتكون مربطا لخيولهم فاقطعهم ذلك . لكن عمر عدل عن قطيعته عندما استغلوا القطيعة لغير الغايات التي اقطعوا من أجلها ، فأمر عمر برد الارض وأغرمهم لما زرعوا فيها(١٢٠) .

ـ **احياء الارض واستصلاحها** : فقد اقطع ارضا مواتا من عقيق المدينة لعدد من الصحابة أمثال خوات بن جبير والزبير بن العوام(١٢١) ، واقطع عليا ارضا بينبع(١٢٢) . ويذكر ابن دريد أن عمر اقطع عثمان بن أبي العاص الشط الذي عرف باسمه بالبصرة(١٢٣) . ويوضح ابن زنجوية شكل هذا الاقطاع ويقول : جاء عثمان بن أبي العاص الى عمر وقال له : يا امير المؤمنين ان عندنا اجمة ليست في يد أحد فأقطعنيها فأعمرها ، فتكون فيها منفعة لعيالي ومنفعة للمسلمين ، فكتب له بذلك(١٢٤) .

ـ لمن كان له غناء في الاسلام : وهذه لم يتوسع بها عمر ، ولم ترد الا اشارة واخدة لهذا الشكل من القطائع . فقد كتب عمر الى عثمان بن حنيف أن يقطع جريرا بن عبد الله البجلي قدر ما يقوته لا وكس ولا شطط . فكتب عثمان الى عمر : ان جريرا قدم علي بكتاب منك تقطعه ما يقوته ، فكرهت ان امضي ذلك حتى اراجعك فيه . فكتب اليه عمر : ان قد صدق جرير ، فانفذ ذلك ، وقد احسنت في مؤامرتي(١٢٥). واقطع عمر ايضا ابا موسى الاشعري ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن عمرو وابا مفزر . ويرى الطبري أن هذه القطائع على وجه النفل من خمس مما أفاء الله(١٢٦) .

ـ تالفا لبعض رؤساء القبائل : فقد اقطع عمر قوما من اشراف دمشق كابن بحدل وابن مدلج العذري دورا في دمشق خرج منها أهلها من الروم(١٢٧) ، واقطع مجاعة الحنفي أرضا بالربا بحجر(١٢٨) .

ـ لدواعي الحاجة والاعاشة ، فقد خير عمر ازواج الرسول (ص) بين ان يعطيهن الارض أو يضمن لهن الوسوق كل عام (٨٠ وسقا تمرا و ٢٠ وسقاشعيرا) فاختلفن ، فمنهن من اختار الوسوق ، ومنهن من اختار أن يضع لهن الارض . فكانت عائشة وحفصة ممن اختار الوسوق (١٢٩) . واقطع فاختة بنت عتبة بن سهيل وزوجها عبد الرحمن بن الحارث خطة بالمدينة فاوسع لهما . فقيل اكثرت لهما يا أمير المؤمنين قال : عسى الله أن ينشر منهما ولدا كثيرا ورجالا ونساء(١٣٠)، واقطع سندر أو ابن سندر مولى رسول الله (ص) أرضا بمصر . ويذكر ابن سعد(١٣١) : لما ولي عمر قال لسندر : اختر ان شئت ان اجرى عليك ما أجرى ابو بكر ، وان شئت أكتب اليك الى الامصار . قال : اكتب الى مصر فانها أرض ريف . فكتب عمر الى عمرو بن العاص: اما بعد فان سندر قد توجه اليك فاحفظ فيه وصية رسول الله (ص) فقطع له عمرو بارض مصر أرضا واسعة ودارا ومعاشا ، فعاش فيها ما عاش ، فلما مات قبضت في مال الله .

وكثرت القطائع في عهد عمر لغايات السكن ، فقد اقطع الناس دورا في الكوفة والبصرة ، والمدائن ، والموصل والحديثة ومدن الشام والفسطاط(١٣٢) .

واجاز عمر القطائع لغايات الدفاع وترتيب المسالح في الثغور ، فقد كتب الى ابي عبيدة : ان رتب بانطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة ، واجعلهم مرابطة ولا تحبسن عنهم العطاء . ولما ولى معاوية كتب اليه بمثل ذلك(١٣٣) . ولما طالب اهل البصرة باقتسام أرضها ، قسم عليهم ما كان لكسرى فصار فيئا على أن يؤدوا الخمس الى الوالي ، فاجابهم عمر الى ذلك ، فكانت قطائع أهل البصرة نصفين: نصفها مقسوم ، ونصفها متروك للعسكر والاجتماع(١٣٤) .

ومما تقدم فان عمر قد اتخذ لنفسه قاعدة ثابتة في شان القطائع تمثلت بعدم منحها الا اذا رأى اسبابا موجبة لذلك ، كما ان من اقطعهم كانت قطائعهم من الصوافي وهي ارض الفيء او من موات الارض ، وان هذه القطائع كانت على وجه النفل من خمس ما افاء الله كما ذكرت .

القطائع في عهد عثمان :

للوهلة الاولى يخيل للناظر ان القطائع في عهد عثمان قد اتخذت اتجاها سلبيا في حركة الاقطاع . ويرى بعضهم انذ لك ناتج عن نظرة عثمان للتصرف في اموال الدولة، وحصيلة للظروف التي استجدت في خلافته(١٢٥) . صحيح ان احياء الاراضي واستثمارها أدى الى زيادة اقبال الناس على شراء الارض والمضاربة فيها، وهذا ادى الى ارتفاع اسعارها ؛ الا ان هذا الاقبال لم يخرج عن القواعد التي سنها الرسول(ص) ومن جاء بعده .

ونلمح اثر هذه الصورة القاتمة عن القطائع في عهد عثمان فيما يذكره يحيى بن آدم من قوله : لم يقطع الرسول (ص) الارضين ولا ابو بكر ولا عمر ، وان اول من اقطعها عثمان وباعها عثمان(١٢٦) . وتابعه ابن عساكر وقال : لم يقطع ابو بكر ولا عمر ولا علي ، واول من اقطع القطائع عثمان ، وبيعت الارض فيخلافة عثمان(١٢٧) . وهذه الاقوال لا تتفق مع قول ابي يوسف حيث قال : اقطع الرسول (ص) اقواما ، وان الخلفاء من بعده اقطعوا ، ورأى رسول الله (ص) الصلاح فيما فعل من ذلك اذ كان فيه تألف على الاسلام وعمارة للارض ، وكذلك الخلفاء انما اقطعوا من رأوا أن لهغناء في الاسلام او نكاية للعدو ، ورأوا أن الافضل ما فعلوا(١٢٨) .

ولالقاء الضوء على طبيعة القطائع في عهد عثمان لابد من الحديث على ارض السواد ، لان هذه القطائع تتركز في مناطق السواد بينما تكاد تكون الاشارات قليلة من الاقطاع في مصر او بلاد الشام . وربما لا نبتعد عن الحقيقة كثيرا اذا قلنا ان معظم الاراء الفقهية التي تحددت فيما بعد كانت تتركز على ارض السواد .

لقد حدد ابو عبيد ارض السواد من لدن تخوم الموصل مارا مع الماء الى ساحل البحر ببلاد عبادان شرقي دجلة هذا طوله ، واما عرضه فحده منقطع الجبل من ارض حلوان الى منتهى طرف القادسية المتصل بالعذيب من أرض العرب(١٢٩) . وضمن هذه الحدود وجدت الصوافي التي أصفاها عمر بن الخطاب كما رأينا . واعتبر السواد فيئا موقوفا على المسلمين ، واهله عمالا فيه للمسلمين بكراء معلوم يؤدونه ، ويكون باقي

ما تخرج الارض لهم ، وهذا لا يجوز الا في الارض البيضاء ، ولا يكون في النخل والشجر(١٤٠) . وقد قدرت المساحة بـ ٣٦ الف الف جريب(١٤١). وعلى ضوء التحديد السابق فان البصرة من ارض السواد(١٤٢) .. وذكر ابو حنيفة انها من الارض التي احياها المسلمون ، وما اقطعه الخلفاء من القطائع التي لا حق فيها لمسلم ولا معاهد ، يكون ما يجتبى منهم مجرى على الخراج(١٤٣) .. والى مثل ذلك اشار ابو يوسف وقال : أرض البصرة وخراسان عندي بمنزلة السواد ، وما افتتح في ذلك عنوة فهو ارض خراج وما صولح عليه فعلى ما صولح عليه ، لا يزاد عليهم ، وما أسلم عليه اهله فهوعشري(١٤٤).

فاذا ادركنا حدود ارض السواد ، ومعرفة مناطق زراعة النخيل والشجر . ومناطق الصوافي وهي ارض جلا عنها أهلها ، فلم يبق بها ساكن ولا عامر(١٤٥) فحكمها في الاقطاع كحكم عادي الارض ، والمناطق التي لم يمسحها عثمان بن حنيف من ارض السواد ، أمكن على ضوء ذلك بيان طبيعة القطائع التي اقطعها عثمان ، وهذه القطائع تمثلت بما يلي :

احياء الارض الموات : تحتل مناطق البصرة المركز الاول في المصادر من حيث القطائع التي تمت بها ، فالبصرة كانت من ارض الموات كما راينا ، وبالتالي فلا حق لمسلم فيها ولا معاهد .

لقد اقطع عمر بن الخطاب كما راينا عثمان بن ابي العاص اجمة في ارض البصرة ، وفي عهد عثمان اقطع سباخا كما يذكر ابن زنجوية(١٤٦) ، فاستخرجها واحياها ، والسباخ موات كلها ، وكذلك الارض التي يغلب عليها الفياض ، والاجام ، ثم استخرجها مستخرج ، كانت كالموات يحييها . وذكر ابو عبيد(١٤٧) أن ارض (المستنقعات) اذا عولجت بنزع الماء منها حتى ينضب عنها فهي كالارض يحييها ، فتكون لمن فعل ذلك. وذكر قدامة بن جعفر هذا الاقطاع وقال(١٤٨) : « اقطع عثمان ، عثمان بن ابي العاص شط عثمان بالبصرة ، فان البصرة كلها كانت يومئذ سباخا ، فاقطعه اياها فاستخرجها واحياها . والسباخ موات أن كانت لا تنبت الا بعلاج ، وكذلك الارض يغلب عليها الغياض والاجام ، وكذلك الارض التي يركبها الماء ، ويقيم فيها حتى يحول بين الناس-وازدراعها-والانتفاع بها كالبطائح » .

وتشير بعض المصادر أن هذا الاقطاع قد اشتراه عثمان بن عفان بدار له في المدينة وزادها في المسجد في رواية .. وفي اخرى انه اشتراها بمال له بالطائف(١٤٩) .. ويبدو أن المساحة التي احياها عثمان بن ابي العاص كانت كبيرة حتى انه منح لاخيه حفص الحفصان ، ولاخيه امية الاميتان ، ولاخيه المغيرة المغيرتان ، وحكما لاخيه

الحكم بن ابي العاص ، ونهر الارحاء لابي عمرو بن ابي العاص الثقفي(١٥٠) . ويقدر ابن قتيبة مساحة هذا الاقطاع باثنى عشر الف جريب(١٥١) . ويخطيء ياقوت(١٥٢) عندما يذكر ان نهر مطرف في البصرة قطيعة من عثمان للحكم بن ابي العاص عم عثمان، والواقع أن الحكم هذا هو الحكم الثقفي حيث لا تشير المصادر الى اقطاع عثمان للحكم بن العاص الاموي .

والاقطاع الاخر في البصرة كان لعبد الله بن عامر . وتشير المصادر الى ان ابن عامر كان مهتما باستصلاح الاراضي . وذكر الزبيري انه كان لا يعالج ارضا الا ظهر في الماء(١٥٣) . ومن الاراضي التي قام باستصلاحها نباج الذي سمي باسمه ، وهو موضع يقع بالقرب من البصرة على طريق مكة ، والجحفة وهي بستان نخيل يقع بالحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين(١٥٤) ، والقريتين . وانبط عيونا تعرف بعيون ابن عامر ،بينها وبين النباج ليلة على طريق مكة ، وحفر الحفيرة ثم حفر السمينة ، واتخذ بقرب قباء قصرا ، واتخذ بعرفات حياضا ونخلا ، واحتفر بالبصرة نهرين احدهما في المشرق، والاخر الذي يعرف بام عبد الله وهي امه . وحفر نهر الابلة ، وكان يقول : لو تركت لخرجت المراة في حداجتها على دابتها ، ترد كل يوم على ماء وسوق حتى توافي مكة(١٥٥) .

ومن القطائع التي احياها ابن عامر في البصرة ايضا الارض التي حفر فيها نهر الاساورة ، ونهر نافذ نسبة لمولاه نافذ ، ونهر حبيب نسبة الى حبيب بن شهاب من ولد سامة بن لؤي كان له تدر بالبصرة فمنحه اياها ابن عامر(١٥٦) . وقد بين ابن خياط طبيعة القطائع وقال : افتتح ابن عامر فيض البصرة من الطازات ، فشقه وسط البصرة ، وحفر نهر الاساورة حتى بلغ الشباك ، واحتفرت امه دجاجة بنت الصلت نهرها الذي يقال له نهر ام عبد الله وسط البصرة في سوقها(١٥٧) .

ونلمح موقف أهل العراق من احياء ابن عامر ما اورده البلاذري انه عندما حفر نهر ام عبد الله جاءه حارثة بن بدر الغداني فقال له : لم أر أعظم بركة من هذا النهر يسقى منه الضعفاء من ابواب دورهم ، ويأتيهم منافعهم فيه الى منازلهم ، وهو مغيض مياههم . ولما تولى زياد العراق قال له : ما رايت شرا منه ، ينز من دورهم ،ويفيضون له في منازلهم ، ويغرق فيه صبيانهم(١٥٨) .

ويبدو أن عثمان نفسه قد كان له احياء في البصرة حيث يذكر البلاذري ان خليج بنات نائلة نسبة الى نائلة الفرافصة الكلبية، وكان عثمان اتخذ هذا الخليج ، وساقه الى ارض استخرجها ، واعتملها(١٥٩) . ومما تقدم يمكن القول ان الارض التي اقطعت

في البصرة هي من الارض الموات ، ومن حق الخليفة ان يقطعها لمن يرى لان في ذلك عمارة للبلاد وارد على المسلمين من تعطيله(١٦٠) .

واقطع عثمان القطائع العسكرية خاصة في مناطق الثغور لما لها من اهمية في حماية ارض المسلمين . ومنذ اللحظة التي تولى بها الخلافة كتب الى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزلها اياها القطائع(١٦١) . ولم يقف عند هذا الحد بل امر معاوية أيضا ان يعد في جميع سواحل بلاد الشام اذا غزا او اغزى جيوشا سوى من فيها من الرتب ، وأن يقطع الرتب الارضين ، ويعطيهم ما جلا عنه اهله من منازل. وقد ادى ذلك الى اقبال الناس والانتقال الى السواحل من كل ناحية(١٦٢) ، وبهذه الطريقة حصن معاوية انطرطوس ومرقية وبانياس واللاذقية وجبلة وبيت سلمية(١٦٣) .

اما في سواحل مصر فلم يرد اقطاع كالشام بل امر عثمان عبد الله بن سعد بن ابي السرح أن يلزم في الاسكندرية رابطة لا تفارقها ، وان يدر عليهم الارزاق(١٦٤) . وفي الجزيرة طلب عثمان من معاوية ان ينزل العرب مواضع نائية عن المدن ، ويأذن في اعتمار الارضين التي لا حق لاحد فيها ، فانزل بني تميم الرابية ، وأنزل المازحين والمدير اخلاطا من قيس واسد وغيرهم ، ورتب ربيعة في ديارها على ذلك ، وفعل مثل ذلك في جميع ديار مضر(١٦٥) .

وفي ارمينية كتب عثمان الى معاوية أن يشخص الى حبيب بن مرة من اهل الشام والجزيرة قوما يرغبون في الجهاد والغنيمة . فبعث اليه معاوية الفي رجل اسكنهم في قاليقلا واقطعهم بها القطائع وجعلهم رابطة بها(١٦٦) . وفي اذربيجان سمح عثمان لمن نزع اليها من الكوفة والبصرة والشام ان يتملكوا ما يغلبون عليه ، كما سمح لهم بشراء الارض من العجم . وقد ادت هذه الاجراءات الى التجاء القرى المجاورة اليهم للخفارة وصار أهلها مزارعين لهم(١٦٧) .

وفي قبرص اسكن معاوية سنة ٣٢ هـ اثني عشر الفا كلهم اهل ديوان، نقل بعضهم من بعلبك ، فبنوا فيها المساجد ، ومدينة ، واقاموا يعطون الاعطية(١٦٨) .

ويلاحظ ان الغاية من هذه القطائع هي تقوية الثغور ، ومن المؤكد ان هذه الاقطاعات كانت البدايات الاولى لنظام الربط الاسلامية(١٦٩) .

واقطع عثمان لغايات السكن ، ومن الذين اقطعهم العباس بن ربيعة الذي اقطعه دارا في البصرة(١٧٠) ، واقطع حمران بن أبان مولاه دارا بالبصرة بعد أن غربه من المدينة(١٧١) واقطع آل الحكم دورا بناها(١٧٢) واسكن بني حرب من عائلة قريش في

بني شيبان قرية بالشام(١٧٣) ، واقطع لغايات الحاجة حبى أم مالك الدار مولى عمر بن الخطاب(١٧٤) .

ومما تقدم نرى ان غايات هذه القطائع كالغايات التي كانت في عهد عمر بن الخطاب، والتوسع الذي جاء في عهد عثمان كان ناتجا من عمليات بيع الاراضي التي سمح بها عثمان بن عفان في سنة (٣٠) هجرية . ويشير الطبري الى ان عثمان جمع أهل المدينة وقال : يا أهل المدينة ان الناس يتمخضون بالفتنة ، واني والله لاتخلصن لكم الذي لكم حتى انقله اليكم ان رأيتم ذلك . فهل ترونه ياتي من شهد مع اهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه في بلاده. فقام اولئك وقالوا : كيف تنقل لنا ما افاء الله علينا يا امير المؤمنين ! فقال : نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز ففرحوا وفتح الله عليهم به امرا لم يكن في حسابهم(١٧٥) .

ويعطي ابن زنجوية نقلا عن الشعبي تفصيلا أكثر حيث يقول : لما ولي عثمان كان الرجل يقدم عليه ، له الشرف في قومه من أهل اليمن والطائف أو عمان أو البحرين أو حضرموت او اليمامة فيقول : يا امير المؤمنين اني رغبت في الهجرة، وخلفت ارضا نفيسة ، وذلك ان هؤلاء أهل قرى وعقد ومساكن . فيقول عثمان فانا معوضك فيها ، وتجعل ارضك صافية للمسلمين(١٧٦) . وفعلوا ذلك واشتراه رجال من كل قبيلة وجاز لهم عن تراض منهم ومن الناس واقرار الحقوق(١٧٧) .

ومن الذين عوضهم عثمان الاشعث بن قيس أخذ ما له بحضرموت واقطعه طيزناباذ(١٧٨) ، وعوّض طلحة بن عبيد الله النشاستج ببئر أريس ، واخذ ماله بحضرموت(١٧٩) ، وفي رواية أخرى أن طلحة اشترى بحصته من خيبر نصيب من شهد القادسية والمدائن من أهل المدينة ممن اقام ولم يهاجر الى العراق(١٨٠) ، وقام طلحة بتعميرها حتى عظم دخلها فقال سعيد بن العاص عندما قيل له ان طلحة جواد : ان من له مثل نشاستج لحقيق ان يكون جوادا ، والله لو ان لي مثله لاعاشك الله به عيشا رغيدا(١٨١) .

وعوّض الزبير بن العوام ما والى دير عبد الرحمن ، وخباب بن الارت اشتينيا (استينيا) ، ووائل بن حجر الحضرمي ما والى زرارة ،وعدي بن حاتم الطائي الروحاء، وابا مريد الحنفي أرضه بالاهواز بنهر تيري ، ونافع بن الحارث بن كلدة الثقفي قطيعته التي بشط عثمان بالبصرة ، وخالد بن عرفطة العذري حليف بني زهرة أرضه بحمام عمر ، وابا موسى الاشعري قطيعة بحمام عمرة ، واقطع اناسا من أهل البصرة واناسا من اهل الكوفة واناسا من أهل المدينة قطائع كثيرة(١٨٢) .

واشترى مروان بن الحكم بمال كا نله أعطاه عثمان نهر مروان ، وهو يومئذ اجمة ، واشترى منه رجال من القبائل بالعراق اموالا كانت لهم في جزيرة العرب من أهل المدينة ومكة والطائف واليمن وحضرموت(١٨٣) .

وتختلف المصادر بشأن الصحابيين الخمسة الذين اقطعهم عثمان ، ففي حين ذكر أبو عبيد(١٨٤) والطبري(١٨٥) والحنبلي(١٨٦) أسماء الزبير وخباب بن الارت وابن مسعود وعمار بن ياسر وابن هبار ، يذكر ابن زنجوية(١٨٧) سعد بن مالك وابن مسعود وخبابا والزبير واسامة بن زيد . اما البلاذري(١٨٨) فيذكر قائمة ثالثة مكونة من عبد الله بن مسعود واقطع ارضا بالنهربين (النهر بيل) ، وعمار بن ياسر استينبا (سنينا) ، وخباب بن الارت صعنبا (صعنبى) ، وسعد بن مالك قرية هرمز ، وطلحة بن عبيد الله النشاستج، واسامة بن زيد أرضا باعها ، وكان ابن مسعود وسعد بن مالك يعطيان ارضهما بالثلث والربع .

وهذه الاماكن جميعا من صوافي السواد ، واستدل ابو عبيد على ذلك من ان هرمزكان احد الاكاسرة، وان عثمان اقطع من تلك الارضين التي لم يبق له رب"(١٨٩). ويذكر الطبري ان ما أعطي كان من باب الفيء (اي الصوافي) ، وبموافقة من اصحابه وبمبادلة من عقارهم(١٩٠) . ومن حق الخليفة ان يمنح من خمس الدولة ، وبهذا يكون قد اقطع مما ليس له مالك ، ولم يكن حقا لمسلم او معاهد . واتهام عثمان بانه قد اقطع من ارض السواد واضر بالخراج كان نتيجة اختلاط الامر في شأن ارض السواد الخارجية والصوافي التي كانت فيئا للمسلمين ، يؤيد ذلك ما ذكره أبو عبيد(١٩١) بقوله : واما اقطاع عثمان من أقطع من الصحابة ، وقبولهم اياه ، فان قوما قد تأولوا أن هذا من السواد . وقد سألت قبيصة : هل كان فيه ذكر السواد؟ فقال : لا . فان يكن كما تأولوا فانه عندي من الاصناف التي كان عمر اصفاها من ارض السواد .

وكان ابن زنجوية أكثر وضوحا في هذا الشأن حيث قال(١٩٢) : « اقطع عثمان من اقطع من الصحابة وقبولهم اياه فان أقواما قد تأولوا أن هذا من السواد ، فان لم يكن كما تأولوا فانه عندي من الاصناف التي كان عمر اصفاها من ارض السواد » . وان اعطى من الصوافي رأي ان عمارتها ارد على المسلمين ، وأوفر لخراجها من تعطيلها ، فاعطى من رأى اعطاءه أن يعمرها كما يعمرها غيرهم ، يؤدون عنها ما يجب للمسلمين عليهم(١٩٣) .

ويذكر الحنبلي ان قطائع عثمان كانت من موات السواد(١٩٤) ، ومن قبله أشار ابو هلال العسكري الى بعض هذه القطائع فقال(١٩٥) : واقطع عثمان طلحة اجمة الجوف ، وهو موضع النشاستج . ويبدو ان سعيد بن العاص قد تردد باقطاعه لانها تصل بين البر والبحر ، فيملك ارضا ونهرا كان له . فكتب عثمان الى سعيد : ويحك انفذه فاني اتخوف عليك ففعل(١٩٦) . ومما يؤكد كذلك ان اقطاع عثمان لم يكن من السواد ما اورده ابو عبيد حيث قال(١٩٧) : سألت قبيصة هل كان فيه ذكر السواد ؟ فقال لا . فان لم يكن كما تأولوا فانه عندي من الاصناف التي كان عمر أصفاها من أرض السواد . وربما كانت كثرة الاحياء التي قام بها بعض الصحابة قد أثارت حفيظة اولئك الذين لا سابقة لهم ولا قدمة(١٩٨) فاتهموا عثمان بادرار القطائع والارزاق والاعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي (ص) ثم لا يغزون ولا يذبون(١٩٩) .

وفي هذا المجال يبقى النص الذي اورده سيف عن هذه القطائع بقوله : فان يكن عثمان اخطأ فالذين قبلوا منه الخطأ اخطأ ، وهم الذين اخذنا عنهم ديننا(٢٠٠) مفسرا بعدم خطأ عثمان . ويستدل على ذلك ما اورده ابن سعد من حديث دار بين علي بن ابي طالب وعمران بن ابي طلحة بن عبيد الله حيث قال علي لعمران : أما انا لم نقبض ارضكم هذه السنين ، ونحن نريد ان نأخذها ، انما أخذناها مخافة ان ينتهبها الناس، وامر بدفع أرضه اليه وغلاتها خلال مدة الاحتجاز(٢٠١) .

ودليل آخر على عدم اكثار عثمان من اقطاع الصوافي او اقطاع الارض الخراجية ما اورده اليعقوبي : وبقيت (الصوافي) على حالها في العراق ، فقد ولى معاوية عبد الله بن دراج مولاه خراج العراق ، وكتب اليه ان احمل من مالها ما أستعين به . فكتب اليه ابن دراج يعلمه ان الدهاقين أعلموه انه كان لكسرى وآل كسرى صوافي يجتبون مالها لانفسهم ولا يجري عليها مجرى الخراج ، فكتب اليه أن احص تلك الصوافي ، واستصفها واضرب عليها المسنيات . فقام ابن دراج واستخرج الصوافي فبلغت جبايته خمسين ألف درهم من ارض الكوفة وسوادها . وكتب الى عبد الرحمن بن ابي بكرة بمثل ذلك في ارض البصرة والشام والجزيرة واليمن(٢٠٢) .

اما قطائع عثمان بالشام فلم ترد الا اشارة واحدة عند ابن عساكر حيث يقول كتب معاوية في امرته على الشام ان الذي اجراه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل أمرائهم ، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها . ووصف في كتابه صفايا اندركسيان بدمشق وقبيس بالبلقاء وغيرها وسأله ان يقطعه اياها ليقوى بها على ما وصف له ، وانها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج فكتب له عثمان بذلك(٢٠٣) .

وبعد هذا العرض للقطائع التي تمت في عهد عثمان نلاحظ انه لم يخرج عن دوافع الاقطاع التي كانت في عهد عمر بن الخطاب ، وكل ما حدث انه قد سمح بعملية تبادل الاراضي ، والتبادل تم في ارض الصوافي التي يخص الدولة خمسها ، وليس من ارض الخراج ولم يدرك البعض شرعية هذا الاجراء فاعتبروه ماخذا على عثمان ومضرا بضريبة الخراج .

القطائع في عهد علي بن ابي طالب :

لم يبرز موقف علي بن ابي طالب من القطائع بصورة جلية نظرا لانشغاله بالحروب. ويذكر ابن ابي الحديد ان عليا وعد في اليوم التالي لانتخابه أن كل قطيعة اقطعها عثمان ، وكل مال اعطاه من الله فهو مردود في بيت المال(٢٠٤) . ويبدو ان عليا قد عدل عن هذه الفكرة ،واعاد ارض طلحة في السواد الى ابنه عمران مع غلاتها خلال مدة الاحتجاز كما رأينا .

وترد اشارات في زمن علي الى نزاعات كانت تدور في مناطق السواد ، حيث يذكر ابن آدم ان خلافا نشب بين اهل السواد ، فأرسل اليهم علي مائة فارس فيهم ثعلبة بن يزيد الحماني . فلما رجع ثعلبة قال في مسجد بني حمان : لله علي ان لا أرجع الى السواد مما راى فيه من الشر(٢٠٥) ويذكر أبو عبيد أن عليا قد هم بتقسيم السواد على المسلمين(٢٠٦) ، ولكن عليا لم ينفذ ذلك خشية أن يضرب الناس بعضهم بعضا(٢٠٧) .

اما من ناحية اقطاعه القطائع فلم يرد عنه الا قطيعة اقطعها لكردوس بن هانيء سميت الكردوسية ، واخرى لسويد بن غفلة الجعفي ، استقطعه ، فكتب اليه هذا ما اقطع علي السويد أرضا لدا ذويه ما بين كذا الى كذا وما شاء الله(٢٠٨) .

شروط القطائع :

استمد الفقهاء من الممارسات العملية في عهد الرسول (ص) والخلفاء من بعده شروطا للقطائع ، وصاغوها بمعايير فقهية . وقد تمثلت بما يلي :

● لا يجوز للامام ان يقطع ما كان تابعا لبعض القرى كالمراعي ، والمحتطب حيث اعتبرت من حق اهل القرية . والحد الفاصل ان يسمع صوت الرجل من ادنى الارض المملوكة له، فما لم يسمع صوته فيه ليست بتابعة لقريتهم(٢٠٩) . واستند الفقهاء بذلك

على ما اورده ابن سعد من ان حريث بن حسان الشيباني سأل رسول الله (ص) ان يكتب له كتابا بالدهناء خاصة دون تميم ، وكانت الدهناء مرعى لبني بكر بن وائل وتميم فوافق الرسول (ص)، وهم بالكتابة اليه ، الا ان امراة تدعي قيلة بنت مخرمة كانت في وفد تميم قالت لرسول الله (ص) : انه لم يسألك السوية من الارض اذ سالك ، انما هذه الدهناء عندك مقيد الجمل ومرعى الغنم ونساء بني تميم وابناؤها وراء ذلك(٢١٠) . واعتبر ابو يوسف المقابر من المرافق ايضا(٢١١) .

● ان الاقطاع لا يكون الا فيما ليس له مالك ، ومن عفو البلاد التي لا ملك لاحد عليها ولا عمارة توجب ملكالاحد سواء كان من المسلمين او المعاهدين(٢١٢) . ومن ذلك ان عمر كتب الى سعد ان يقطع سعيد بن زيد ارضا ، فأقطعه ارضا لبني الرفيل ، فاتى ابن الرفيل عمر فقال :يا أمير المؤمنين على ما صالحتمونا ؟ قال على أن تؤدوا الجزية ولكم ارضكم واموالكم واولادكم . قال يا أمير المؤمنين اقطعت ارضي لسعيد بن زيد. فكتب الى سعد ان يرد عليه ارضه ، ودعاه الى الاسلام فأسلم ، ففرض له عمر سبعماية وجعل عطاءه في خثعم(٢١٣) .

● ان يكون المقطع اليه مسلما ، فلا يجوز احياء الكافر الذي في دار الاسلام لانه نوع تمليك ينافيه كفر الحربي ، فنافاه كفر الذمي كالارث من المسلم ، ولكن يجوز الاحتطاب والاحتشاش(٢١٤) .

● لا يجوز اقطاع المال الظاهر العين الحاضر النفع كالشجر والنخيل ، ويجوز في الارض البيضاء . وعلل اقطاع الزبير نخلا بان ذلك من خمس الرسول(ص) الذي هو سهمه ، لان النخل ظاهر العين . وفي رواية اخرى ان هذه الارض كانت من الارض الموات التي اقطعها الرسول (ص) الى سليط الانصاري ، فاستقطعها الزبير فأقطعه اياها(٢١٥) .

● لا يجوز اقطاع ما كان جوهرها المستودع فيها بارزا كمعادن الكحل والملح والقار والنفط ، لان الناس فيه سواء ، ياخذه من ورد اليه .اما المعادن الباطنة فيجوز الاقطاع فيها . واستدل الفقهاء على ذلك عندما استرجع الرسول (ص) ملح مارب الذي اقطعه الى ابيض بن حمال المازني لاشتراك الناس في الملح(٢١٦) .

● لا يجوز اقطاع ارض الخراج لان رقابها وقف ، وخراجها اجرة ، فتمليك الوقف لا يصح باقطاع ولا بيع ولا هبة ، وضرب يكون رقابها ملكا وخراجها جزية فلا يصح اقطاع ملوك تعين مالكوه(٢١٧) .

● يرى فريق من الفقهاء أن الارض بمنزلة المال ، فللامام أن يجيز في بيت المال من كان له غناء في الاسلام ، ومن يقوى به على العدو ، ويعمل في ذلك بالذي يرى انه خير للمسلمين وأصلح لامرهم ، وكذلك الارضون يقطع الامام منها من أحب الاصناف التي سميت (الصوافي) ، ولا أرى ان يترك ارضا لا ملك لاحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الامام فان ذلك اعمر للبلاد واكثر للخراج(٢١٨) . ويرى الماوردي(٢١٩) ان امر الارض العامر متروك للسلطان فيه بالخيار على وجه النظر في الاصلح بين ان يستغله لبيت المال كما فعل عمر ، وبين ان يتخير له من ذوي المكنة والعمل من يقوم بعمارة رقبته بخراج يوضع عليه مقدر بوفور الاستغلال ونقصه كما فعل عثمان . ويرى الشافعي ان ليس للامام ايقاف الارض ، وعليه قسمتها الا اذا اتفق المسلمون على ايقافها ورضوا ان لا تقسم(٢٢٠) .

● لما كان الاحياء شكلا من اشكال القطائع ، فالاحياء لا يكون الا بالماء ، كاشتقاق او استخراج عين او احتفار بئر ، او بناء ، أو بجعل مسناة للارض ، او بتجفيف السباخ (المستنقعات)(٢٢١) .

● أن يقوم المقطع اليه بعمارة الارض ، فاذا امتنع عن عمارتها كان حكمها الى الامام .. ويذكر ابو عبيد ان عمر جعل مهلة الاحياء ثلاث سنين(٢٢٢) . وذكر ابن زنجوية قولا لعمر جاء فيه : من كانت له أرض فعطلها ثلاث سنين لا يعمرها ، فعمرها غيره فهو احق بها(٢٢٣) . ويبدو ان عمر قد نفذ ذلك ولم يستثن الا القطائع التي اقطعها الرسول (ص) وقال لاصحابها : لو كانت مني او من ابي بكر لم اردها ، ولكنها قطيعة من رسول الله (ص) (٢٢٤) . وطبق عمر على من يقوم باحياء الاراضي المقطعة بتقويم الارض عامرة وغامرة ، ويقول لاهل الاصل ان شئتم فردوا عليهم ما بين ذلك ، وخذوا ارضكم ، وان شئتم ردوا عليهم فمن اديم الارض هي لهم(٢٢٥) . ومن هذا الشرط ايضا ان يكون المقطع اليه قادرا على عمارة الارض ، واذا لم يكن بمقدوره اخذ منه قسم واقطع للاخرين كما فعل عمر مع بلال بن الحارث المازني في اقطاع العقيق(٢٢٦) .

● تستوفى على القطائع ضرائب كما تستوفى على الاراضي الاخرى . وقد اختلف الفقهاء في هذه الضريبة ، فيرى ابو حنيفة ان البصرة التي احياها المسلمون ، واقطع منها الخلفاء التي لا حق فيها لمسلم ولا معاهد يكون مجرى ما يجبى منهم مجرى مال الخراج(٢٢٧) ، وراي آخر يرى ان القطائع اذا كانت على الخراج ادى عنها الذي اقطعها الخراج ، وان كانت من ارض العشر ادى الذي اقطعها العشر الا اذا صير الامام قطائع الخراج(٢٢٨) . وفي رأي اخر لابي يوسف يرى ان القطائع كالصدقة يؤخذ منها

العشر ، وذلك الى الامام ان رأى أن يصير عليها عشرا فعل ، وان رأى أن يصير عليها عشرين فعل ، وان رآها يصيرها خراجا اذا كانت تشرب من انهار الخراج .. وانما يؤخذ منها العشر لما يلزم صاحب الاقطاع من المؤونة في حفر الانهار وبناء البيوت وعمل الارضين(٢٢٩) . ويرى الخوارزمي ان القطائع كالارض التي اسلم عليها اهلها ، والتي أحياها المسلمون تدفع العشر(٢٣٠) .

(١) Lambton, Landlord and peasant in Persia, London (1953) p. 10.

وانظر : نصر الله ، محمد علي ، تطور نظام ملكية الاراضي في الاسلام ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، بيروت (١٩٨٢) ، ص ٦ـ٧ . سيشار اليه عند وروده، نصر الله ، ملكية الاراضي.

(٢) فوزي رشيد ، الشرائع القديمة ، دار شيد للنشر ، بغداد (١٩٧٩) ص ١٢٣ـ ١٢٧ .

(٣) جواد علي ، « مصطلحات الزراعة والري في كتابات المسند » ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ٦ شوال ١٤٠٥ هـ/ حزيران ١٩٨٥ ، م ٣٦،ج ٢ ص ٩٠ . وانظر : جواد علي ، « اصول الحكم عند العرب الجنوبيين » مجلة المجمع العلمي العراقي ، (نيسان ١٩٨٠) م ٣١ ص ٧٠ .

(٤) عبد العزيز الدوري ، نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ ، م٢٠ ص ٧ وانظرايضا:

I, Ryckmans, L' Institution monarchique en Arabie Meridionale p. 124, 178 - 182.

(٥) الدوري ، نشأة الاقطاع ، ص ٥ وانظر :

N, Pioulevskaia, Les Villes de l'Etat Iranien , Paris (1963) p. 135-6 .

(٦) كريستنسن ، ارثر ، ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشان ، ومراجعة عبد الوهاب عزام ، دار النهضة العربية ، بيروت د.ت ص ٩٦ .

(٧) المصدر السابق ص ٩٩.

(٨) البلاذري ، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان ، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت (١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م) ، ص ٢٩٦. الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) تاريخ الرسول والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، (١٩٦٧) ، ج ٣/ ص ٥٠٣ . ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابي عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان ، دار صادر بيروت ، د.ت. مادة طف .

(٩) ابو البقاء الحلي ، هبة الله (من القرن السادس الهجري) ، المناقب المزيدية في اخبار الملوك الاسدية ، تحقيق صالح درادكةومحمدخريسات ، مكتبة الرسالة عمان (١٩٨٤) ج ٢ ص ٤٠٥ ، ٤١٠ .

(١٠) البغدادي ، ابو جعفر محمد بن حبيب (ت٢٤٥هـ) المحبر ، اعتنت بتصحيحه ايلزه ليختن ستيتر ، المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت د.ت . ص ٢٥٣ . ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن (ت٣٢١هـ) ، الاشتقاق ،تحقيق عبد السلام هارون ، دار المسيرة بيروت ، ط ٢ (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩) ص ٢٥٣ .ابوالبقاء ، المناقب المزيدية ج ٢ ص٤٠٣ .

(١١) ابو البقاء ، المناقب المزيدية ، ج١ ص ١٠٤ .

(١٢) الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ١٩٣ . الاصفهاني ،ابو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) الاغاني ، اعداد لجنة نشر كتاب الاغاني ، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ١٣٩٠هـ/١٩٧٠ ج٢ ص ١٠٣ .

(١٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة نجران .

(١٤) المصدر السابق ، مادة المخرم .

(١٥) الدوري ، نشاة الاقطاع ص ٦ . وانظر :

A, Ch. Johnson and C.west Byzantine, Economic Studies , pp.20, 28-29, 48; I. Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab conquest, pp. 119-126.

(١٦) ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ)مختصر تاريخ دمشق ج ١ تحقيق روحية النحاس، دار الفكر دمشق (١٩٨٤) ج١ ص ٢٣٩.

(١٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٥.

(١٨) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٤٠ .

(١٩) الحنبلي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن احمدبن رجب ، الاستخراج لاحكام الخراج ، دار الكتب العلمية / بيروت (١٩٨٥) ص ١٣٥.

(٢٠) ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، دار صادر بيروت، د.ت. مادة قطع .

(٢١) قدامة بن جعفر (ت ما بين ٣٢٨ ـ ٣٣٧ هـ)، الخراج وصناعة الكتابة شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر (١٩٨٦) ص ٢١٨ .

(٢٢) الخوارزمي ، ابو عبد الله محمد بن احمد(ت ٣٨٧ هـ) مفاتيح العلوم ، الطبعة المنيرية ، القاهرة (١٣٤٢ هـ) ، ص٤٠ .

(٢٣) ياقوت معجم البلدان ج١ ص ٤٢-٤٣.

(٢٤) الخزاعي ، علي بن محمد بن مسعود (ت٧٨٩ هـ) ، تخريج الدلالات السمعية ، تحقيق احسان عباس ، دار الغرب الاسلامي بيروت(١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ص ١٨١-١٨٢ .

(٢٥) انظر :

Lokkegaard , Frede, Islamic Taxation in the classic period, Banner and Korch, Copenhagen (1950) p. 14.

(٢٦) قدامة ، الخراج ص ٢١٨ . الخوارزمي ،مفاتيح العلوم ص ٤٠ . الدوري ، نشاة الاقطاع ص ٢٢ .

(٢٧) المصدر السابق .

(٢٨) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .

(٢٩) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١ هـ) ، الاشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية ، تحقيق محمد حامد ، البابي الحلبي مصر ١٣٥٦ هـ ص ٣٦٩ .

(٣٠) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٣١) ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ) ، الخراج ، تحقيق احسان عباس ، دارالشروق بيروت والقاهرة (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥) ص١٩٣ ـ ١٩٤.

وانظر : ابو عبيد ، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) ، الاموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، مكتبة الكليات الازهرية / القاهرة (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩) ص ٣٢٤ . ابن زنجوية ، حميد (ت ٢٥١ هـ) ، الاموال ، تحقيق شاكرذيبفياض، ، مركز الملك فيصل للبحوثوالدراسات الرياض (١٤٠٦هـ/١٩٨٦) ج ٢ ص ٤٥٠ .

(٣٢) ابو يوسف الخراج ، ص ١٩٤.

(٣٣) الاصفهاني ، الاغاني (الهيئة المصرية) ج٢ ص ١٠٣ .

(٣٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة السوادية .

(٣٥) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٥.

(٣٦) العلي ، صالح ، « ملكيات الاراضي في الحجاز في القرن الاول الهجري » ، مجلة العرب ج ١١ (١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩) ص ٩٦٤ . وانظرابن عبد البر ، الاستيعاب ج١ ص٩٣.

(٣٧) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٩٧ . ابن زنجوية،الاموال ج ٢ص٦٢٩ .

(٣٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٠.

(٣٩) انظر : ابن ادم ، يحيى (ت٢٠٣هـ) ، الخراج ، صححه وشرحه الشيخ احمد محمدشاكر المطبعة السلفية (١٣٨٤ هـ) ص٨٢. ابوعبيد ، الاموال ص ٢٨٦ . ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٢٧. قدامة ، الخراج ص ٢١٥ .

(٤٠) العلي، ملكيات الاراضي ص٩٦٤ـ٩٦٥.

(٤١) الهمداني ، الحسن بن احمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ هـ) ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع ، منشورات دار اليمامة ،الرياض (١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤) ص ٣٧٦.

(٤٣) ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠ هـ) الطبقات الكبرى ، عني بتصحيحه وطبعه اوجين منوخ ، منشورات مؤسسة النصر ، طهران ـ ليدن (١٣٢٢ هـ) ج١ ق٢ ص ٥٨.

(٤٤) ادم ، الخراج ، ص ٩٢ .

(٤٥) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ، ٢٩٥.ابن زنجوية ، الاموال ، ج٢ ص ٦١٣ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٠٣ .

(٤٦) ابن سعد ، الطبقات ، ج٧ ق١ ص ٥٤.

(٤٧) حمد الجاسر ، القطائع النبوية ٣ ، مجلةالعرب ، ج٣ ص٨ (١٣٩٣ هـ/٩٧٣ ١) ص١٨٤.

(٤٨) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ق٢ ص٤٩ .ابن‌منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ٢ص ٣٣٤.

(٤٩) المصدر السابق ج١ ، ق٢ ، ص ٤٥ـ٤٦ .

(٥٠) المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٦ ويشير ابن سعد الى ان الرسول (ص) اقطع لود بن عروة ولم يذكر مكان الاقطاع .

(٥١) المصدر السابق ج ١ ق٢ ص ٥٩ . وانظر:
ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك ت (مابين٢١٣-٢١٨هـ) ،السيرة النبوية تحقق مصطفى الشمار وزملائه ، مطبعة البابي الحلبي مصر ط٢ (١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥) ج٢ ص ٤٩٧ .الطبري ،تاريخ ج٣ ص١٤٥ . الحلبي ، علي بن برهان الدين(ت ١٠٤٤ هـ) ، انسان العيون في سيرة الامين والمامون (السيرة الحلبية) مكتبة مصطفىالبابي الحلبي مصر (١٣٨٢ هـ / ١٩٦٤) ج ٣ ص ٢٥٧.

(٥٢) أبو عبيد ، الاموال ص ٣٥٦ . ابن زنجوية ج ٢ ص ٦٢٦. البلاذري ، فتوح البلدانص١٠٢.

(٥٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الشقراء .

(٥٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٤٨.

(٥٥) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦١٩. البلاذري ، فتوح البلدان ص ٨٤ .

(٥٦) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ق٢ ص ٣٥.

(٥٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج٢ ص ٣٢٥ .

(٥٨) انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٦ .ابو عبيد الاموال ص ٢٩٨ . ابن زنجوية ج٢ ص٧٤٠ - ٧٤١ .

(٥٩) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة ذي المروة،بلكثة او بلاكث .ابن منظور مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٣٠٤.

(٦٠) العلي ، ملكيات الاراضي ص ٩٧٢ . وانظرالبكري ، معجم ما استعجم ص ٥٧ ٦.

(٦١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٦٢) المصدر السابق ج٢ ص ٣٤٦ ، ياقوت ،معجم البلدان مادة ترمد .

(٦٣) ابن زنجوية الاموال ، ج٢ ص ٦٢٢ .

(٦٤) انظر : ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣٩٧ .ابن سعد ، الطبقات ج ٧ ق١ ص ٤٢ . ابن زنجوية الاموال ج ٢ ص ٦٢٨ - ٦٢٩ . ولمزيد من التفاصيل عن قطائع الرسول (ص) انظر : حمد الجاسر ، القطائع النبوية ، مجلة العرب ج١ س١ (١٣٩٣هـ/١٩٧٣) ص ١ - ٩ ، وج٢ س ١ (١٣٩٣هـ/١٩٧٣) ص ٨١-٩٠ ، وج٣ س١ (١٣٩٤هـ /١٩٧٤) ص ١٧٧ - ١٩١ ،وج٥ و ٦ (١٣٩٣هـ/١٩٧٣) ص ٢٥٣-٣٦٧ . وانظر ايضا : محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي ، والخلافة الراشدة . عون الشريف قاسم ، نشاة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله (ص) ، دار الكتاب اللبناني ط٢ ١٤٠١ هـ/١٩٨١ . والاحمدي ، علي بن حسين علي ، مكاتيب الرسول (ص) ج١-٢ دار صعب بيروت ، د.ت. صالح العلي ، ملكيات الاراضي في الحجاز .

(٦٥) عون الشريف ، نشاة الدولة الاسلامية ص٢٧٧ نقلا عن ابيداود ج٢ ص ٤٩ . ابن الأثير ، اسد الغابة جـ ٣ ص ١٤ .

(٦٦) ابن ادم ، الخراج ص ١٠٧ : ابو عبيد الاموال ص ٢٩٠ ، ٢٩٨ . ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٠ . البلاذري ، فتوح البلدان ص٨٤ . قدامة ، الخراج ص ٢١٦ .

(٦٧) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦١٣ – ٦١٤ ، ٦٢٧ . قدامة ، الخراج ص ١٣٦ .

(٦٨) الشيباني ، محمد بن الحسن (ت١٨٩هـ) ، كتاب السير الكبير ، املاء محمد بن احمد السرخسي ، تحقيق عبد العزيز احمد ، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، مطبعة شركة الاعلانات الشرقية (١٩٧٢) ج٢ ص٦١١ .

(٦٩) العلي ، ملكيات الاراضي ص ٩٧٢ . وفاء الوفاء ج ٢ ص ٣٩٣.

(٧٠) المصدر السابق ص ٩٦٥.

(٧١) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٣–٢٤ .

(٧٢) الحلبي ، السيرة الحلبية ج٢ ص٥٧٠.

(٧٣) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .

(٧٤) ابن سعد ، الطبقات ج٣ ق١ ص١٢٤ . الطبري ، تاريخ ج ٣ ص٤١٩–٤٢٠.

(٧٥) البلاذري ، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ) ، انساب الاشراف ج١ ق٢ .
تحقيق احسان عباس ، بيروت (١٤٠٠هـ/١٩٧٩) ج١ ق٤ ص٤٨٢–٤٨٣.

(٧٦) البلاذري ، انساب الاشراف (ج١) تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف مصر (١٩٥٩) ، ج١ ص ١٦٣.

(٧٨) ابن سعد ، الطبقات ج٣ ص١ ص٧٢–٧٣.

(٧٩) ابن سعد ، الطبقات ج ٣ ق١ ص ٨٩.

(٨٠) المصدر السابق ج٣ ق١ ص١٧١ .

(٨١) ابو يوسف ، الخراج ، ص ١٧٦ . ابن سعد ، الطبقات ، ج٣ ق١ ص١٩٥.

(٨٢) ابن سعد ، الطبقات ج١ ق٢ ص ٣٨.

(٨٣) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٨٩–٣٩٠ . وعن اقطاع تميم بن اوس انظر : ابن دريد ، الاشتقاق ص ٣٧٧ ، ابن سعد ، الطبقات ج١ ق٢ ص٧٥ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٣٥ ، ١٥ ٤ . ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦١٧ .

(٨٤) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦١٦.

(٨٥) ابن سعد ، الطبقات ج٣ ق١ ص ٨٩.

(٨٦) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٣ ٦.

(٨٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج٢ ص٢٣٤ ، ٢٤٤–٢٤٥ .

(٨٨) المصدر السابق ج٢ ص ٢٣٥ .

(٨٩) الحلبي ، السيرة الحلبية ج٣ ص ٢٧٣.

(٩٠) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٨.

(٩١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ٢ص٢٢١-٢٢٢ ، ٢٤٦.

(٩٢) المصدر السابق ج٢ ص ٢٢٤ .

(٩٣) المصدر السابق ج٢ ص ٢٣٥ .

(٩٤) اي ما استنفد من العدو .

(٩٥) الطبري ، تاريخ ج٣ ص ٢٤٨ .

(٩٦) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة المجازة .

(٩٧) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٥ . ابن زنجوية، الاموال ج٢ ص ٦٢. البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٠٣ .

(٩٨) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٩١ .

(٩٩) ابن ادم ، الخراج ص ٧٣ . ابن سعد ،الطبقات ج٢ ق ١ ص ٧٢ - ٧٣ . البلاذري فتوح البلدان ص ٣٦ . ياقوت ، معجم البلدان ،مادة قناة .

(١٠٠) البلاذري ، انساب الاشراف ج١ ق٤ ص١٢٢ .

(١٠١) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٩١ ، ٣٩٨ . ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص٦٢٢ .

(١٠٢) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٤٩.

(١٠٣) الطبري ، تاريخ ج٣ ص ٥٨٩.

(١٠٤) ابو عبيد ، الاموال ص ١١٢ . ابن زنجوية، الاموال ج١ ص ٢٥٣.

(١٠٥) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٢ .

(١٠٦) الازدى ، محمد بن عبد الله (ت نحو ١٦٥هـ) ، فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر ، مؤسسة سجل العرب / مصر ١٩٦٩ص ١٤٠ - ١٤١ .

(١٠٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٠٧.

(١٠٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٤ . ابو عبيد، الاموال ص ٨٧-٨٨ . البلاذري فتوح البلدان ص ٢٤٥-٢٤٦ .

(١٠٩) ابن ادم ، الخراج ص ٥٤ . ابو عبيد ،الاموال ص ١٠٥-١٠١.

(١١٠) الطبري ، تاريخ ج ٤ص ٢٣.

(١١١) انظر ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج١ص ٢٣٩ .

(١١٢) ابن ادم ، الخراج ص ٥٥. ابو عبيد ، الاموال ص ١١٦ ، ابن زنجوية ، الاموال ١ ص ٢٤٢ .

(١١٣) ابو يوسف ، الخراج ص١٧٠.

(١١٤) ابن ادم ، الخراج ٥٩-٦٠ ابو عبيد ، الاموال ص ٢٩٩. البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٢. الحنبلي ، الاستخراج ص ١٣١ .

(١١٥) ابن زنجوية ، الاموال ج١ ص ٢١٣.

(١١٦) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٧.

(١١٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج١ ص.٢٤ .

(١١٨) ابن سعد ، الطبقات ج٧ ق٢ ص ٤٧ . ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٢٤-٦٢٥ .

(١١٩) ابن دريد ، الاشتقاق ص ٢-٦ . والجريب١٥٩٢ م٢ .

(١٢٠) ابو عبيد ، الاموال ص .. ٤، ابن زنجوية، الاموال ج٢ ص ٦٣٢.

(١٢١) ابو يوسف الخراج ص ١٧٥-١٧٦ . البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٦ .

(١٢٢) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٨. ياقوت ، معجم البلدان ، مادة ينبع .

(١٢٣) ابن دريد ، الاشتقاق ص٢٠٢.

(١٢٤) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٢٦ .

(١٢٥) الطبري ، تاريخ ج٣ ص ٥٨٩ .

(١٢٦) المصدر السابق .

(١٢٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج١ ص.٢٤.

(١٢٨) ابو عبيد ،الاموال ٣٩٥ . ابن زنجوية ،الاموال ج٢ ص.٦ .البلاذري . فتوح البلدان ص ١٠٣ .

(١٢٩) ابن ادم ، الخراج ص ٣٧ .

(١٣٠) الزبيري ، ابو عبد الله المصعب بن عبد الله(ت ٢٣٦ هـ) ، نسب قريش ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ط ٢ دار المعارف مصر (١٩٧٦) ، ص ٣٠٣. وكانا يلقبان بالشريد والشريدة .

(١٣١) ابن سعد ، الطبقات ج٧ ق٢ ص ١٩٧.

(١٣٢) انظر من هذه القطائع على سبيل المثال : البلاذري ، فتوح البلدان ١٣٧ ، ٢٧٤ ، ٣٤٧الطبري تاريخ ج٤ ص.٢-٢١ ، ٤٥ .

ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج١ ص٢٣٨.

(١٣٣) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٣.

(١٣٤) الطبري ، تاريخ ج٤ ص٧٥.

(١٣٥) انظر : نصر الله ، ملكية الارض ص ١٠٧ .

(١٣٦) ابن ادم ، الخراج ص ٧٥ وانظر : البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٣ . ابو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله (ت٣٥٩هـ) ، الاوائل تحقيق محمد السيد الوكيل ، دار اهل طنجـة (١٩٦٦) ص ١٤٤-١٤٥ .

(١٣٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص٢٣٨.

(١٣٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٧.

(١٣٩) ابو عبيد ، الاموال ص ١٠٢ .

(١٤٠) المصدر السابق ص ٨٤ ،٩٩.

(١٤١) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٦٨-٢٧٠.

(١٤٢) قارن الحنبلي ، الاستخراج ص ١٢٩ .

(١٤٣) البلاذري ، فتوح البلدان ص٨٥ .

(١٤٤) ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٢ .

(١٤٥) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٣ .وانظر نصرالله ، ملكية الاراضي ص ٢٥٥ .

(١٤٦) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٣.

(١٤٧) ابو عبيد ، الاموال ص ٤٠١.

(١٤٨) قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢١٧.

(١٤٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢١٦ ،٢٥٦.

(١٥٠) المصدر السابق .

(١٥١) ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم(ت ٢١٣هـ) ، المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، دار المعارف مصر ط٢ (١٩٦٩) ص ٢٦٨-٢٦٩ ،٥٦٤ .

(١٥٢) ياقوت ، معجم البلدان مادة نهر مطرف .

(١٥٣) الزبيري ، نسب قريش ص ١٤٨.

(١٥٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة النباج ، البخفة .

(١٥٥) ابن قتيبة ، المعارف ص ٣٢١ .

(١٥٦) ابن بكار، الزبير (ت٢٥٦هـ) جمهرة نسب قريش واخبارها ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار العروبة (١٣٨١ هـ) ج ص ٤٤٥ . الزبيري ، نسب قريش ص٤٠٤ .

(١٥٧) ابن خياط ، ابو عمر خليفة (ت حوالي٢٤٠) ، تحقيق اكرم العمري ، مطبعة النجف (١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧) ج١ ص ١٤٣.

(١٥٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٥٤ . ومفيض الماء : مدخل ومجتمع الماء . انظر : الرجبي ، عبد العزيز بن محمد ، الرتاج ، تحقيق احمد عبيد الكبيسي ، الدار الوطنية ، بغداد (١٩٧٣) ج١ ص ٣٩٥ .

(١٥٩) المصدر السابق ص ٢٨.

(١٦٠) قدامة ، الخراج ص ٢١٧.

(١٦١) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٣٣ .

(١٦٢) المصدر السابق ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(١٦٣) انظر : قدامة ، الخراج ص ٢٩٨ . الحنبلي، الاستخراج ص ١٣٠ .

(١٦٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٢٤ .

(١٦٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة المازحين.

(١٦٦) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٠٠-٢٠١ .قدامة ، الخراج ص ٢٢٥.

(١٦٧) المصدر السابق ص ٢٢٤-٢٢٥ .

(١٦٨) المصدر السابق ص ١٥٨ .

(١٦٩) نصر الله ، ملكية الاراضي ص ١١٦ .

(١٧٠) ابن قتيبة المعارف ص ١٢٨ . البلاذري ،فتوح البلدان ص ٣٥٤ ، انساب الاشراف ج١ ق٤ ص ٥٢٨.

(١٧١) البلاذري ، انساب الاشراف ج١ ق٤ ص٥٤٧.

(١٧٢) المصدر السابق ص ٥٨٠ .

(١٧٣) المصدر السابق ج١ ص٤٤.

(١٧٤) ابن قتيبة ، المعارف ص ١٨٩.

(١٧٥) الطبري ، تاريخ ج٤ ص ٢٨٠ .

(١٧٦) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٥-٦٣٦.

(١٧٧) ابن الاثير ، ابو بكر محمد بن عبد الله (ت٦٥٣) الكامل في التاريخ،دار صادر بيروت (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩) ،ج٣ ص١٠٩ .

(١٧٨) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٥ - ٦٣٦الطبري تاريخ ج٤ص٢٨٠.

(١٧٩) المصدر السابق .

(١٨٠) الطبري ، تاريخ ج٤ ص ٢٨٠.

(١٨١) ياقوت معجم البلدان ، مادة نشاستج .

(١٨٢) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٥-٦٣٦.

(١٨٣) الطبري ، تاريخ ج ٤ ص ٢٨٠ .

(١٨٤) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٩٢.

(١٨٥) الطبري ، تاريخ ج ٣ ص ٥٨٩.

(١٨٦) الحنبلي ، الاستخراج ص ١٣٢ .

(١٨٧) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٢٦.

(١٨٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٢ - ٢٧٣.وانظر : ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٦-١٧٧.

(١٨٩) ابو عبيد الاموال ص ٤٠٠ . ابن زنجوية ،الاموال ج٢ ص ٦٣٣.

(١٩٠) الطبري ، تاريخ ج٤ ص٢٤٨ .

(١٩١) ابو عبيد ، الاموال ص ١٢١ .

(١٩٢) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٢١.

(١٩٣) قدامة ، الخراج ص ٢١٧.

(١٩٤) الحنبلي ، الاستخراج ص ١٣١ .

(١٩٥) ابو هلال العسكري ، الاوائل ص ١٤٥ .وقداخطأ المحقق بالتشاستج وكتبها التاسيج وقال لعلها التماسيج .

(١٩٦) المصدر السابق .

(١٩٧) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٩٩ .

(١٩٨) الطبري ، تاريخ ج٤ ص ٢٨١ .

(١٩٩) ابن قتيبة ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ) (منسوب اليه) تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي ، القاهرة (١٩٦٧) ج١ ص٣٥ .

(٢٠٠) الطبري ، تاريخ ج٣ ص ٥٨٩.

(٢٠١) ابن سعد ، الطبقات ج٣ ق١ ص ٩٦٠ .

(٢٠٢) اليعقوبي ، احمد بن يعقوب بن جعفر (ت٢٥٩ هـ) تاريخ ، قدم له محمد صادق بحر العلوم المكتبة الحيدرية النجف (١٣٨٤ هـ/١٩٦٤) ج١ ص ٣٥ .

(٢٠٣) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج١ ص٢٤٠ .

(٢٠٤) نصر الله ، ملكية الاراضي ص ٣٧ ١. نقلا عن نهج البلاغة ج١ ص ١٥٠ .

(٢٠٥) ابن ادم ، الخراج ص ٤٥.

(٢٠٦) ابو عبيد ، الاموال ص ١١٤.

(٢٠٧) ابو يوسف ، الخراج ص١٣٢. ابن ادم ،الخراج ص ٤٥.

(٢٠٨) الطبري ، تاريخ ج٣ ص٥٨٩.

(٢٠٩) السمرقندي ، علاء الدين (ت٥٣٩هـ) ،تحفة الفقهاء حققه محمد زكي عبد البر ، مطبعة جامعة دمشق (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م) ج٢ ص٥٥٢-٥٥٣.

(٢١٠) ابن سعد ، الطبقات ج١ ق٢ ص٥٨.

(٢١١) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٢٤ .

(٢١٢) انظر : ابو عبيد ،الاموال ص ٣٩٤. ابنزنجوية ، الاموال ج٢ ص ٢٧ ٦، قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢٠٤ .

(٢١٣) ابن ادم ،الخراج ص ٥٧. الحنبلي ، الاستخراج ص ١٣٤ .

(٢١٤) الحصني ، تقي الدين ابي بكر بن محمد الحسيني (من القرن التاسع الهجري) ، كفاية الاخيار في حل غاية الاختصار ، دار الايمان ، د.ت. ج١ ص ٣١٦.

(٢١٥) انظر : ابو عبيد ،الاموال ص ٩٩، ٢٨٦،٢٩٤ . قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢١٦ ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .

(٢١٦) انظر :ان ادم ، الخراج ص ١٠٧ .ابو عبيد،الاموال ص ٢٩٠ .ابن زنجوية ج ٢ ص ٦٣٠، قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢١٦ . الماوردي الاحكام السلطانية ، ص ١٩٧. ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .

(٢١٧) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٩٣.

(٢١٨) ابو يوسف ، الخراج ص ٧٤ ١.

(٢١٩) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٩٢-١٩٣.

(٢٢٠) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص٢٣٨.

(٢٢١) انظر : ابو عبيد ، الاموال ص ٤١٠ . السمرقندي ، تحفة الفقهاء ج ٣ص٥٥٢.

(٢٢٢) ابو عبيد ، الاموال ص ٤٠٧.

(٢٢٣) ابن زنجوية ،الاموال ج٢ ص ٦٤٤ .وانظر الماوردي ، الاحكام السلطانية ص١٩١ . الموصلي، عبد الله بن محمود بن مودود ، الاختيار لتعليل المختار ، دار المعرفة بيروت (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥ م) ج ٣ ص ٦٧.

(٢٢٤) ابو يوسف ،الخراج ص١٧٥.

(٢٢٥) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٤٣ - ٦٤٤.

(٢٢٦) انظر : ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٢. الزمخشري ، الفائق ج١ ص ٢٤٠ . عون، نشأة الدولة الاسلامية ص ٢٥٦ .

(٢٢٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص٨٥.

(٢٢٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٣ .

(٢٢٩) المصدر السابق ص ١٧١.

(٢٣٠) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ٣٩ .

يخدون ـ ليم ملك ماري

(وثيقة تاسيس معبد اله الشمس (شماش) في ماري)

د. عيد مرعي
جامعة دمشـق

اسفرت الحفريات الاثرية التي بدأت منذ عام ١٩٣٣ ، باشراف عالم الآثار الفرنسي اندريه بارو André parrot في موقع تل حريري الحالي (على الضفة اليمنى لنهر الفرات الاوسط وعلى بعد ٩ كم شمال غرب البوكمال) عن اكتشاف مدينة قديمة كانت تقوم في موقع هذا التل تدعى ماري Mari ، وكان من اهم المكتشفات في ذلك الموقع الارشيف الملكي الذي يضم نحو خمسة وعشرين الفا من الرقم الطينية كتبت بالخط المسماري وباللهجة البابلية القديمة ، اشرف على تبويبها وتصنيفها وترجمة عدد كبير منها الاستاذ جورج دوسان G.Dossin. ومن هذا الارشيف نعرف ان اسرة امورية قد وصلت الى الحكم في مدينة ماري في بداية الالف الثاني قبل الميلاد .

وكان الاموريون قد بدأوا بالدخول الى بلاد ما بين النهرين في الالف الثالث قبل الميلاد . ويظهرون في الوثائق السومرية تحت اسم مارتو Martu وفي الوثائق الاكادية تحت اسم اموروم Amurrum. وهذه التسمية ليست تسمية عرقية بل جغرافية وتعني الغرب، وتدل على الجهة التي قدمت منها هذه الجماعات البشرية ، اي بادية الشـام .

ويذكر شار كالي شاري الملك الاكادي (٢٢٢٣-٢١٩٨ ق.م) بانه احرز نصرا على الاموريين في جبل باسار Basar (جبل بشرى حاليا). كذلك يرد ذكر العديد من الاموريين في وثائق مملكة اور الثالثة . وفي بدايات الالف الثاني قبل الميلاد وصلت سلالات آمورية الى الحكم في بابل ، وماري ، وآشور ،وحلب وقطنة(١). الخ،

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ ـ ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٧ .

وأول ملك معروف لدينا من الاسرة الامورية التي حكمت في ماري هـو يجيد ـ ليم yaggid-lim، وقد دخل في صراع مع حاكم آموري اخر كان يحكم في تيرقـا Terqa (تل عشـارة حاليا) الى الشمال من ماري ويدعي إلا ـ كبكابو Ilakabkabu ، وتمكن من طرده من تلك المنطقة وضم مملكته اليه .

خلف يجيد ـ ليم على عرش ماري ابنه يخدون ـ ليم . ومعلوماتنا عن هذا الملك الذي حكم في اواخر القـرن ١٩ ق.م افضل منها عـن والده . فتاريخ احـدى سنوات حكمه يذكر بانه احرز نصرا على مدينة إيمار (مسكنة حاليـا)) الواقعة على الفرات الاوسط الى الشـم ال من مملكته(٢)، وهذا يعني ان نفوذه أمتد الى تلك الاماكن، كذلك كان له حلفاء أو تابعون في تلك المنطقة .

احد هؤلاء التابعين وهو ابي ـ سامار Abi-Samar كتب اليه رسالتين يستنجده فيهما ضد اعداءه الذين كانوا يهددون مملكته من كل جانب (ملوك آشور وكركميش واورشوم وخاشوم ويمحاض)(٣) .

حكم يخدون ـ ليم نحو ثماني سنوات(٤) سقط في نهايتها صريع مؤامرة حيكت خيوطها في قصره .. من المحتمل ان يكون شمشي ـ أدد بن إلا ـ كبكابو ، الذي طـرد سابقا من منطقة تيرقا مع اسرته وتمكن من الاستيلاء على السلطة في آشور وبدا ببناء دولة قوية ،وراء هذه المؤامرة . لذلك نراه يحتل ماري بعد مقتل يخدون ـ ليم .

من اهم مخلفات يخدون ـ ليم وثيقة كتبت على لوح طيني مربع الشكل تقريبا (٤١x٤٠,٥x٧ سم) على عدة اعمدة . وقد عثر المنقبون عـام ١٩٥٣ في أساسات معبد الاله شماش اله الشمس في ماري على تسعة الواح طينية في كل منها نص هذه الوثيقة بالخط المسماري واللهجة البابلية القديمة (احدها محفوظ في المتحف الوطني بدمشق) . وكانت هذه الالواح التسعة قد وضعت في اساسات معبد الالـه شماش لاخبار الاجيال اللاحقة بأعمال هذا الملك .

تعرف الوثيقة حاليا بوثيقة التاسيس لانها كتبت بمناسبة بناء معبد لاله الشمس شماش في ماري، وتذكر النقاط التالية :

١ ـ تعظيم الاله شماش الذي بني المعبد له .
٢ ـ أعمال يخدون ـ ليم العمرانية في مملكته .
٣ ـ قيام يخدون ـ ليم بحملة عسكرية الى شواطيء البحر المتوسط .
٤ ـ الاشتباك مع ثلاثة ملوك على الفرات الاوسط والانتصار عليهم .

٥ ـ تدمير مدينة خامات قاعدة انصاف البدو الخانيين ؛ وكانوا يشكلون مجموعة بدوية كبيرة في منطقة الفرات الاوسط .
٦ ـ القيام بالاعمال اللازمة على شاطىء الفرات .
٧ ـ بناء معبد للاله شماش وتسميته « معبد بهاء السماء والارض » .
٨ ـ الختام باللعنات على كل من يسيء للمعبد ، ويمحو نص الوثيقة او يشوهه .

كان لحملة يخدون ـ ليم الى شواطىء المتوسط دوافعها السياسية والاقتصادية، فقد كان يعتقد ان بامكانه السيطرة على سورية او على اجزاء منها وفرض الجزية الدائمة عليها . كذلك فان يخدون ـ ليم كان ينشد الشهرة من وراء زحفه الى شواطىء المتوسط مقلدا بذلك شاروكين (صارجون) الاكادي الذي كان اول من سار بجيشه من بلاد الرافدين الى شواطىء البحر الاعلى ، اي البحر المتوسط(٥). ونرى هذا التقليد لدى العاهل الاشوري شمشي ـ أدد الذي يدعي في احدى كتاباته بانه قاد حملة مظفرة الى ارض لابان Laban (المعتقد انها لبنان) على شاطىء البحر الكبير واقام هناك نصبا تذكاريا .

بيد ان يخدون ـ ليم فشل في تحقيق اهدافه السياسية ، ولم يستطع السيطرة على سورية او اجزاء منها ، فما إن انسحبت جيوشه من هناك حتى تلاشى كل نفوذ لمملكة ماري في تلك المنطقة(٦) .

اما الدوافع الاقتصادية لحملة يخدون ـ ليم الى شواطىء المتوسط فكانت الحصول على أخشاب الاشجار الابرية ، كالارز والسرو والصنوبر، اللازمة لبناء المعابد والقصور وغيرها ،. وكانت جبال الامانوس والجبال الساحلية غنية جدا بتلك الاشجار التي كانت اخشابها تستخدم في بلاد الرافدين ووادي النيل ، خلال الفترات التاريخية المختلفة ، في بناء السفن والمعابد والقصور . ولعل من اهم هذه الاوابد المعمارية معبد الاله الشمس ، شماش .

وشماش هو اله الشمس عند الاكاديين والبابليين والاشوريين . وبما انه يرى كل شيء فانه ملك الحق والعدالة ، وكان رمزه في بلاد بابل قرص الشمس مع نجمة رباعية تخرج منها اشعة ، وفي آشور قرص الشمس مع اجنحة، وكانت اهم مراكز عبادة شماش في بلاد الرافدين مدينتي لارسا وسيبار . وعلى مسلة قوانين حمورابي يصور شماش ملكا يجلس على العرش ويقدم لحمورابي بيده اليمنى القضيب والخاتم رمزاً للحق والعدالة .

وفيما يلي النص الاكادي لوثيقة التاسيس مكتوبا بالحرف العربي مع ترجمة وشرح له(٧) .

٣١- (د) شماش يـاخـدوـون ـليـيم	٣١- ذهب شماش الى يخدون – ليم
٣٢- أوـداـاـما	٣٢- مسرعا
٣٣- إـنا إـرديـشو إلـ لي ـيكـما	٣٣- في الوقوف الى جانبه .
٣٤- شا إشـتو أوـوم صاـات	٣٤- منذ الايام الغابرة
٣٥- اـلام ماـري(كي) إلوم إبـنوـو	٣٥- عندما بنى الاله ماري(١١)
٣٦- شاروم ماـماـان واـشيـيب ماـري (كي)	٣٦- ما من ملك مقيم في ماري
٣٧- تيـاـ امـتاـام لا إكـشوـدو	٣٧- وصل البحر(١٢)
٣٨- شادي إيرينئيم أو تاسكارينئيم	٣٨- وفتح جبال الارز والبقس ،

العمود الثاني :

١ – شادي راـبوـتيم لا إكـشوـدو	١ – الجبال العالية(١٣)
٢ – أو إـصيـشوـنو لا إكـكيـسو	٢ – وقطع اخشابها .
٣ – ياـاخـدوـونـليـيم	٣ – يخدون – ليم
٤ – مار ياـجيـيدـليـيم	٤ – ابن يجيد ـ ليم
٥ – شاروم جاـأشـروـوم ريـيم شارـري	٥ – الملك القوي ، الثور البري (بين) الملوك .
٦ – إـنا ليـاـوـتيم	٦+٩ـ ذهب ببراعة
٧ – أو جاـميـروـتيم	٧ – وقوة
٨ – اـنا كيـشاـاد تيـاـامـتيم	٨ – الى شاطىء البحر ،
٩ – إلـليـيكـما	
١٠- أـنا اـاـابـبا (تلفظ ayabba) نيـقي شارـروـتيـشو	١٠- لـ (اله) المحيط ضحى ضحاياه
١١- راـبيـاـام إقـقي	١١- الملكية الكبيرة
١٢- أو صاـبوـشو إـنا كيـريـيب اـاـابـبا	١٢- وجنوده في وسط المحيط
١٣- ميـي إرـموـوك	١٣- استحموا .
١٤- اـنا شادي إيرينئيم أو تاسكارينئيم	١٤- في جبال الارز والبقس ،
١٥- شادي راـبوـتيم إـروـومـما	١٥- الجبال العالية دخل هو ،
١٦- تاسكارينئام إيرينئام شورمينام	١٦- البقس والارز والسرو
١٧- أو إـلامـماـكاـام	١٧- والصندل(١٤)
١٨- يـصي أنـنوـتيـين إـكيـيس	١٨- هذه الاشجار هو قطعها .
١٩- خاـموـصاـام إخـموـوصـما	١٩- هو اكتسح كل شيء
٢٠- شوـميـشو إشـتاـكاـان	٢٠- وشهر اسمه
٢١- أو ليـوـو أوـويـدي	٢١- وجعل قوته معروفة .
٢٢- ماـتاـام شاـتي شا كيـشاـاد	٢٢- هذه الارض على شاطىء المحيط

النص	الترجمة
اـ اـ ابـ با	
٢٣ـ اوـ كاـ انـ نيـ يش	٢٣ـ اخضعها
٢٤ـ اـ نا يـ يم أوـ شيـ شيـ يبـ رشي	٢٤ـ ووضعها تحت أوامره ،
٢٥ـ واـ ارـ كيـ شو أوـ شاـ رليـ يكـ شي	٢٥ـ وجعلها تسير خلفه ،
٢٦ـ بيـ يلـ تاـ ام كلـ ياـ انـ تاـ ام	٢٦ـ جزية دائمة

العمود الثالث :

النص	الترجمة
١ إـ ميـ سوـ توـ رتيـ سما	١ ـ فرض عليها
٢ ـ أو بيـ لاـ سوـ نو ناـ شوـ رنيـ يشـ شو	٢ ـ وجزيتها جلبتها له .
٣ ـ إـ نا شاـ اتـ تيمـ ما شاـ اـ تي	٣ ـ في هذه السنة
٤ ـ لاـ أوـ وم شار سامانيم(كي)	٤ ـ لاؤم ملك سامانوم(١٥)
٥ ـ أو ماـ ات ابـ راـ بيـ يم	٥ ـ وأرض اوبرابوم(١٦)،
٦ ـ باـ اخـ لوـ كوـ ليـ يم شار توـ توـ ول(كي)	٦ ـ باخلوـ كو ليم ملك توتول(١٧)
٧ ـ أو ماـ ات امـ نانـ نيـ يم	٧ ـ وأرض امنانوم(١٨) ،
٨ ـ أيـ ياـ لوم شار أباـ اتـ تيم(كي)	٨ ـ أيالوم ملك أباتوم(١٩)
٩ ـ أو ماـ ات راـ ابـ بيـ يم	٩ ـ وأرض رابوم(٢٠) ،
١٠ـ شارّو انـ نوـ توـ ون	١٠ـ هؤلاء الملوك(٢١)
١١ـ إـ كيـ روـ شوـ ما	١١ـ هاجموه (هاجموا يخدون ـ ليم)،
١٢ـ أـ نا تيـ لوـ رتيـ شوـ نو	١٢ـ لمساعدتهم
١٣ـ صاـ اب سوـ موـ إـ يوـ وخ	١٣+١٥ ـ جاءت فرق سوموـ ايبوخ(٢٢)
١٤ـ شا ماـ ات ياـ امـ خاـ اد(كي)	١٤ـ (حاكم) بلاد يمحاض .
١٥ـ إـ ليـ كاـ امـ ما	
١٦ـ إـ نا أـ ليـ يم ساـ ماـ نيم(كي)	١٦ـ في مدينة سامانوم
١٧ـ أوم ماـ ات تورـ ميـ يم	١٧ـ تجمعت (هذه) الجماعات
١٨ـ إشـ تيـ رنيـ يش إبـ خوـ روـ شومـ ما	١٨ـ كلها ضده
١٩ـ إـ نا كاـ اكـ كيـ يم داـ انـ نيم	١٩ـ (ولكن) بسلاح(٥) القوي
٢٠ـ ٣(شالاشات)شارّي انـ نوـ تيـ ين	٢٠ـ أسر هؤلاء الملوك الثلاثة
٢١ـ شا تورـ ميـ يم إكـ ميٍ	٢١ـ (ملوك هذه) الجماعات ،
٢٢ـ صاـ ابـ شوـ نو أو صاـ بي تيـ لاـ تيـ شوـ نو إـ دوـ وك	٢٢ـ قتل فرقهم وفرقهم المساعدة
٢٣ـ داـ ويـ داـ شوـ نو إمـ خاـ اص	٢٣ـ والحق بهم الهزيمة ،
٢٤ـ جوـ روـ ون شلاـ الـ ملـ تيـ شوـ نو إشـ كوـ ون	٢٤ـ (و) عمل كومة من جثثهم ،

٢٥ـ دو ـ را ـ ني ـ شو ـ نو إق ـ قو ـ ور ـ ما	٢٥ـ وتوض اسوارهم
٢٦ـ أ ـ نا تي ـ لي او(كا) ـ ار ـ مي	٢٦ـ وحولها الى تلال
٢٧ـ إش ـ كو ـ ون ـ شو ـ نو ـ تي	٢٧ـ واراض جرداء .
٢٨ـ أ ـ لام خا ـ ما ـ ان (كي) اوم سـ ـما ـ ات خا ـ نا	٢٨ـ مدينة خامان(٢٢) (و) قبيلة خانا
٢٩ـ شا أ ـ بو ـ و خا ـ نا كا ـ لو ـ شو ـ نو إ ـ بو ـ شو ـ شو	٢٩ـ وكل مابناه شيوخ خانا
٣٠ـ إ ـ ق ـ قو ـ ور ـ شو ـ ما	٣٠ـ دمره هو

العمود الرابع

١ ـ أ ـ نا تي ـ لي أو كا ـ ار ـ مي إش ـ كو ـ ون ـ شو	١ ـ وحوله الى تلال واراض جرداء .
٢ ـ أو شار ـ را ـ شو كا ـ صو ـ ري ـ خا ـ لا إك ـ مي	٢ ـ وأسر ملكها كاصوري ـخالا (ملك مدينة خامان) ،
٣ ـ ما ـ سو ـ نو إت ـ ت ـ با ـ ال	٣ ـ وأخذ معه (سكان) بلاده .
٤ ـ أو كي ـ شا ـ اد بو ـ را ـ تيم إج ـ مو ـ ور ـ ما	٤ ـ واتم شواطىء الفرات(بناء وتحسينا)
٥ ـ أ ـ نا با ـ لا ـ طي ـ شو بيت (د) شماش بي ـ لي ـ شو	٥ ـ لاجل حياته بنى معبدا للاله شماش سيده ،
٦ ـ بيتام شا إ ـ بي ـ يش ـ تا ـ ام شو ـ وك ـ لو ـ لو ـ ما	٦ ـ معبدا بناه واتمه
٧ ـ اوم ـ مي ـ نو ـ تا ـ ام قو ـ وت ـ تو ـ و	٧ ـ واكمل تزيينه
٨ ـ سي ـ ما ـ ات إ ـ لو ـ تي ـ شو إ ـ بو ـ وس ـ سو ـ وم ـ ما	٨ ـ وعمل فيه ما يخص الهته .
٩ ـ إ ـ نا شو ـ با ـ سيت را ـ بو ـ تي ـ شو	٩ ـ في مكانه الكبير
١٠ـ أو ـ شي ـ شي ـ يب ـ شو شوم بيتيم شا ـ تو	١٠ـ جعله يجلس (أي شماش) (و) سمي هذا المعبد
١١ـ إي جي ـ ير زا ـ لا ان كي ـ إ ـ بي	١١ـ إيجير زالا انكي(٢٤)
١٢ـ بيتوم تا ـ شي ـ لا ـ ات شا ـ مي ـ ي	١٢ـ معبد بهاء السماء
١٣ـ او إر ـ صي ـ تيم	١٣ـ والارض .
١٤ـ (د) شماش وا ـ شي ـ يب بي ـ تيم شا ـ تو	١٤+٢٣ ـ ليهب شماش ساكن هـذا المعبد
١٥ـ أ ـ نا يا ـ اخ ـ دو ـ ون ـ لي ـ يم با ـ ني بي ـ تي ـ شو	١٥ـ الى يخدون ـليم باني معبده ،
١٦ـ شا ـ ري ـ يم نا ـ را ـ ام لي ـ بي ـ شو	١٦ـ الملك محبوب قلبه ،
١٧ـ كا ـ اك ـ كا ـ ام دا ـ ان ـ نا ـ ام	١٧ـ سلاحا قويا
١٨ـ كا ـ شي ـ يد أ ـ يا ـ بي	١٨ـ ساحقا للاعداء ،
١٩ـ پا ـ لا ـ ام أر ـ كا ـ ام	١٩ـ حكما طويلا ،

٢٠ـ شا طوـوب لي ـبي ـيم
٢١ـ او شاـناـات خيجاليم ري ـشاـ تيم
٢٢ـانا اُوـمي داـروـتيم
٢٣ـ لي ـيش ـروـوك ـشوم
٢٤ـ شا بي ـتاـام شاـتو
٢٥ـ اُوـشاـال ـپاـتو
٢٦ـ اـنا لي ـموـوت ـتيم
٢٧ـ اُو لا داـمي ـيق ـتيم إـكوـپوـ شوم
٢٨ـ اـسوـراـشو لا اوـداـناـنو
٢٩ـ ماـاق ـتوـسو لا اوش ـزاـزو
٣٠ـ او ني ـإن ـداـباـام

العمود الخامس

١ ـ إـپاـراـسوـشوـوم
٢ ـ شوـمي شاـاطـراـام إـپاـشي ـطو
٣ ـ اُو اُوـشاـاب ـشاـطو
٤ ـ شوم ـشو لا شاـاطـراـام إـشاـطاـرو
٥ ـ اُو اُوـشاـاش ـطاـرو
٦ ـ اُو اـشوـوم إرـري ـتيم
٧ ـ شاـني ـاـام اُوـشاـخاـزو
٨ ـ اـوي ـلوم شوـو لو شاـروـوـوم
٩ ـ لو شاـكاـناـكوـوم
١٠ـ لو راـبي ـاـنوـوم
١١ـ لو اـوي ـلوـتوم شوم ـ شا
١٢ـ اـوي ـلام شاـتو
١٣ـ (د)إن ـليل شاـبي ـيط إـلي
١٤ـ شارـروـسو لي ـماـطي
١٥ـ إـنا كاـال شارـري
١٦ـ (د)سين اـخوـوم راـبوـوم
١٧ـ إـنا إلي اخ ـخي ـشو
١٨ـ إرـري ـتاـام راـبي ـتام
١٩ـ لي ـروـوـشو
٢٠ـ (د)ني ـري ـجال بي ـيل كلـاك ـكي ـيم

٢٠ـ سرور القلب ،
٢١ـ وسنوات فيض وابتهاج
٢٢ـ الى الابـد .
٢٤ـ من يخرب
٢٥ـ هذا البيت،
٢٦ـ (ومن) بنية سيئة
٢٧ـ وغير طيبة يقترب منه ،
٢٨ـ (ومن) لا يدعم اساساته
٢٩ـ ولا يبني المتهدم منه ،
٣٠ـ (ومن) يبطل تقدمات

١ ـ الخبز ،
٢ـ (من) يمحو اسمي المكتوب
٣ ـ او يجعله ينمحى
٤ ـ ويكتب اسمه غير المكتوب
٥ ـ او يجعله يكتب
٦ ـ او بسبب اللعنة
٧ ـ يجعل (انـاسا) اخر يقوم بذلك
٨ ـ أكان ذلك الانسان ملكا ،
٩ ـ او حاكما ،
١٠ـ او عمدة ،
١١ـ او اي انسان اخر
١٢ـ هذا الانسان ليجعل
١٣ـ انليل(٢٥) قاضي الالهة
١٤ـ مملكته صغيرة
١٥ـ بين كل الملوك ،
١٦ـ سين(٢٦) الاخ الكبير
١٧ـ بين اخوته الالهة
١٨ـ لعنة كبيرة
١٩ـ ليلعنه
٢٠ـ نيرجال(٢٧) سيد السلاح

٢١ـ كاـاكـكاـشو ليـيشـبيـيرـما	٢١ـ ليحطم سلاحه
٢٢ـ موـرتي أـيـيمـخوـور	٢٢ـ والا يستقبله مع الاموات ،
٢٣ـ بيتوم أـشار شيـيمـرتيم	٢٣ـ ليعمل بيت القضاء (القدر)
٢٤ـ شيـيمـتلـشو ليـليـرميـين	٢٤ـ قدره سيئا .
٢٥ـ إيلات أـا كاـلاـتوم	٢٥ـ لتجعل الالهة ايا(٢٨) الكنة ،
٢٦ـ بيـيلـتوم راـبيـتوم	٢٦ـ السيدة العظيمة
٢٧ـلو موـليـميـنلـات أـواـتيـشو	٢٧ـ اموره سيئة
٢٨ـ إـنا ماـخلـار.(د) شماش أـنا داـريـاـتيم	٢٨ـ أمام شماش الى الابد .
٢٩ـ (د) بنوـنيـرني شوـكاـال (د)شماش راـبوـوم	٢٩ـ بونيني وزير شماش الكبير
٣٠ـ ناـبيـيشـتاـشو ليـكيـيس	٣٠ـ ليقص حياته
٣١ـ زيـراـشو ليـيلـقوـوطـما	٣١ـ (و) ليبيد ذريته .
٣٢ـ بيـريـيخـشو أو شومـشو	٣٢ـ احفاده واسمه
٣٣ـ إـنا ماـخاـار (د)شماش أـيـتاـلاـاك	٣٣ـ لن يمثلوا أمام شماش

* * *

(١) حول الاموريين انظر :
J.R. Kupper. Les nomades en Mésopotamie au temps des rois de Mari, Paris 1957, P.149ff.; G. Buccellati , The Amorites of The Ur III Period, Neapel 1966.

(٢) G. Dossin, Studia Mariana, Leiden 1950 , p. 52 Nr. 4.

(٣) Archives Royales de Mari I, Paris 1950, 1, 2.

(٤) W.V. Soden, Das altbabylonische Briefarchiv von Mari, in: Die welt des Qrients 1 (1,47-52); S. 191; G. Dossion, «Les Archives écnomiques de de Palais de Mari», in: Syria 20 (1939), p. 105.

(٥) D.O. Edzard, Fischer weltgeschichte2,Frankfurt a.M.und Hamburg 1965, S.178; H. Klengel, Geschichte Syriens in 2. Jahrtausend V.U. Z., Teil 3, Berlin 1970, S.138ff; ders Geschichte und Kultur Altsyriens, wien - München 1980,S.50.

(٦) H. Zlengel.Geschichte Syriens III, S 138 ff .; ders : Geschichte und Kultur Altsyriens, S. 50.

(٧) نشر الاستاذ جورج دوسان وثيقة التأسيس هذه لاول مرة عام ١٩٥٥ (بالفرنسية) انظر :
G. Dossin, « L' Inscription de Fondation de Iahdun - Lim . Roi de Mari» , in : Syria, 32 (1955), P.1-28.

(٨) (د) شماش : الدال الموجودة قبل الاسم هي اختصار للكلمة dingir السومرية التي تعني اله. ووجودها قبل الاسم يعني ان صاحب الاسم اله او الهة . الهبالاكادية ilum انظر حول شماش:
H.Ringgren, Die Religionen des AltenOrientes, Gottingen 1979, S. 121 ff,; D.O. Edzard, in Wörterbuch der Mythologie,Band I, Gotter und Mythen in Vorderen Orient, Stuttgart 1965, S. 126.

(٩) كي Ki : تاتي في اخر اسماء الاماكن والبلدان .

(١٠) ارض خانا هي المنطقة التي استقر فيها انصاف البدو الخانيون على الفرات الاوسط فسميت باسمهم . انظر :
B. Groneberg, Répertoire Géographique des Textes Cunéiformes Band 3, Wiesbaden 1980, S.88 ff .; Kupper, Les nomdes. P. 1 ff,; H. Klengel, Zwischen zelt und Palast, Leipzig - Wien 1972, S. 55 ff.

(١١) تأسيس المدن وبناؤها كان في اعتقاد سكان بلاد ما بين النهرين عمل الهي . نلاحظ ذلك في اسطورة ايتانا .

(١٢) المقصود البحر المتوسط .

(١٣) المقصود بذلك جبال الامانوس التي كانت غنية بالاشجار الابرية كالارز والصنوبر والسرو، ويذكرها شاروكين الاكادي تحت اسم ((غابة الارز)) وحفيده نارام - سين يذكرها ايضا . ويتحدث جوديا حاكم مدينة لاجاس السومري (٢١٤٣-٢١٢٤) في كتاباته بأنه جلب من هناك اخشاب الارز والبقس . كذلك يرد ذكر جبال الامانوس في وثائق عديدة اخرى . انظر :

A. Mari, Der Handel Zwischen Syrienund Babylonien in achtzehnten Jahrhundert, würzburg 1985, S. 70.

(١٤) الاماكوم : elammakku(m) معنى هذه الكلمة لا يزال غير واضح البعض يعتقد انها تدل على خشب الصندل ، في حين يترجمها فون زودن(خشب بناء ثمين من سورية) . انظر :

W. Von Soden, Akkadisches Handworterbuch, S. 96.b.

(١٥) ساماتون Samanum كانت تقع في وادي الفرات الى الشمال من ماري في منطقة تيرقا انظر:
B. Groneberg, RGTC 3 (1980), S.201;Klengel, Zwischen, Zelt und Palast, S.55.

(١٦) ارض اوبرابوم Ubrabum هي المنطقة التي سكن فيها البدو الاوبرابيون ، وكانوا فرعا من البنياميين وقد سكنوا في منطقة تيرقا حول مدينة ساماتوم . انظر :

Groneberg, RGTC 3 (1980) , S. 244;Klengel, Zwischen Zelt und Palast, S. 56; Kupper, Les nomades,P. 49 ff.

توجد عدة اماكن في بلاد الرافدين بهذا الاسم. توتول Tuttul التي يرد ذكرها في نصوص ماري تقع قرب مصب نهر البليخ . انظر :

Groneberg, RGTC 3. S, 242; E. Strommenger, Tall Bia ˀei Raqqa , in: Mitteilungen der Deutschen Orient- Gesellschaft 109 (1977), S,5 ff.

(١٨) امنانوم Amnanum هي المنطقة التي سكنها البدو الامنانيون الذين كانوا احد فروع البنياميين وسميت باسمهم ، وتقع في منطقة توتول على نهر البليخ . انظر :

Kupper, Les nomades, P. 49ff.; RGTC3,S. 14; Klengel, Zwischen Zelt und Palast, S.56.

(١٩) اباتوم Abattum هناك عدة اراء في تحديد موقعها . انظر :

RGTC 3, S. 1.

(٢٠) رابوم Rabbum اسم قبيلة بدوية اطلق على المنطقة التي سكنتها في ارض بمحاذى قرب الفرات .
انظر : Kupper, Les nomades, P.53; RGTC 3S. 192ff.

(٢١) تعبير ملوك هنا يشير كما هو واضح الى شيوخ قبائل بدوية كانت تتجول بقطعانها قرب الفرات ، ولها في الوقت نفسه مستوطنات سكنية حول ضفاف النهر . انظر :

Klengel, Zwischen Zelt und Palast, S.56.

(٢٢) Sumu-Epuh كان يحكم مملكة يمحاض وعاصمتها حلب . وكانت تشمل شمال سورية . وهو اول حاكم ليمحاض معروف لدينا من هذه الفترة ، وهذه الاشارة هي اقدم اشارة اليه حتى الان

(٢٣) Haman مدينة بناها اشباه البدو الخانيون . انظر : RGTC 3, S. 87.

(٢٤) ايجير زالا انكي : E GI-IR ZA-LA AN KI
هذه الجملة سومرية تعني « معبد بهاء السماء والارض » . وقد تكررت بالاكادية في السطرين ١٢و١٣

(٢٥) انليل Enlil هو الاله الرئيسي في البانثيون السومري؛ وهو سيد القضاء والقدر ، ابو الالهة ملك السماء والارض ، وملك كل البلاد ،كان مقدسا ايضا لدى البابليين والاشوريين ،ومركز عبادته الرئيسي كان مدينة نيبور . انظر :

D. O.Edzard,in wörterbuch der Myth ologie, Band I.S. 5 ff; Ringgren, Die Religionen des Alten Orients .S.69 .

(٢٦) سين Sin : اله القمر عند الاكاديين والبابليين . وهو ابن انليل . وكان سين يكتب بالعدد الرمزي (٣٠) الذي يطابق ايام الشهر، واماكن عبادته الرئيسية اور وحران. انظر :

Edzard, in : Worterbuch der Mythologie, I.S.10;
Ringgren, Die Religionen des Alten Orientes , S. 119ff.

(٢٧) نيرجال Nergal : اله العالم السفلي واله الطاعون . انظر :

Edzard , in: Worterbuch der Mythologie, I, S. 109 ,; Ringgren, Die Religionen des Alten Orients, S. 80,126.

(٢٨) آيا Aya : الربة قرينة شماش . من القابها حبيبة شماش (نارامتو naramtu) والكنة ، والعروس ، كالاتو Kallatu). :ـ

Edzard, in : Wörterbuch der Mythologie . I, S.39; Ringgren , Die Religion en des Alten Orients, S. 121.

المرأة في مملكة حلب (يمحاض) في القرن الثامن عشر ق.م.

د. فيصل عبدالله

جامعة دمشـــق

ان كتابة تاريخ المراة السورية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، يعتمد بصورة اساسية على مصادر محفوظات مدينة ماري (قرب بلدة ابو كمال حاليا) ومحفوظات مدينة آلالاخ (قرب مدينة انطاكية حاليا) . ونمتلك اليوم ما يكفي من المعلومات حول نساء قصر زمري ليم في ماري لا سيما بعد صدور المجلد الرابع من السلسلة الفرنسية الجديدة(١) التي تعنى بدراسة محفوظات ماري . ففي هذا المجلد نصوص تقدم لنــا معلومات وافرة حول ما يسمى « حريم قصر ماري » وكذلك مراسيم الزواج ،والزواج الدبلوماسي ، وما يمكن استنتاجه من عادات وتقاليد مازال الكثير منها مستمرا عبـر العصور حتى يومنا الحاضر .

وفيما يتعلق بمملكة حلب (يمحاض) بالذات ، لدينا اليوم نصوص حصلنا عليها بعد حفريات مدينتي ماري والالاخ ، تعكس بصورة غير مباشرة وضع المراة الحلبيــة ذات الاصل الملكي ، وبعض مظاهر العادات والتقاليد المتعلقة بالزواج .

ومن الجدير بالذكر ان ما نحصل عليه من معلومات تاريخية من تلك النصوص، ليس الا جزءا من تاريخ المجتمع الاشوري ـ البابلي ، الذي تشكل بعـد الهجرات البدوية الامورية في نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد ، فهؤلاء الذين اجتاحوا ، انطلاقا من البادية العربية السورية ، سورية والعراق القديمـين ، استولـوا تدريجيا على السلطة فيهما ، واقاموا ممالكهم الشهيرة(٢) .

اعد هذا البحث للمؤتمر الدولي الثالث والثلاثين لعلماء الاشوريات ، باريس ٧ـ١٠ تموز ١٩٨٦، وموضوعه « المراة في الشرق الادنى في العصور القديمة » .

ان الدراسات المستمدة من نصوص مملكة ماري تعكس بوضوح العلاقات المتينة بين هذه الاخيرة ومملكة يمحاض . وعاصمتها حلب(٤) ، كما كانت تسمى في ذلك العصر . وقد توطدت هذه العلاقة منذ عودة زمري ليم الى ماري واسترجاعه مملكة ابيه يخدون ليم التي اغتصبها الاشوريون(٥) . بدأت تلك العلاقة بعد زواج « دبلوماسي » شهير في تاريخ مدينتي ماري وحلب ، ذلك الزواج الذي جمع بين الملك زمري ليم الشهير وشيبتو ، الاميرة الحلبية ابنة ياريم‌ليم ملك حلب / يمحاض ، ذائع الصيت في تلك الايام . وتجدر الاشارة هنا ان معطيات جديدة اثبتت أن ذلك الزواج قد تم بعد تسلم زمري ليم السلطة في ماري، وليس قبلا ، كما كان مفترضا من قبل الاستاذ جورج دوسان(٦).

ان قصة هذا الزواج هي اليوم أكثر وضوحا بعد اكتشاف ملف من النصوص المسمارية سينشرها قريبا الاستاذ جان‌ماري دوران(٧) ، ويشرفني ان اكون اول من يقدم محتوى تلك النصوص الهامة في هذا البحث .

يتضمن الملف الجديد من النصوص المسمارية مجموعة رسائل مكتوبة على الواح فخارية من حجم صغير بلغة اكادية ولهجة مارية غربية (نسبة الى ماري) ارسلت من قبل بعثة ملكية موفدة من مدينة ماري على الفرات الاوسط ، الى مدينة حلب حاضرة مملكة يمحاض الامورية في سورية الشمالية يراسها كل من اصقدوم وراشيا(٨) ، ومهمتها الوصول الى قصر الملك الحلبي ياريم ـ ليم وطلب يد ابنته الاميرة شيبتو زوجة لزمري ليم ملك ماري . وكانت البعثة تزود زمري‌ليم برسائل عن اخبارها وهي في طريقها الى حلب .

يتضمن هذا الملف من الرسائل التي بين ايدينا النصوص التالية ، مرتبة حسب التسلسل الزمني لارسالها الى بلاط ماري من قبل بعثة ملك ماري وهي في طريقها الى حلب :

اولا : في الطريق الى حلب :

ـ رسالة البعثة عندما كانت على مشارف مدينة تيلازيبوم(٩) ، التي يفترض ان تقع بين ماري وايمار (مسكنة حاليا) .

ـ رسالة ارسلت من مدينة ايمار(١٠) .

- رسالة تتضمن معلومات حول عملية الاستعجال بمراسيم الزواج(١١).
- رسالة تتعلق بزيارة بلاد يمحاض(١٢) .
- رسالة تتضمن اخبارا من البلاط الحلبي(١٣) .
- رسالة تتعلق بمسالة سكن العروس شيبتو في ماري(١٤) .

ثالثا واخيرا : العودة الى ماري :

- رسالة من ايمار(١٥) .
- رسالة بعد المرور بحصن دور يخدون ليم(١٦) .

يبدو من خلال الرسائل السابقة ان اصقدوم وراشيا كلفا ، في السنة التالية لعودة زمري ليم الى عرش ابيه ، بمهمة طلب يد اميرة حلبية . وتلك المهمة الدقيقة تحتاج الى تدخلات الحاشية ، وخاصة وزير البلاط المسمى شيمروم ، الذي يعلن للبعثة المارية بعد مقابلة الملك ياريم - ليم : امراة مقابل امراة ، لانه كان يرغب بالحصول على مغنية من ماري تسمى كرناتوم .

ونلاحظ من خلال وثائق المجلد الرابع لدراسات ماري(١٧) متعددة الجوانب ، ومن خلال وثائق المجلد السادس والعشرين التي ستنشر قريبا ، ان طرائق الزواج السوري وعاداته تبدو أكثر وضوحا ، على الاقل ، مما كان في مدينة ماري.

ان « كلمة نديتوم »(١٨) الاكادية لم تعد تعني هدية او تقدمة ، وانما « الطرحة »(١٩) ، وهي العطايا التي تحملها العروس من بيت ابيها عندما تغادره الى بيت الزوجية .. أما ما يقدمه الزوج من جهته فهو يسمى بالاكادية « ترخاتوم »(٢٠) والترجمة الفرنسية للكلمة هي « عطاء مقابل »(٢١) ، اي جهاز العروس من عريسها. ولا ندري هنا اذا كانت الكلمة الاكادية ذات علاقة بكلمة «طرحة» .

ان النصوص المنوه عنها هنا ، لا تنبئنا عن النديتوم أي هدايا شيبتو من بيت ابيها ، ولكن نصا(٢٢) مكتشفا من قبل يسجل لنا هدايا العريس الى عروسه . ونستعرض الان المعطيات المستمدة من ملف الزواج هذا :

- تقدم لنا البعثة الموفدة من قبل ملك ماري المثل الاقدم في تاريخ العادات والتقاليد الانسانية على ما يسمى الزواج بالوكالة او التوكيل .

- تمت مراسيم الزواج في قصر الملك الحلبي ،أي في بيت العروس ، وهو مايجري في مجتمعنا في الوقت الحاضر . وهذا شاهد على استمرارية تقاليد هذا المجتمع برغم التبدلات السياسية واللغوية..

- ان موفدي زمري ليم هم الذين وضعوا الغطاء على راس العروس شيبتو ،وبذلك نستطيع الاستنتاج مع جان ماري دوران(٢٣) ان الزوج أو وكلاءه هم الذين يضعون الغطاء على رأس العروس .

- تضع المراة المتزوجة الغطاء على راسها وهو ما يسمى بالاكادية كتموم(٢٤) ، ومن الواضح هنا أن المصدر « كتم » بالعربية يفيد في المقارنة اللغوية .

- يشير جان ماري دوران في ملفه الى ان النصوص تدل على ان العاهرات المقدسات وحريم « حارمتوم »(٢٥) المعابد في سورية ، في ذلك العصر ، كن **يضعن الغطاء على رؤوسهن** ، على عكس ما هو شائع .

- تدل نصوص اخرى غير منشورة ، كما يشير الاستاذ دوران ، ان عملية **الطلاق** في سورية كانت تتم بصورة رئيسية **من قبل الزوج** ، وعلامتها اقدامه على خلع معطف زوجته او تمزيقه بحضور شهود . الا انه كان للزوجة ايضا، على ما يبدو، الحق بالمبادرة بقطع علائق الزوجية .

والربط بين هذه المعطيات الاجتماعية وعاداتنا وتقالدينا اليوم لا يحتاج الى مزيد من التفاصيل .

- نستطيع الاستنتاج أيضا أن تقاليد الزواج السورية كانت تقضي بأن تعيش الزوجة ، التي تتحدر من اصل ملكي ، تحت سقف واحد مع زوجها .

- .واستنادا الى نص غير منشور(٢٦) ، كانت والدة ملك حلب ياريم ليم هي السيدة سومو ـ نابي(٢٧) ، ونفترض من جهة اخرى انها زوجة أول ملك لحلب سومو- ايبوخ المعروف . وكما سنرى فيما بعد ، فإن امراة حلبية من نسب ملكي تحمل الاسم نفسه ، مذكورة في نصوص مدينة آلالاخ التابعة لمملكة حلب .

- ان دور الملكة الام في المملكة الحلبية غير واضح ، ولكن الكثير من الاشارات تدعو للاعتقاد انه ذو اهمية بالغة .

- ان الملكة الزوجة ، أي زوجة ياريم ليم المسماة جاشيرا(٢٨) ، قد ارتحلت مع زوجها في ارجاءالبلاد وفق مايدل عليه نصان(٢٩) بهذا الخصوص ،كماكانت تدير القصر في غياب زوجها(٣٠) .

- تظهر لنا رسالة(٢١) من زمري ليم الى حماته جاشيرا ان عادة اتخاذ أكثر من زوجة ، او عشيقة ، هي من العادات المعروفة في مجتمعنا منذ ذلك الوقت .
- تشير في النهاية الى مهمات كانت تناط بالمرأة في ذلك العصر ، وهي العناية بالمرضى والاطفال . فهناك نص(٢٢) يتحدث عن أكثر من امراة رافقن طفلا الى مدينة حلب بأمل شفائه على يد اله المدينة أدد وكهنتها . ويرجح أن هذا الطفل هو ابن احد المسؤولين الكبار في ماري.

اذا ما تتبعنا بحثنا هذا حول اوضاع المرأة في سورية الشمالية، في نصوص مدينة آلالاخ ، فاننا نجد نصا مؤرخا في السنة التي « كان فيها اميتكوم ملكا على حلب ، عندما اتخذ ابنة حاكم مدينة ابلا زوجة لابنه »(٢٣) . وهناك نصان(٢٤) يتحدثان عن رحلة ملكية حلبية الى ابلا بمناسبة ذلك الزواج .

ولابد من الاشارة هنا الى ان زواج الملوك كان وسيلة لتدعيم الروابط السياسية ، وقد تم من قبل عدد من هذه الزيجات بين ملوك وحكام الممالك الامورية المعاصرة في ذلك الوقت(٢٥) .

لدينا ، من جهة اخرى ، الكثير من النصوص المكتشفة في مدينة آلالاخ تبرز دورا مهما للمرأة ، بخاصة ذات النسب الملكي ، فهي تستطيع ممارسة التجارة لحسابها الخاص ، وتستطيع أن تكون شاهدا ندا للرجل ، ولها ارثها كما للرجل .

فهناك نص اداري(٢٦) ، يشهد بحضور الملك وأوامره توزيع ميراث بين افراد العائلة . الملك هو نقمي ــ ابيوخ الملك الثالث لحلب (في نصوص آلالاخ) ، حيث يوزع ارثا خاصا بزوجة رجل مسمى اموزابي ، وقد تم توزيعه بين ابنهاابايل وابنتها بيتاني . وبالرغم من جهلنا للشخصيات التي تحمل هذه الاسماء الا انه من المحتمل ان يكونوا من أعضاء العائلة الملكية او من اقربائها ، فهم في النتيجة يحصلون على الارث وهو قرية اسمها سوخاراوا ، مع كل الاحترام والتبجيل الواضحين في النص . ونص اخر(٢٧) يذكر اسماء اعضاء في العائلة الملكية بينهم امراة تدعى تاكي اشخارا ، يعتقد انها زوجة الملك نقمي ــ ابيوخ وقد انجبت له عددا من الاولاد .

اما الوثيقة(٢٨) المؤرخة في اثناء حكم اركيتوم فتذكر اسم امراة تسمى سوموـنبي (اسم النبي) وهي تقرض الفضة (وفق أوزان مدينة حلب) الى افراد من قرية ابراش . وتقوم هذه المرأة باعمال مماثلة في نصوص اخرى ، وتذكر في النهاية كشاهد(٣٩) . ويعتقد وايزمان مترجم نصوص آلالاخ ، بأن هذه المرأة هي شقيقة حاكم آلالاخ اميتكوم(٤٠) .

اخيرا : اذ اردنا ان نجمل معطيات هذا البحث بخلاصة قصيرة عن المراة الحلبية السورية والعربية بعامة في ذلك العصر ، نجد :

● ان المراة ، تشارك في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وتعمل في التجارة ، ولكن من وراء حجاب على ما يبدو .

● اننا لا نعلم الا القليل عن حياة النساء في معابد سورية ولكننا نعتقد انها كانت كحياة غيرهن من النساء في معابد بلاد الرافدين ، التي كانت تضم هيئة كهنوتية نسائية هامة خاصة في معبد الاله ادد / هدد ، الذي كان مبجلا في كل ارجاء المنطقة الرافدية .

● اخيرا ، ما قدمته لنا تلك النصوص وغيرها مما لايزال غير منشور ، وقيد الدرس والتمحيص ، يدل بصورة قاطعة على أهمية المملكة الحلبية ، ويحفزنا اكثر فاكثر على التعرف على قصرها في ذلك العصر . وأهم من هذا هو الوصول الى المحفوظات الملكية التي يجب ان لا تقل أهمية عن محفوظات ماري أو ابلا .

(١) عنوان البحث بالفرنسية
La Famme dans le royaume d'Alep au 18e siécle av.J.C.

(٢) هذه السلسلة تحمل عنوان :
M.A.R.I. : Annales de Recherches Interdisciplinaires, Paris

(٣) من اجل النصوص السمارية الاكادية والدراسات المتعلقة بهجرة الاموريين وبهجرات القبائل البدوية الاكادية التي سبقت هذه الهجرة ، وجميع المصادر المتعلقة بهذا الموضوع ، وبموضوع هجرات البدو القدماء انسال العرب ، انظر : فيصل عبد الله :
Les Relations internationales entre le royaume d'Alep / Yamhad et les villes de Syrie du Nord « -1800 à 1594 av . J.C. » p. 23 et suivant; P. 189 n° 90 - 114 .

اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة باريس

(٤) ان اقدم ذكر لاسم يمحاض ياتي في كتابات يخدون ــليم التاسيسية المؤرخة في نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وياتي اسم مدينة حلب في التاريخ نفسه تقريبا ، ولذا فاننا نعتبر ان مدينة حلب هي اقدم مدينة مازال مسكونة منذ ذلك التاريخ حتى عصرنا الحاضر، محافظة على اسمها الاكادي على مر العصور ، من اجل تفصيلات حول هذا الموضوع ، وحول كتابة الاسم بالسمارية، انظر المرجع السابق ، ص٤٧.

(٥) تؤرخ فترة حكم زمري ــليم في ماري بين ١٧٨٠ــ١٧٥٩ ق.م .

(٦) انظر :
Čharpin, D. et Durand, J.M., Origine de Zumri- Lim, colloque CNRS, 620, Strasbourg, 1983.

(٧) سينشر هذا الملف في المجلد السادس والعشرين من محفوظات ماري الملكية :
Durand, ARM 26

(٨) يكتب الاسمان بالقطعية الاكادية : Ri-Si-ia; As-qu du-um
انظر ايضا : ARM XVI/I

(٩) الرسالة تحمل الرقم (A. 711)
ويكتب اسم تيلازيبوم هكذا : Tillazibum

(١٠) A. 2369; Imar

(١١) A. 2627

(١٢) A. 414

(١٣) A. 3627

(١٤) A. 2679

(١٥) M. 5418

(١٦) A. 973

(١٧) M.A.R.I.4

(١٨) تقدمة ، هدية midiltum, Present :
وهي الترجمة المقترحة سابقا .

(١٩) وبالعامية (دوطا) وبالفرنسية dot

(٢٠) terhatim.

(٢١) contre-don,

(٢٢) النص يحمل الرقم M. 5677

(٢٣) ان معطيات هذه النصوص مستوحاة من ملف الزواج الذي اعده الاستاذ جان ماري دوران ولكننا لانطوي على محاولات لربطها بمجتمعنا المعاصر .

(٢٤) Kuttumum

(٢٥) بالاكادية Harimtum

(٢٦) ويحمل الرقم A. 2617

(٢٧) Sumu - na-bi

(٢٨) Gasera

(٢٩) ARMT 23, 535, 536

(٣٠) انظر : ARMT 23, p. 472

(٣١) انظر : ARMX 139

(٣٢) RES 1939, p. 68

(٣٣) نص مدينة الالاخ AT+35 حيث يحمل تلك العبارة في نهايته . اسم الملك يكتب بالقطعية المسمارية: Ammitakum اما مدينة ابلا فتكتب بمقطعين Eb - la وقد اكتشفت في ١٩٦٨ جنوب حلب .

(٣٤) AT+269; 235

(٣٥) تشير بصورة خاصة الى زواج جمع بين يسمع-ادد ابن شمشي ادد الاول مؤسس المملكة الاشورية في نهاية القرن التاسـع قبل الميلاد ، وبين ابنة ملك قطنة (قرب مدينة حمص حاليا) وهو زواج ضجت له البادية السورية ، كمايبدو وصفه في النصوص . انظر المصـدر المذكور في الحاشية رقم (٢) ص ٥٧٤.

(٣٦) النص هـو AT. 7

والاسماء هي : الملك Niqmi - Epuh

رجل بدون مرتبة اجتماعية Am-mu-ra-pi

رجل بدون مرتبة اجتماعية Ab-ba-An/EL

امراة بدون مرتبة اجتماعية Bi-it-ta-at-ti

Suharawa قرية يفترض ان تكون بجوار الالاخ قرب انطاكية.

(٣٧) AT+409 Taki-Ishara

(٣٨) AT+33 ملك حلب Irkabtum Sumunnabi Airrase

(٣٩) AT+404

(٤٠) AT+34 Amitakum

Wisman, Donald, The Alalakh Tablets, London, 1953.

ملوك إبلا العشرة

الفونسو اركي
عضو الهيئة الدلية
لدراسة ارشيف ابلا

عربه عن الالمانية
قاسم طوير
المديرية العامة للاثار والمتاحف

فكت رموز الرقيم المسماري الموصوف بـ (ت.م /٧٥/ ج /٢٦٢٨) ونشر في المجلد السابع من سلسلة مطبوعات الارشيف الملكي لنصوص ابلا (ARET) تحت رقم ١٥٠ . تقول الحاشية الواردة في السطرين الثالث والرابع في الوجه الخلفي من الرقيم ما يلي : اضاحمن الضأن لالهة المدن التي يقطن (جوهرها) في مدينة دريب.

ورد ذكر مدينة دريب في الرقيم المسماري الموصوف بـ (ت.م /٧٥/ ج /٢٣٧٧) على اساس انها مدينة من مدن دولة ابلا وبالتحديد مقر لعبادة الالهة نيداكول . وباستثناء اسماء بعض سكان هذه المدينة الوارد ذكرهم في رقم اخرى فاننا لا نعرف شيئا عن امورها الاخرى .

ترجمة الرقيم : ١ ـ الوجه الامامي

السطر الاول :

ـ (.١٠ اودو) (خراف)
ـ (دينجر)
٣ ـ (اركب دامو)
(دينجر)
٥ ـ (اجريش حلم)
(دينجر)
٧ ـ (ادوب دامو).

السطر الثاني

(دينجر)
(كوم دامو)
٣ ـ (دينجر)
(ايسار ملك)
٥ ـ (دينجر)
(إن ـ آر ـ دامو)
٧ ـ (دينجر)
(با ـ دامو)
٩ ـ (دينجر)

---

* نشر هذا البحث في مجلة الدراسات الاشورية ـ برلين ، المجلد ٨٦ ، الجسزء الثاني ١٩٨٦ ص ٢١٣ ـ ٢١٧ .

السطر الثالث
(إبي دامو)
(دينجر)
٣ ـ (أخور ليم)
(دينجر)
٥ ـ (آبور ليم)
(إنـإن) (ملك الملوك)
٧ ـ أو دو (خروف) عدد ٢
نيداكول (دينجر)

السطر الرابع :
و (حرف عطف)
الاله بيـمي (بعلة)
٣ ـ اودو (خروف) عدد ٢
رسب (اله رشف)
٥ ـ و (حرف عطف)
الاله آداما
٧ ـ اودو (خروف) عدد ٢
الاله آجو

٢ ـ الوجه الخلفي للرقيم :

السطر الاول : و (حرف عطف)
الاله جولاتو
٣ ـ اودو (خروف) عدد ١
الاله آرارو
٥ ـ مدينة دريب
أودو (خروف) عدد ١
٧ ـ الاله جا×سيكـرا

السطر الثاني:
لوـ داـ دا ـ إن
اشـدا
٣ ـ غير مقروء عدد ١
(فجـوة)

السطر الثالث (فجوة)
٣ ـ غير مقروء ...اله اله اله (رب الارباب)
أورو ـ(مدينة أورو (مدينة ـ مدينة)
٣ ـ (فـراغ)
٤ ـ في (حرف جر)
مدينة دريب
٣ ـ (فراغ)
٥ ـ (فراغ)

يحتوي الجزء الاول من النص على اسماء ثلاثة ارباب مع بعلاتهن ، الاول هو كبير آلهـة ابلا المدعو نيداكول وقرينته بعلة ، والثاني هو اله رشف وقرينته آدما ، والثالث اله آجو وقرينته جولاتو . ويلي هذه القائمة اله مدينة دريب ، غير ان اسمه ناقص في النص ، وهوعلى الشكل التالي في المقاطع السومرية (جا×سيكـرا) . ولحسن الحظ ان هذا الاسم موجود في المعجم اللغوي المكتشف في سجلات ابلا وهو يقابل كلمة (ايشخارا) بالابلائيـة .

يحصل كل اله من هؤلاء الآلهة على اضحيـة مؤلفة من ذبيحة خـروف . ويبدأ النص بذكر العدد الاجمالي للذبائح ، وعددها عشر ، وهي موزعـة في بقيـة النص على

الملوك وعلى الالهة.. وتجدر الاشارة ان اشارة الربوبية في المصطلح السومري (دينجر) ملازمة لاسماء الملوك ، يضاف الى ذلك اننا نعرف اسمي اثنين من الملوك الوارد ذكرهم في هذا النص وهما الملك (إركب دامو) والملك (إجريش حلم) من اوائل سلالة ملوك ابلا ، وقد ورد ذكرهما كثيرا في النصوص الادارية لسجلات هذه المدينة . بنا على ذلك نفهم من محتوى هذا الرقيم ان ملوك ابلا يصبحون في مصاف الالهة بعد وفاتهم بحيث ان الاضاحي تقدم لهم على قدم المساواة مع الالهة الرئيسة للمدينة ، مثل نيداكول ورشف .

تبدأ سلسلة هؤلاء الملوك المقدسين بالاقدم عهدا وتنتهي بالاحدث عهدا ، ويأتي تسلسلهم على الشكل التالي : إركب دامو ، إجريش حلم ، آدوب دامو ، كوم دامو ، إيسار ملك ، إن ـ آر ـ دامو ، با ـ دامو ، إيي ـ دامو ، آجور ليم ، ابوروليم.

ان طريقة التسلسل التراجعي ـ اي البدء بالاقدم والانتهاء بالاحدث ـ متبعة في كافة النصوص الادارية والنصوص المتعلقة بمسك الدفاتر .

لابد اذا من ان تكون مدينة دريب مركزا رئيسا لعبادة الملوك القدماء في ابلا ، ولابد انه كانت لهم عبادة في قلب العاصمة ابلا ايضا ، على الرغم من ان اسمائهم لا يرد ذكرها في قائمة الاضاحي الشهرية التي تقدم للالهة . فالرقيم المسماري الموصوف ب (تـم /٧٥/ج/٥٧٠) المكتشف في الغرفة الموصوفة بـ (لـ ـ٢٧١٢) يحتوي على حصة كل فرد من افراد حاشية القصر من الطعام والشراب وعلى تقدمات لمختلف الالهة . فمثلا نقرأ في السطور الثاني والثالث والرابع للوجه الخلفي للرقيم نفسه بالسومرية مايلي:

(واحد جيش) شاماجان (واحد جيش) دينجر ـ ان ـ اه سيكي (واحد جيش) دينجر ـ إن إه ـ سيكي (واحد جيش) ، إنكي دينجر (واحد جيش)، سي ـ إن ، او ـ زال ـ او ـ زال (واحد جيش) ، إكس ، زه (واحد جيش) دينجر ان ـ آر ـ دامو (واحد جيش) دينجر ايسار ملك (واحد جيش) ، ان ـ سي جو (٢٠ جيش) سيليك ـ نينداـ سيكيك .

نواجه في هذا الرقيم الى جانب آلهة مشهورة من مجمع ارباب إبلا والاله الحامي للملك الذي كان يقطن في دار الصوف ، اي بيت المال ، نواجه الايام الخوالي (او ـ زال ـ او ـ زال) ، التي تحصل على تقدمات ايضا ، وهذا يعني ان تلك الايام صارت جزءا من عبادة الاموات .

يضاف الى هؤلاء كل من الملك الاله إن ـ آر ـ دامو والملك الاله إيسار ملك ، (اي الملك الخامس والملك السادس في سلسلة الملوك الواردة ذكرهم في الرقيم الاول).

من الملاحظ عدم اشتراك احد هؤلاء الملوك مع غيره بالاسم أو بالكنية ، وقد يعني هذا ان ابلا لم تعرف النظام الوراثي ، وبالتالي لم يكن ملوكها من اسرة واحدة ، غير ان هناك استثناء واحدا يتعلق بالملك إبي ذكير الذي ورث العرش من ابيه الملك إبريوم.

يرد العنصر الربوبي (دامو) مركبا في اسماء ستة من ملوك ابلا العشرة . اما العنصر الربوبي (ليم) فانه مركب في اسمين فقط ، في حين ان كلا من العنصر الربوبي (حلم) و (ملك) مركب في اسم واحد وحما اجريش حلم ـ ايسار ملك .

ان كلمة (داموم) بالابلائية معروفة في الاوغاريتية ، وتعني (شعب،جماعة) اما في الاكادية (لغة العراق القديم) فتعني (الرقم ألف) ، وعندما تستخدم تلك الكلمة في تركيب اسماء الاعلام فانها تضفي الصفة الالوهية الى الاسرة او الجماعة صاحبة الاسم.

نصادف العنصرين (دامو) و (حلم) في كثير من اسماء الاعلام في نصوص ابلا . ويرد العنصر (دامو) في عدد من اسماء اسرة الملكين (ابريوم) و (إبي ذكير) . ونستدل من وجود العنصرين السابقين مركبين في اسماء ثمانية ملوك من اصل الملوك العشرة ان البنية الاجتماعية في ابلا كانت قبلية (عشائرية) .. لكن مع نمو التمدن تمكنت اسر اخرى من الوصول الى سدة الحكم وكسر طوق الاحتكار السياسي لعشيرة معينة .

ظل العنصر (ليم) متداولا في تركيب اسماء الاعلام في ابلا خلال الفترة الامورية في الالف الثاني قبل الميلاد الا انه يختفي في اسماء الاعلام في اوغاريت خلال الفترة نفسها.

أما العنصر (دامو) فينمحي كليا من اسماء الاعلام منذ نهاية ابلا في الالف الثالث قبل الميلاد .. غير انه من الاكيد في هذا الصدد ان ملوك ابلا القدماء لم يكونوا من اهل الوبر ، أي لم يقطنوا في الخيام ، فالتنقيبات التي تمت خلال موسمي عام ١٩٨٤ ــ ١٩٨٥ اظهرت بوادر قصر تحت اساسات القصر الملكي (ج) الذي ظهرت فيه السجلات الملكية . يضاف الى ذلك ان النظام الاجتماعي في ابلا كان يستلزم وجود اساس حضري ثابت مستقر .

وهكذا تكون الوثيقة موضوع هذه الدراسة قد زودتنا باسماء عشرة من ملوك ابلا في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد . وبما ان الملكية لم تكن وراثية وتنتقل من الاب الى الابن فلا بد من التحذير بان عشرة ملوك لا يعنون عشرة اجيال في التعاقب الزمني.

هل للعبرانيين وجود في إبلا ؟...

البروفيسور و. لوريتس
استاذ اللغات السامية في جامعة مونستر بالمانيا

عربه عن الالمانية
. قاسم طوير
المديرية العامة للآثار والمتاحف

اثارت البيانات والافتراضات الاولية المتعلقة بالربط بين نصوص ابلا من جهة ، والتوراة وشخصيات واحداث التاريخ الاسرائيلي من جهة ثانية اهتماما كبيرا. فقد اثارت الاعجاب من ناحية ، الا انها قوبلت بالرفض من ناحية اخرى . وفي حين اعتبرها البعض في امريكا ضوءا يمكن تسليطه على الظلام الذي ما يزال يكتنف تاريخ نشوء اسرائيل ، نجد ان غالبية العلماء التوراتيين في المانيا اعتبرت المقارنة بين نصوص ابلا والنصوص التوراتية منذ بدايتها نوعا من الاستمرار العقيم للجدل الذي نشأ في مطلع هذا القرن حول العلاقة بين بابل والتوراة (١) ومن ثم بين اوغاريت والتوراة(٢) .

ورغم الزمن القصير الذي يفصلنا عن بدء المقارنة بين نصوص ابلا ونصوص التوراة ، الا انه يجوز لنا من الان استعراض جزء من الخلافات المتعلقة بقوم يحملون اسم « عبري / عبراني وبشخصية « ابرام العبراني » - الاب الاول لليهود - استعراضا تاريخيا ، ومن ثم شرح اسباب الخلاف ، وبالتالي بيان النتائج في خطوط عامة على الاقل .

في اعقاب الافتراضات التي طرحها جوفاني بيتيناتو(٣) لاول مرة عام ١٩٧٦ حول احتمال وجود علاقة بين اسم ملك ابلا « ايبريوم » من جهة واسم الاب الاول لليهود

---

* اعد هذا البحث و. لوريتس للندوة الدولية حول ((لغة ابلا واللسانيات السامية)) التي نظمها ((معهد اللسانيات واللغات السامية)) في جامعة فلورنسا بايطاليا وانعقدت في فلورنسا بين ٢٤ و ٢٦ حزيران ١٩٨٢ ، ثم صدر في الكتاب الذي ضم ابحاث الندوة في عام ١٩٨٤ عن المعهد المذكور وذلك في العدد -١٤- من سلسلة دفاتر الدراسات السامية . تحت عنوان ((دراسات في لغة ابلا)) .

« عبر » الوارد في لائحة الانساب في سفر التكوين (١٠ : ٢١ و ٢٥ ، ١١ : ١٤ و١٧) والاسم التوراتي لقوم العبرانيين (عبرى)، دخلت نصوص ابلا في حقل الجدل القائم منذ ١٢٠ سنة حول العلاقة بين كلمة(عبرو) الهيروغليفية المصرية وكلمة حابيرو المسمارية وكلمة (عبـرم) الاوغاريتيـة من جهـة ، وكلمـة (عبريم) التوراتيـة من جهـة ثانية(٤) ، غير ان سير البحث العلمي حـول العلاقـة بين الحابيرو والعبرانيـين قـد ادخل منذ البداية شخصية أبرام او ابراهيم في حلقة الخلاف حول عبر والعبرانيين ، واخيرا صارت شخصية ابراهيم جزءا لا يتجزأ من اي مناقشة وذلك في اعقاب الابحاث التي قام بها و. ف. اولبرايت حول الحابيرو والعبرانيـين وابراهيـم . وهكذا عـاد الدور الاساسي للاصحاح الرابع من سفر التكوين ، هذا للاصحاح الذي يدور حولـه الجدل الكثير(٥) .

في الوقت الذي اصبح فيه الباحثون ينظرون الى الروابط الاثرية واللغويـة بين ايبريوم الابلائي وعبر وعبريم التوراتيين نظرةانتقادية ومتشككة(٦)، نجد عددا من علماء التوراة قد استأنفوا بحث تلك الروابط واستقلوا بها ، كما صاروا يشكلون حلقةخاصة بانفسهم لدراسة نصوص ابلا ضمن اطار الدراسات التوراتية وبعيدا عن اجواء علماء الاثار واللغات القديمة . وفي ظل هذه المساعي عقدت آمال متنوعة على نصوص ابلا ، فمثلا ثمة ادعاء بان الحابيرو ليس لهم علاقة لسانية او سوسيولوجية مع العبرانيـين (عبريم) ، واذا ما ثبت بأن كلمة عبري مستمدة من اسم ملك ابلا ايبريوم فان هـذه المشابهة النابعةمن ابلا ستلغي كافة النظريات المتعلقة بالربط بين عبريم والحابيرو(٧).

وفي حين يتوقع هؤلاء نتيجة سلبية للربط بين عبريم وحابيروفي ضوء نصوص ابلا، نجد ان الباحث ج. برايت في كتابه « تاريخ اسرائيل » يتخذ موقفا مغايرا، فهو يستنتج من الخبر القائل بوجود ذكر لاسم (عبر) في نصوص ابلا بان الامـر لا يقتصر على ورود ذكر الاباء التوراتيين الاوائل (عبر وابراهيم) في وثائـق اثرية ، بل ان الدليـل صار قائما على ان شمالي العراق وسورية كان يسكنهما جماعات بشرية قريبة من اجـداد بني اسرائيل وذلك قبل قرون من عصر البرونز الوسيط(٨) ، ثم يستطرد قائلابالحرف الواحد : « ان هذا الامر ليعزز الثقة بقدم التراث المنقول ويضيف ارجحية على زعـم التوراة بان اجداد بني اسرائيل قد هاجروا من تلك المنطقة ».

يربط ج. برايت بين اسم النسب (عبري) وكلمة حابيرو ، ويستدرك بانـه على الرغم من عدم وجود مشابهة بـين الحابيرو والعبرانيـين ، الا انه يجـوز لنا اعتبار العبرانيين جزءا من الحابيرو(٩) .

يكفينا فهما من تلك المقولات . بان هؤلاء الباحثين يرون في اسم ملك ابلا المدعو ايبريوم دليلا على الوجود التاريخي لجد العبرانيين (عبر) الوارد في لائحة الانساب في

سفر التكوين (١٠/١١)(١٠) . والغريب في هذا التطور ان جوفاني بيتيناتو قد تخلى منذئذ عن نظريته حول العلاقة القائمة بين اسم ايبريوم الابلائي وعبر والعبرانيين في التوراة .

سنقتصر فيما يلي على معالجة المسائل المتعلقة بجد العبرانيين (عبر) وبالعبرانيين (عبريم) وبسفر التكوين ١٤، وسنفحص ماهية الاستنتاجات واثرها على المقارنة بين ابلا والتوراة ، لنعرف اذا كان بالامكان الخروج بحقائق تتعلق بما يسمى بتاريخ نشوء اسرائيل او بواكير تاريخ اسرائيل .

اذا اردنا فهم اهمية النقاش القائم حول الربط بين العبرانيين وابراهيم من جهة وابلا من جهة ثانية فلابد من استعراض اصول هذا الجدل الجديد حول العبرانيين . ولعله من المفيد ان نقوم بمثل هذا الاستعراض وذلك لان الباحث ف. شاباس(١١) كان في عام ١٨٦٢ اول من حاول مطابقة اسم (عبريم) في الروايات التوراتية حول الاسرائيليين في مصر مع (عبرو) الواردة في الكتابات الهيروغليفية المصرية ، وبالتالي يكون اول من استعان بدليل غير توراتي لاثبات قدم اسم الكنية التوراتي (عبري) . فبناء على الشبه اللفظي بين كلمة عبري وكلمة (عبرو) والشبه في الروايتين التوراتية والمصرية القديمة حول تسخير هؤلاء في الاشغال العامة (بناء الاهرام) استنتج الباحث شاباس بان عبريم التوراة و (ع ب ر و) الكتابات الهيروغليفية اسمان لمسمى واحد(١٢) .

لقيت نظرية شاباس هذه الكثير من الاتباع وفي الوقت نفسه الكثير من الرافضين . فالباحث ج. ماسبيرو رفض اعتبار الـ (ع ب ر و) شعبا من الشعوب ، واعتبر عملية الربط بين (عبريم) التوراتية و (عبرو) الهيروغليفية نظرية خيالية مجردة(١٣) .

في غمرة الظلام الذي اكتنف العلاقة بين (عبرو) و (عبريم) جاءت النصوص المسمارية المكتشفة في تل العمارنة ونوزي واوغاريت لتسلط اضواء جديدة ولتثير النقاش مجددا . ففي وقت واحد قام في عام ١٨٩٠ كل من الباحث كوندر والباحث تسيمر(١٤) بربط (عبريم) مع الحابيرو الوارد ذكرهم في رسائل تل العمارنة . وبينما اكد الاول على المطابقة بين عبريم وحابيرو وجعلهم يدخلون فلسطين في ايام يشوع ، كان الثاني اكثر حذرا في تفسيره ، حيث قال انه على الرغم من ان الامر لم يتأكد لكن ثمة مؤشرات تؤيد مطابقة العبريم مع الحابيرو . واذا صح هذا الافتراض فستكون رسائل العمارنة التي تأتي على ذكر الحابيرو في غاية الاهمية بالقياس الى المسألة المطروحة مرارا حول زمن وصول العبرانيين الى فلسطين وشكله وطريقته(١٥) .

لم تؤثر وثائق تل العمارنة تأثيرا اساسيا على مسار النقاش ، لان الباحثين استمروا في اعتبار حابيرو ، من خلال وثائق العمارنة ، شعبا او مجموعة من القبائل ،

وذلك انطلاقا من تصوراتهم المستمدة من النصوص التوراتية . فالباحث فبول F. Böhl في كتابه حول الكنعانيين والعبرانيين الصادر في عام ١٩١١ ينطلق من مقولة المطابقة بين الحابيرو والعبريم وعبر ويخلص الى النتيجة بان (العبرانيين) اسم اشمل بكثير من اسم «الاسرائيليين»(١٦) ، ثم يخرج بالمقولة السائدة حتى يومنا هذا وهي ان العبرانيين تسمية لمجموعة شعوب ومن بينهم الاسرائيليين .

ويرى الباحث نفسه ان العبرانيين من الناحية اللغوية جزء من الاموريين ، لكنهم من الناحية التاريخية جزء من الاراميين . اما الباحث آ. يركو A. Jerku فقد ثبت المقولة في محاضرته امام مؤتمر المستشرقين في عام ١٩٢٤ ، واجرى تعديلا على تلك المقولة بان جميع الاسرائيليين عبرانيون ، ولكن ليس جميع العبرانيين اسرائيليين. وقال ان الاسرائيليين ليسوا فرعا من العبرانيين بل ان كلا منهما مستقل عن الاخر ولعل كل منهما مختلف عن الاخر اصلا ، لكن الاتحاد بين فصائل من كل منهما قد انتج الشعب الاسرائيلي فيما بعد . وقد ظلت فصائل متفرعة من العبرانيين تعيش الى جانب الشعب الاسرائيلي طيلة قرون من الزمن(١٧) .

يركز الباحث يركو نفسه على (ابراهيم العبراني) الوارد ذكره في سفر التكوين ١٤و١٣ ويرى في ان الاصحاح من سفر التكوين تعود اصوله الى ايام ابراهيم ، ولعل الاصحاح نفسه مستمد من وثيقة مسمارية تعود الى ايام ابراهيم نفسه . واخيرا يرى الباحث اولبرايت(١٨) ان جماعة ابراهيم هم انفسهم الحابيرو الرحل ، وهؤلاء هم الذين جلبوا معهم الاصول المسمارية للتاريخ التوراتي من بلاد الرافدين الى فلسطين .

واذا كان علماء الاثار المصرية قد رفضوا منذ البداية اطروحة الربط بين(عبرو) الهيروغليفية و (عبريم) التوراتية ، فقد رفض علماء اخرون عملية الربط بين (عبريم) و(الحابيرو) ، ولم يحقق الجدل تقدما حقيقيا الا على يد الباحث ب. لاندزبرغر(١٩). يرى لاندزبرغر في كلمة الحابيرو اسما لكنية ويعتبرهم طبقة اجتماعية مؤلفة من اللاجئين والمطاردين ، وهم على عكس الـ (عبري) الذي يعتبرهم افرادا من شعب اسرائيل. ويعود الفضل الى لاندزبرغر في تحرير الحابيرو من اي ارتباط مع التوراة . وقد سار على نهج لاندزبرغر كل من دورم وبوتيرو وبورغر وفون سودن ومنذ ١٩٢٤ قام باحثون في مجالي الاثار الشرقية القديمة والعلوم التوراتية بتكوين صورة تاريخية بمحاولات متعددة للتوفيق بين تفسيرات التوراة من جهة والصورة الجديدة للحابيرو من جهة اخرى ، في ضوء النصوص المسمارية المكتشفة في نوزي وفي اوغاريت. وهؤلاء ايضا ركزوا على طرح البراهين المتعلقة بابراهيم العبراني الذي يتردد ذكره كثيرا في

الاصحاحين ١٤و١٣ من سفر التكوين . وعلى الرغم من الاجماع بان سفر التكوين يعود الى فترة ما بعد السبي البابلي ، الا ان هؤلاء يجعلونه اقدم من ذلك بكثير ، فابراهيم اصبح في نظرهم واحدا من الحابيرو وجماعته من الحابيرو هم النواة الاولى للشعب الاسرائيلي .

ومن ابرز ممثلي هذه النظرية نذكر ج ليفي G. Lewy و ف البرايت F. Albright(٢٠) .

قادت الافكار الجديدة التي طرحها لاندزبرغر الى نشوءمفاهيم جديدة حول الحابيرو في اوساط الباحثين التوراتيين وبخاصة لدى الباحث الت Alt . يرى هذا الباحث انه لم يكن هناك حلف للقبائل الاسرائيلية اثناء تغلغل الاسرائيليين داخل فلسطين كما انه يشك بوجود قبائل (اسرائيلية) في ذلك الوقت ، بل ان الامر مجرد وجود عشائر متفرقة او حلف عشائر من الرعاة الرحل الذين كانوا ينتقلون في اطراف الساحل والسهول اثناء الشتاء والربيع وفي الصيف كانوا يضطرون للتسلل الى داخل المناطق الزراعية طلبا للمرعى ، وكان على تلك العشائر ان تتفاهم مع اصحاب الاراضي المزروعة للاستفادة من بقايا المزروعات بعد الحصاد . وعلى هذا المنوال تعلمت تلك العشائر من خلال احتكاكها المتواصل مع مناطق المراعي كيف تستقر تدريجيا(٢١) مع مرورالوقت .

بعد هذا الاستعراض لن يكون مستغربا ان تعود الاشباح للظهور مجددا فور الحديث عن وجود مزعوم لكلمة عبر او عبري في وثائق ابلا . وكما جرى في المحاولات السابقة فقد حاول الباحثون الربط بين الوثائق الاثرية المكتشفة مجددا والمعطيات التوراتية ربطا مباشرا ، ومن ثم الخروج باستنتاجات تاريخية . لكن هؤلاء تجاهلوا ان هذه الطريقة قد اعتمدت على افتراض ان الكتابات التوراتية ذات طابع تاريخي ، وهذا هو الخطأ نفسه الذي قاد الى الاستنتاج بان الحابيرو هم العبرانيون .

لابد لنا من النظر بعين الاعتبار الى ان جهات متعددة في القرن الماضي اتهمت مؤلفي التوراة بالتزوير والمغالطة . لكن هذا الاتهام لا يعني بالضرورة ان المؤلفين اليهود قد زوروا الاحداث التاريخية وقلبوها راسا على عقب ، بل زوروا المفهوم الاساسي لعلاقة الانسان بالتاريخ وبالطبيعة . وينصب الاتهام بالدرجة الاولى على رجال الدين اليهود الذين قاموا بتزوير تاريخ اسرائيل ورسخوه في الكتاب المقدس وفي نمط الحياة اليهودية ايضا . ويعتبر كل من ف. نيتشه و ج. ويلهاوزن وماكس فيبر من حملة لواء هذا الموقف من مؤلفي التوراة .

كان رد الفعل على هذا الموقف شديدا . فالاوساط اليهودية المحافظة اعتبرت مثل هذا الموقف نوعا من العداء للسامية ، اما الاوساط المسيحية المحافظة فقداعتبرته نكرانا لكلام الله الحق . ويتفق الطرفان اليهودي والمسيحي على ان محتويات الكتاب المقدس تاريخية وموثوق بها .

نعود الان الى العلاقة المحتملة بين ملك ابلا ايبريوم من جهة ، والاسم التوراتي عبر وعبريم من جهة ثانية . فمن المقارنة الاولية بين الاسمين نجد ان الاسم التوراتي يبدأ بحرف العين ؛ بينما لا نملك ادلة على ان ايبريوم كان يبدأ بحرف العين(٢٢). وبما ان الاسم التوراتي (عبري) مشتق من فعل (عبر) فانه لا يمكن ان يكون الاسم (عبري) مشتق من اسم الملك (إيبريوم) . كذلك اذا اعتبرنا اسم (عبر) مشتق من اسم (عبري) او من (عبر نهرى) فانه لن تكون هناك حاجة للمقارنة بين (عبر) و (ايبريوم) .

واذا اردنا التشبث بالراي ان اسم الملك ايبريوم ظل مستمرا في اسم (عبر) في التوراة : فيبدو لنا ان ايبريوم الابلائي قد تشوه وتبدلت شخصيته لصالح كتابة التاريخ اليهودي . فعبر في سفر التكوين هو جد ابراهيم والاب الاول للشعب اليهودي اما ايبريوم الابلائي فلا يحمل هذه الصفة بتاتا .

واذا اعتبرنا سفر التكوين (١٤) من وضع مؤلفين يهود بعد النفي فانه يمكننا ان نتوقع نهاية للجهود الرامية الى خلق علاقة بين نصوص ابلا وسفر التكوين ، وبالتالي الوصول الى تحديد تاريخ زمني لابراهيم الخليل استنادا الى تاريخ وثائق ابلا كما فعل الباحث دافيد نويل فريدمان(٢٢) .

ان الاصل المتاخر زمنيا لسفر التكوين ١٤ الذي تم تدوينه بعد السبي البابلي والطابع الادبي لمضمونه يمنعان سلفا اجراء اية مقارنة بينه وبين نصوص ابلا . ان تاريخ المقارنة بين المصادر التوراتية والمصادر الاثرية كتلك التي جرت بين كلمة (عبرو) المصرية و (حابيرو) المسمارية و (عبريم) التوراتية يكشف ان تحديد الزمن الذي تمت فيه كتابة التوراة امر حاسم من أجل المقارنة مع المصادر الاثرية . كذلك لن يكون بالامكان اجراء مقارنة تاريخية فعلية قبل ان نصل الى تحديد تاريخ زمني لكتابة التوراة . وان اية محاولة للخروج بتحديد زمني للتوراة من خلال المقارنة مع المصادر الاخرى لن تفضي الا الى الدوران في حلقة مفرغة .

ان الاضطراب الناتج عن عدم الاجماع على التحديد الزمني المبكر للنصوص التوراتية يجعل جميع المقارنات الجارية بين وثائق ابلا والنصوص التوراتية من الامور المستحيلة والتي يكتنفها الشك . ونظرا للفاصل الزمني البعيد بين وثائق ابلا

والنصوص التوراتية فقد اصبح عامل الزمن يحتل المقام الاول . لذلك يتوجب على علماء الاثار والاستشراق والتوراة ان يمتنعوا عن القيام باستنتاجات وقياسات انطلاقا من ماثورات توراتية متقادمة وغير مؤكدة .

وانا شخصيا اتنبأ منذ الان أن نصوص ابلا في نهاية المطاف ستؤكد البينة بان التوراة لم تكن من صنع مؤلفين سوريين قدماء او كنعانيين بل من صنع مؤلفين يهود . وفي هذا الصدد ثمة ملاحظة تستحق الذكر وهي أن الغموض الكائن حول البدايات التاريخية لـ (اسرائيل) والزمن الذي بدأ فيه تاريخ اسرائيل من جهة ، وحول مسيرة البحث العلمي حول هذه النقطة من جهة اخرى ، تجعلنا نتفهم لماذا يستمر علماء التوراة في تعليق الامال الكبيرة على النصوص الاثرية التي تكتشف في سورية .

(١) نشأ الجدل حول بابل والتوراة في اعقاب محاضرة القاها ف. ديليتش F. Delitzch في ١٩٠٢/١/١٢ في لايبزغ والمنشورة في كتيب بعنوان بابل والتوراة .

(٢) فيما يتعلق بالجدل الناشيء حول اوغاريت والتوراة .انظر على سبيل المثال لا الحصر بحث جي، سي ، دومور J. C. de Moor ، و ب. فان در ـ لوخت P. Van der Lugt بعنوان Spectre of Pan-Ugaritism المنشور في مجلة Biblioteca Orientalis العدد ٣١ لعام ١٩٧٤ صفحة ٣ـ٤ .

(٣) تحاشيا لكل سوء فهم لابد لنا من نقل التصريحات نقلا حرفيا ، فقد كتب بيتيناتو في مجلة الاثاري التوراتي (العدد ٣٩ لعام ١٩٧٦ صفحة ٤٧) ما يلي : من أهم ملوك ابلا اثارة للانتباه هو بالتأكيد ابروم « لانه يذكرنا بالتوراة . اذ يرد اسمه مكتوبا بشكل مقطعي كالتالي (اب ــ أوروــ أوم). وثمة امكانيتان للقراءة الاولى ((ابروـاوم)) والقرابة مدهشة بين هذا الاسم واسم (عبر) جد الساميين حسب سفر التكوين (١٠ـ٢١) والثانية « ايبريوم » الذي يذكرنا قطعا باسم « عبري» وانا شخصيا اميل الى الاخذ بالامكانية الثانية » .

(٤) فيما يتعلق بالجدل حول الصيغة الكتابية حابيرو أو خابيرو انظر ج. بوتيرو J. Bottéro في قاموس الاشوريات Real lexicon d' Assyriology السلسلة الرابعة (١٩٧٢ـ١٩٧٥) ص ٢٢.

(٥) انظر مثلا مقالة الفونسو آركي بعنوان: هل مدن السهل الخمس وارد ذكرها في نصوص ابلا ، المدن التي يرى جوفاني بيتيناتو بانها موجودة بالقرب من البحر الميت المنشورة في مجلة الاثار التوراتية Biblical Archaeology Review العدد ٦/٧ لعام ١٩٨١ ص ٥٤ـ٥٥ ، ثم انظر ج.د موهلي J. D. Muhly في المجلة نفسها صفحة ١٠ ، حيث يبدي اهتماما بالربط بين ابلا وسفر التكوين ١٤/ ، فقد كتب يقول : من المثير جدا لاهتمام قراء هذه المجلة مسالة ورود اسماء مدن توراتية في نصوص ابلا ، وبخاصة المدن الخمس حيث يفترض بانها ترد في التسلسل نفسه كما في التوراة . ثم انظر دافيد نويل فريدمان في كتاب « دراسات في عصر داود وسليمان ودراسات اخرى » دار نشر ايشيدا ،طوكيو ١٩٨٢ . ص ٣٢٨ـ٣٣٠ .

(٦) انظر باولو ماتييه ، ابلا امبراطورية اكتشفت من جديد ، لندن ١٩٨٠ ص ٢٢٤ ، وانظر جوفاني بيتيناتو ، ابلا ـ امبراطورية منقوشة في الطين ، ميلانو ١٩٧٩ ،١ ص ٢١٥.

(٧) انظر آ-ف. رايني ، مجلة الاستكشافات الاسرائيلية العدد ٣٠ لعام ١٩٨٠ ص ٢٥١ وانظر دافيد فريدمان ، دراسات في عصري داوود وسليمان ، دار نشر ايشيدا ، طوكيو ١٩٨٢ .

(٨) انظر ج. برايت ، تاريخ أسرائيل ، لندن ١٩٨١ ص ٧٨ .

(٩) انظر ج. برايت ، تاريخ اسرائيل ، لندن ١٩٨١ ص ٩٥ .

(١٠) انظر ميشيل داوود ، ابلا واوغاريت والعهد القديم ، مجلة الحضارة الكاثوليكية العدد ١٢٩ الجزء الثاني لعام ١٩٧٨ ص ـ ٢٢٤ـ٢٢٥ .

(١١) انظر ف. شاباس ، العبرانيون ، مجلة منوعات مصرية Mélanges égyptologiques السلسلة الاولى ١٨٦٢ ، ص ٤٢ـ٥٤ .

(١٢) انظر ف شاباس ، ابحاث حول تاريخ الاسرة التاسعة عشر ، باريس ١٨٧٣ ص ١٠١ـ١٠٦ .

(١٣) انظر ج. ماسبيرو ، « هل العبرو هم العبرانيون » مجلة الثيولوجيا والاثار المصرية ، المجلد الثالث ، باريز ١٨٩٨ .

(١٤) C.R. Conder «Monumental Notice of Hebrew Victories, » PEQ 22 (1890) P. 326-329 .

(١٥) انظر H. Zimmern, Palestina um das Jahr 1400 V. Chr, nach neun Quellen, ZDPV 13 (1890), P. 137-138.

(١٦) انظر F. Böhl , Kanaanäer und Hebräar, Leipzig 1911, p. 73-89.

(١٧) انظر A. Jirku, Die wanderung derHebräar im 3 und 2 Jahrtansend Leipzig 1924, P. 29 .

(١٨) انظر W. F. Albright « Deutung der väter israel, ». Biblica 52, 1971, p. 407 - 432 .

(١٩) انظر B. Landsperger, Zeitschnift für Assyriologie 32 (1924), P. 213

(٢٠) انظر W. F. Albright, From the Patriarchs to Moses, Biblical Archaeologist 36 (1973) p. 15-16.

(٢١) انظر M. Weipert, Die Landnahne der Israelitischen Stämme in der neueren wissenschaftlichen Diskussion, Göttingen 1967, 14-51.

(٢٢) انظر Lipnski, West Semitic Personal Names from Ebla, Accadica 14, 1979, 52 .

D. N. Freedman, The Real Story of the Ebla Tablets and the Cities of the Plain, Biblical Archaeologist 41 (1978)P. 153.

مع الكتب

هل جاءت التوراة من جزيرة العرب ؟

د. محمود أبو طالب

الجامعة الاردنية

صدر في ايلول من سنة ١٩٨٥ م من تأليف الدكتور كمال الصليبي الاستاذ في قسم التاريخ والاثار في الجامعة الامريكية في بيروت كتاب بعنوان : « التوراة جاءت من جزيرة العرب »(١) . وهو الان في طبعته الثانية في كل من اللغات العربية والانجليزية والالمانية . واطروحة هذا الكتاب هي ان تاريخ بني اسرائيل ، كما ترويه التوراة قد اتخذ مساره بالكامل في أرض عسير وجنوبي الحجاز في غربي شبه الجزيرة العربية وان الصعوبات التي واجهها ويواجهها دارسو التاريخ التوراتي وادت بالكثيرين منهم الى التشكك في صحة ذلك التاريخ سببها قبولهم بالفكرة التقليدية القائلة بان جذور تاريخ بني اسرائيل تعود الى العراق ومصر وان بؤرته كانت في فلسطين . ووفقا لهذه الاطروحة فان ارض كنعان التي نجح بنو اسرائيل في اقامة كيان لهم فيها ليست فلسطين وانما المنحدرات البحرية لعسير من منطقة بلحمر في الشمال عبر منطقة رجال المع وحتى منطقة جيزان في الجنوب . كما ان ارض الفلستيين(٢) هي ليست الساحل الفلسطيني وانما ساحل تهامة من جوار الليث في الشمال الى جوار جيزان في الجنوب . وان هيردن ليست نهر الاردن وانما هي لفظة تعني « جرف » او « قمة » او « مرتفع » وقد استعملت للاشارة الى مثل هذه المظاهر الطبوغرافية في عسير وجنوبي الحجاز . وفي عسير ايضا ، وليس في مصر وفي العراق ، نجد نهري مصرايم وفرات ، والاول هو وادي ليه والاخر هو وادي اضم . اما مصرايم نفسها فليست سوى قرية المصرمة (او المصرامة) بين ابها وخميس مشيط . وليس هذا كل شيء فالمؤلف يرى ايضا ان كتابات المصريين والعراقيين ، وممالك الاجزاء الشمالية من بلاد الشام في الالفين الثانية والاولى قبل الميلاد مما له صلة ببيئة تاريخ بني اسرائيل تشير هي الاخرى الى غربي شبه الجزيرة العربية .

ولقد وصف الدكتور الصليبي نفسه هذه الاطروحة بانها « استنتاج مذهل » (ص٢٧) وهو يقر بانها تبدو « في منتهى الغرابة للوهلة الاولى ليس فقط بالنسبة لليهود

والمسيحيين الذين اعتادوا على ان ارض التوراة هي فلسطين بل ايضا بالنسبة الى المسلمين الذين اخذوا هذه الفكرة عن اليهود والمسيحيين » (ص١٤–١٥) بل انه يعتقد كما ورد على لسانه في مقابلة معه نشرتها مجلة لبنانية(٣) بأن هذه الاطروحة تشكل دعوة الى اعادة النظر في أسس الحضارة الغربية . وكيفما كان الامر ، فان اقل ما تنطوي عليه هذه الاطروحة ، ان صحت ، هو خلق تاريخ قديم كامل لغربي شبه الجزيرة العربية ومحو كامل تاريخ فلسطين القديم واعادة النظر في التاريخ القديم لكل من الشام ومصر والعراق لمدة الفي سنة – على الاقل – وشطب كل ما كتب في هذه المواضيع لمدة الفي سنة اخرى .

وفي الفصل الاول من هذا الكتاب وهو بعنوان « العالم اليهودي في العصور القديمة » (ص٢٧–٥٦) يفسر لنا الدكتور الصليبي كيف قدر لـ « الوهم » بان فلسطين هي ارض التوراة ان يسيطر على البشرية كل هذه المئات من السنين . ويبدأ تفسيره بالتاكيد على ان كون مسار تاريخ بني اسرائيل في غربي شبه الجزيرة العربية « لايعني ان اليهود لم يكن لهم اي وجود في فلسطين او في غيرها من البلدان خارج غرب الجزيرة العربية في ايام التوراة » (ص٢٨) . وتعود بدايات الوجود «اليهودي»(٤) في فلسطين الى القرن العاشر قبل الميلاد – اي الى زمن داود وسليمان – وكان الحافز له حينئذ تجاريا . ثم لم يلبث انتقال « اليهود » الى فلسطين ان اتخذ شكل هجرات واسعة النطاق بسبب الحروب التي نشبت بين مملكتي اسرائيل ويهوذا منذ انفصلتا اثر وفاة سليمان وكعادة المهاجرين في كل زمان وفي كل مكان من هذا العالم ، كما يؤكد الصليبي عمد « اليهود » المهاجرون الى فلسطين الى اطلاق اسماء يعرفونها في غربي شبه الجزيرة العربية على مواقع في فلسطين . وهكذا فاننا نجد في فلسطين ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد اسماء اماكن توراتية مثل يهودا ، يروشليم(٥) ، بيت لحم ، حبرون ، شمرون ، جرزيم ، عيبال ، كرمل جليل وهيردن(ص٣٥–٣٦) . كما ان الدكتور الصليبي يؤكد ايضا انه لم يكن اليهود أول من استوطن فلسطين قادما من غرب شبه الجزيرة العربية بل هناك الفلسطينيون اي الفلستيون (والتفسير له) الذين وصلوا ولا شك من غرب شبه الجزيرة العربية قبلهم فصارت تعرف باسمهم وهناك ايضا الكنعانيون الذين نزحوا من غرب شبه الجزيرة العربية في زمن مبكر عندما تفرقت قبائلهم في الارجاء (سفر التكوين ١٠:١٨) ليعطوا اسمهم لارض كنعان(كنعن) على امتداد الساحل الشامي شمالي فلسطين (ص ٣٣) وقد اعطى كل من الفلستيين والكنعانيين اسماء يعرفونها في عسير لمواقع في فلسطين وبلاد الشام، ومن هنا نجد فيها اسماء فلستية مثل غزة واشكلون وبيت دجن منذ « ما قبل بني اسرائيل » وأسماء كنعانية مثل صور ، صيدون ، جبيل ، ارواد ولبنان منذ «زمن مبكر» (ص٣٤).

ويستمر الدكتور الصليبي في تفسيره ليخبرنا بانه عندما تحطم كيان بني اسرائيل السياسي في ارض عسير باحتلال نبوخذ نصر البابلي ليروشلم سنة ٥٨٦ق.م ، تركز

التيار الرئيسي للتاريخ اليهودي حول فلسطين وقبل ان يمر وقت طويل كانت اصول اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية قد دخلت في غياهب النسيان (ص٤٣) وقد تحقق ذلك نتيجة لموت اللغة العبرية الذي بدأ منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد مع بداية شيوع اللغة الارامية كلغة للحياة اليومية اواخر زمن البابليين ، وبلغ ذروته عندما اصبحت الارامية لغة رسمية في زمن الامبراطورية الاخمينية . وبموت اللغة العبرية بدأت صلة يهود فلسطين بكتبهم المقدسة تنقطع وانقطعت ايضا الصلة بينهم وبين يهود غربي شبه الجزيرة العربية ، ولم يلبث هؤلاء - اي يهود غربي الجزيرة - ان تشتتوا بين الكيانات المحلية الجديدة واهمها دولة معين التي قامت في نفس المنطقة التي كانت قد قامت فيها مملكة بني اسرائيل من قبل . اما بالنسبة ليهود فلسطين فقد كان الحال مختلفا اذا اتاح لهم الصراع بين البطالمة والسلوقيين الفرصة لتحقيق استقلالهم واقامة ما يعرف باسم مملكة الحشمونيين سنة ١٦٧ق.م . ويؤكد المؤلف ان هؤلاء الحشمونيين قد اعتبروا انفسهم الورثة الشرعيين لاسرائيل القديمة وفي ايامهم « تم اعتبار فلسطين بانها الارض الاصلية لشعب اسرائيل البائد والتوراة العبرية » (ص٤٨) . ومنذ ذلك الوقت سيطر هذا الوهم على العالم .

ولا ثبات ان الربط بين فلسطين والتوراة ليس اكثر من وهم ، يستند المؤلف على ركيزتين نجد الاولى في الفصل الثاني المعنون ب « مسألة نهج » (ص٥٧-٧٢) ونجد الاخرى في الفصل الخامس وعنوانه « ما لم يكتشف في فلسطين » (ص ١٠٥-١٢١): والركيزة الاولى هي ان النص العبري التوراتي يمثل لغة ميتة يجب عند التعامل معه تعريته من جميع حركاته ، والركيزة الثانية هي ان النشاط الاثري في فلسطين والذي مضى على بدايته اكثر من مئة سنة لم يقدم لنا حتى الان اي دليل على صحة مثل هذا الربط .

وفي توضيحه للنقطة الاولى يؤكد المؤلف على ان النص العبري التوراتي مكتوب بلغة « خرجت عن اطار الاستعمال العام منذ زمن يعود الى ما بعد القرن السادس او الخامس قبل الميلاد (ولذلك) فانه لا يمكن لاحد ان يعرف كيف كانت هذه اللغة تلفظ وتصوت في الاصل لدى الشعب او الشعوب التي تكلمتها (ص٥٧) . وبدءا من القرن السادس الميلادي قامت جماعة من علماء اليهود اصطلح على تسميتهم بال « ماسوريم » بادخال النقط والحركات على هذا النص ، وبحكم انهم كانوا يتعاملون مع لغة مضى على موتها احد عشر او اثنا عشر قرنا فان ما ادخلوه من الحركات لايمكن اعتباره موثوقا او صحيحا . ومن المؤكد ايضا ، كما يدعي المؤلف ، انهم ارتكبوا الكثير من الاخطاء فيما يتعلق بالحروف الساكنة وبصورة خاصة حين اعتبروا ان كلمة واحدة هي في الاصل كلمتين او حين اعتبروا حرفا ما سابقا لكلمة ما ، بينما هو في حقيقة الامر لا حق للكلمة التي قبلها، وهكذا ..

ولا شك ان الدكتور الصليبي مصيب فيما يتعلق بزمن ادخال الحركات في النص

العبري التوراتي ، اما القول بأن اللغة العبرية قد ماتت منذ القرن الخامس قبل الميلاد ففيه الكثير من المبالغة بل عدم الصحة . صحيح ان استعمال اللغة العبرية في الحياة الدنيوية اليومية قد بدأ منذئذ بالانحسار وصحيح ايضا أن بعض الفاظ التوراة لاتزال الى اليوم موضع خلاف في مبناها ومعناها ، الا انه من المؤكد جدا من الناحية الاخرى ان ترتيل اجزاء من التوراة العبرية قد كان ولايزال هو محور الصلوات في الكنس وفي البيوت الخاصة . ولقد بدأ الربابنة منذ القرن الخامس قبل الميلاد بدراسة النصوص العبرية التي بين ايديهم من اجل تقرير ما هـو « مقدس » منها وما هو « غير مقدس »(٦) وهي عملية لم تنته الا في أواخر القرن الاول الميلادي ، ولا يصح تكنيكيا الحديث عن « التوراة »(٧) كمجموعة كاملة من الاسفار المقدسة قبل ذلك . وبالعبرية كتبت طائفة الايسينيين اليهودية جل كتاباتها وكل اسفار التوراة المقبولة لديها وهي الكتابات المعروفة باسم « مخطوطات البحر الميت »(٨) ويعود اقدمها الى القرن الثالث قبل الميلاد واحدثها الى أواسط القرن الثاني الميلادي . والى الفترة اليونانية تعود كثير من الكتابات العبرية التذكارية التي كشف عنها في الكنس وعلى المقابر اضافة الى العديد من قطع العملة الحشمونية(٩) . ولقد وجد عدد من آباء الكنيسة الاوائل انفسهم مضطرين الى تعلم اللغة العبرية حتى يتمكنوا من قراءة ما اصطلح المسيحيون على تسميته « العهد القديم » بلغته الاصلية . وفيما يخص اسماء الاماكن وهي لحمة كتاب الدكتور الصليبي وسداه كما يقولون ، وصلنا ومن الفترة اليونانية نص توراتي دخلت عليها فيه الحركات واعني بذلك الترجمة اليونانية المعروفة باسم « السبعونية » Septaugint لم تلبث ان تبعتها ترجمة لاتينية تعرف باسم « الدارجة » Vulgate وفي سنة ٢٤٥م انجز الاب اوريجن Origen عملا ضخما يعرف باسم Hexpala يتألف من ستة اعمدة متوازية الاول منها هو النص العبري بحروفه الساكنة والثاني هو ما يقابل تلك الحروف باليونانية Transcription اما الاعمدة من ٣ الى ٦ فقد حوت نصوص اربع ترجمات يونانية معروفة في زمنه من بينها الترجمة السبعونية . ومن الغريب ان الصليبي قد نوه بالترجمات الارامية زمن الاخمينيين واليونانية زمن الهيلليني في معرض التدليل على ان اللغة العبرية كانت ميتة تماما (ص ٥٨-٥٩) ولكن ما لايستطيع انكاره انها كانت مفهومة على الاقل من قبل أولئك الذين قاموا بتلك الترجمات . وهذا هو اقل ما يقال بشأن ال «ماسوريم»(١٠) الذين بدأوا بادخال الحركات في النص العبري في القرن السادس الميلادي ، اذ من المستحيل أن يكونوا قد قاموا بذلك « بصورة اعتباطية » كما يزعم المؤلف (ص١٥) والا لكان يصح أن يقال بانهم وضعوا قواعد جديدة وبالتالي نصا توراتيا جديدا .

أما الركيزة الثانية التي اعتمد عليها الصليبي لاثبات ان الربط بين فلسطين والتوراة وهم فهي الادعاء بان النشاط الاثري المكثف فيها لم يكشف عما يبرر مثل هذا الربط ، وقد اقتصر الدكتور الصليبي في محاولة اثبات ذلك على مناقشة عاجلة لثلاثة

نقوش هي : نقش ختم من تل الخليفة بالقرب من العقبة ونقش نفق سلوان من القدس ونقش ميشع من ذيبان ومجموعتين من الكسر الفخارية التي تحمل كتابة كشف عن المجموعة الاولى في سبسطية وتعرف باسم كتابات السامرة وكشف عن الاخرى في تل الدوير ويشار اليها عادة باسم كتابات لاخيش . ويخلص من هذه المناقشة الى ان هذه النقوش والكتابات لا تحتوي اسماء اشخاص او اماكن يمكن ان ترتبط بالتوراة. ثم يختتم هذا الفصل بسرد مجموعة من المطابقات اللغوية بين اسماء اماكن وردت في بعض كتابات الملك الاشوري سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) وهي مما اكتشف في العراق وفي بعض رسائل تل العمارنة (التي تعود للقرن الرابع عشر قبل الميلاد) وقد اكتشفت في مصر ، هذا من ناحية.وبين اسماء اماكن في غربي شبه الجزيرة العربية من ناحية اخرى . وبذلك يختلط في فصل عنوانه « مالم يكتشف في فلسطين » بعض ما اكتشف في كل من فلسطين والعراق ومصر . ولا مجال بالطبع لقبول مطابقاتــه اللغوية المتعلقة برسائل تل العمارنة ونصوص سرجون الاشوري اذا لم يثبت لنا بعد ان أرض التوراة هي عسير؛ اما مناقشته للكتابات التي وجدت في فلسطين فيمكن اعتبارها مثلا لما يجب ان لا تكون عليه المناقشة العلمية .

وللتدليل على مدى تهافت هذه المناقشة فاننا سوف نقبل جدلا كل النقاط التي يصر عليها ثم نسأل هل تثبت هذه النقاط حتى لو صحت أن فلسطين هي ليست ارض التوراة ؟ اما النقاط التي يصر عليها فهي:

أولا : ان الحروف الاربعة المكتوبة على ختم الخليفة لىتم هي ليست اسم يوثام ملك يهوذا كما زعم المنقب (نلسن جلوك) N. Glueck وانما الى يوثام ما وقد لا يكون من بني اسرائيل بل قد (يكون اسم الاله المصري اتوم)(١١) . كما ان تحديده لموقع عصيون جبير المذكور في التوراةفي تل الخليفة الحالي ليس صحيحا . والواقع هو أن كثيرين من المختصين قد سبقوا الدكتور الصليبي في رفض المطابقة بين يوثام وملك يهوذا الذي يحمل نفس الاسم ورفضوا أيضا تحديد موقع عصيون في تل الخليفة .

ثانيا : ان اسم الملك حزقيا من ملوك يهوذا غير مذكور في نقش سلوان ولا يرد في هذا النقش ذكر اسم اي موضع بما في ذلك يروسلم ولم يدع احد خلاف ذلك .

ثالثا : ان الكتابات التي عثر عليها في سبسطية ويطلق عليها اسم كتابات السامرة لا ذكر فيها لاسم الموقع (شمرون) .ولم يدع احدخلاف ذلك ابدا .

رابعا : ان كتابات تل الدوير لا ذكر فيها لاسم المكان (لاخيش) المذكورفي التوراة وان ادعاء وليم البرايت W. F. Albright بان لاخيش هي تل الدوير ادعاء باطل وباطل ايضا ادعاؤه بان الحروف ..سلم هي ما بقي من اسم يروسلم .

خامسا : ان نقش ميشع يتحدث عن حروب هذا الملك المؤابي مع عمري ملك اسرائيل وابنه وقد كتب على نصب اقيم في جحرا جنوبي الكرك بعد اضطرار ميشع للجلاء عن مؤاب في الحجاز .

ويبقى ان ما لا يستطيع الدكتور الصليبي ان ينكره هو ان هذه الكتابات قد اكتشفت في ارض فلسطين والاردن وان اربعا منها بالعبرية واحدها بالمؤابية وهما لهجتان كنعانيتان وان اسم ميشع واسم يوثام مذكوران في التوراة وليس صحيحا ما زعمه المؤلف من ان جلوك ، وبناء على ختم يوثام نقط حدد موقع عصيون جبير التوراتية في تل الخليفة تم اخذ «يعلن للعالم دون ان يرف له جفن اكتشاف الموقع الصحيح والدقيق لمناجم نحاس الملك سليمان » (ص١٠٦) . لقد نقب جلوك في تل الخليفة (١٢) عدة شهور وكشف عن طبقاته الاثرية وما تحويه من فخار وابنية ودرس سياق ذكر عصيون جبير في النصوص التوراتية قبل ان يقترح هذه المطابقة التي تبقى اقتراحا ربما كان خاطئا . وليس صحيحا ايضا ان البرايت(١٣) قد حدد موقع لاخيش في تل الدوير بناء على الكسرة رقم ٤ التي وجدت فيها ، ومن الغبن الشديد ان يوصف اقتراحه بان الحروف س ل م هي ما بقي من اسم يروسلم بالصفاقة والاعتباطية وغياب اقل احترام للامانة العلمية (ص١١١) اذ ان اقتراحا كهذا ، بغض النظر عن صحته او عدم صحته امر مشروع في مجال الدراسات الاثرية والتاريخية . ثم لماذا كل هذا الغضب الم يؤكد لنا المؤلف في عدة مواضع من كتابه انه كان يوجد في زمن التوراة يروشلم فلسطينية .

ان الثقة المطلقة وغير المعقولة التي يقدم بها الدكتور الصليبي مثل هذه الحجج وتجاهله التام لعشرات بل مئات الدراسات والتقارير التي تتعلق بهذه الكتابات الخمس فقط يؤكد لنا انه لا يقدر مدى التعقيد الذي نجده في تاريخ فلسطين القديم. والا كيف خيل للدكتور الصليبي انه يستطيع ان يقنع احدا باستثناء بعض من قابلوه من كتاب الصحف الدارجة ، ان ميشع قد أقام في جحرا نصبا تذكاريا لتخليد هزائمه ثم انتقل هذا النصب ليكشف عنه في ذيبان ، أو انه حتى يصح الربط بين حزقيا ونقش سلوان ، يجب ان ينص هذا النقش الذي لم يصلنا كاملا على ما يلي « ان هذا النقش قد كتب في زمن الملك حزقيا (ص١٠٧) ونذكر بهذه المناسبة ان نقش سلوان لم يعثر عليه في قرية سلوان قرب القدس كما يزعم الصليبي وانما على جدار نفق يربط بين عين ستنا مريم (وتسمى أيضا عين ام الدرج) وبركة سلوان وكلاهما على التلة الشرقية الى الجنوب من سور الحرم الجنوبي »(١٤) .

هذا عن محاولة الدكتور الصليبي اثبات ان ارض التوراة هي ليست فلسطين فماذا عن محاولته اثبات ان هذه الارض هي عسير ويعرف الجميع بالطبع انه لم تجر في ارض عسير حتى الان اية نشاطات اثرية ولم يكتشف فيها ابدا اي اثر مكتوب لغاية

صلة قريبة او بعيدة بلغة التوراة او تاريخها ، فعلى ماذا يعتمد الدكتور الصليبي اذن ! . .

يعتمد الدكتور الصليبي على ما يدعيه من وجود مطابقات بين اسماء اماكن في التوراة واسماء اماكن في عسير وغربي شبه الجزيرة العربية ، ويعترف الدكتور الصليبي بانه اكتشف هذه المطابقات اكتشافا وعن طريق الصدفة ، اذ نقرا في الفقرة الاولى من الفصل الاول مايلي « لقد كان الامر عبارة عن اكتشاف تم بالصدفة . كنت ابحث عن اسماء الامكنة ذات الاصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية عندما فوجئت بوجود ارض التوراة كلها هناك . . وكان أول ما تنبهت اليه ان في هذه المنطقة اسماء امكنة تشبه اسماء الامكنة المذكورة في التوراة وسرعان ما تبين لي ان جميع اسماء الامكنة التوراتية العالقة في ذهني او جلها ما زال موجودا فيها » (ص٢٨). وبما ان اسماء الاماكن في غربي شبه الجزيرة العربية واسماء الاماكن في التوراة لم تكن في يوم من الايام سرا خفيا فان سر تفرد الدكتور الصليبي ، دون غيره بهذا الاكتشاف يكمن في المنهج او على الاصح غياب المنهج الذي اتبعه للوصول الى هذه المطابقات وهذا ما نجده فيما عنوانه « ملاحظات لغوية »(ص٢١–٢٥) وهي التي نجدها مكررة في « مسألة نهج» (ص٦٠–٦٣) .

ومما يلفت النظر ان كتابا تستند اطروحته في شقها الاهم على مطابقات لغوية قد اكتفى مؤلفه بما سماه « ملاحظات لغوية » جاءت مختصرة جدا ومحشورة بين المقدمة والفصل الاول ولا ذكر لها في قائمة المحتويات وتبدا هذه الملاحظات بافادتنا بان الابجدية العبرية تشترك مع الابجدية العربية في اثنين وعشرين حرفا وان هنالك ستة حروف عربية لا وجود لها في العبرية . يلي ذلك قائمة « بالتحولات التي يقرها علماء اللغات السامية بين اللغتين » تتألف من حروف عبرية وما يقابلها من الحروف العربية. ولم يقدم الدكتور الصليبي اي دليل على ان علماء اللغات السامية يقرون جميع هذه التحولات او أي دليل على انها جميعا صحيحة . ولم يميز الدكتور الصليبي بين تحولات يقبل علماء اللغات السامية بامكانية حدوثها في الفاظ ذات معنى واحد او متشابه او متضاد(١٥) وبين النقل في اسماء الاعلام(١٦) ، اذ ان الاصل في هذه الاخيرة ان تنتقل بحروفها كما هي فيما عدا تلك الحروف التي لا وجود لها في احدى اللغتين . ومع ذلك فان تحولا في احد حروف اسم العلم كان يحدث ولكن دون ان يحكم ذلك قاعدة جامعة مانعة . اذ ليس شرطا ان تتحول الهمزة مثلا الى واو او ياء بل قد تبقى همزة أو قد تتحول الى عين او قد تسقط.

وتأتي المفاجاة بعد قائمتي الحروف العبرية والعربية حين يقدم لنا الدكتور الصليبي مجموعة جديدة تماما من قواعد التحول في الحروف بينهما استنبطها هو «من المقابلة بين اسماء الاماكن التوراتية وتلك الموجودة الى اليوم في غرب شبه الجزيرة

العربية »(ص٢٣) . فهو يستنتج مثلا وعلى هذا الاساس ان حرف اللام في اسماء الاماكن التوراتية مهما كان موضعه في التركيب يتحول الى ال التعريف في نظيره العربي في عسير . وهكذا تصبح جلعد : الجعد وتصبح لمعلاه : المعلاه . وهو يقرر أيضا ان اسماء الاماكن التوراتية التيعلى وزن « يفعل » و « تفعل » تتحول الى العربية على وزن « فعل » و « فعلة » وهكذا تصبح يقطن : قطن ؛ تعنك : عنقه ؛ علما بان الدكتور الصليبي يؤكد فيالملاحظة التي تلي ذلك مباشرة انه يجب تعرية الاسماء في كل من العبرية والعربية من الحركات وحروف العلة (ص٢٤) فكيف استقام له مع ذلك الحديث عن الاوزان . ولنفرض جدلا ان اللغة العبرية لغة ميتة فلا نعرف كيف كانت تلفظ اسماء الاماكن فيها فلماذا يريدنا أن نميت اللغة العربية ايضا . ويؤكد الدكتور الصليبي ان الشين العربية لا تنقلب الى ثاء عربية الا في منطقة جيزان حيث تصبح بشن التوراتية بثن كما ان الكاف العربية لا تنقلب ابدا الى خاء وذلك لانه لم يجد مثل هذا التحول على الاطلاق في التعريبالذي حصل لاسماء الاماكن التوراتية في شبه الجزيرة العربية (ص٢٤) . ولا تنسخ هذه القواعد الجديدة عددا من التحولات التي وضعها في القائمتين بل انها تضعنا امام حالة لا مثيل لها من الدوران في حلقة مفرغة ؛ ان الدكتور الصليبي يريد ان ينقلارضالتوراة الى عسير لانه يدعي انه وجد مطابقات لغوية بين اسماء الاماكن في كل منهما وهو يريد ان يقنعنا بصحة هذه المطابقات بناء على قواعد جديدة تماما استنبطها هو دون غيره من افتراض وجود هذا التطابق اصلا .

ولنضرب على ذلك مثلا المطابقة بين يروشلم وآل شريم التي نجدها في الفصل التاسع « اورشليم ومدينة داود » (ص١٧٥–١٩٣) ويتوصل المؤلفالى هذه المطابقة في الصفحة ١٨٣ . وحسب ادعائه فان كل ماحصل لغويا عند النقلمنالاسم التوراتي الىآلشريمهو «تغير موقعي الحرفين الراء واللام بينقسمي الاسم المركب » (ص١٨٣) ولم يتنبه الدكتور الصليبي الى انه لاوجود في النص العبري ابدا لصيغة «يروشليم»؛ للياء بين اللام والميم وانما يكتب دوما ودون استثناء يروشلم اما ما حصل للاسم يروشلم حتى أصبح آل شريم فهو مايلي:

أولا : تحولت الياء الى مدة .

ثانيا : نقل الحرف الثاني الراء ليصبح الرابع .

ثالثا : سقطت الواو نهائيا .

رابعا : انتقل الحرف الرابع الشين ليصبح ثالثا .

خامسا : انتقل الحرف الخامس اللام ليصبح الثاني .

سادسا : اضيفت ياء جديدة في آل شريم .

وقد اقتصرت محاكمات المؤلف اللغوية على الجملة التي اقتبسناها اعلاه اما الصفحات من ١٧٥–١٨٣ فقد احتلتها مناقشة ما يسميه « احداثيات » يروشلم بالنسبة الى حبرون التي هي الخربان في منطقة المجاردة . ويذكر اسم حبرون للمرة الاولى في الصفحة ٣٥ في سياق التأكيد على ان بني اسرائيل عندما هاجروا من عسير الى فلسطين زمن التوراة استعملوا في فلسطين اسماء توراتية من بينها حبرون، ويذكر في المرة الثانية في الفقرة الاولى من هذا الفصل ليفرض علينا المؤلف مايلي :

« هناك خمسة امكنة تسمى حبرون ما تزال موجودة تحت اسم (خربان) (خربن بقلب الاحرف) على المنحدرات البحرية لعسير ومن بين هذه الامكنة الخمسة يحتمل ان عاصمة داود الاولى (أي حبرون) كانت قرية الخربان الحالية في منطقة المجاردة » (ص١٧٥) فلماذا وعلى أي اساس اختار خربان في منطقة المجاردة دون غيرها من بين خمسة مواقع تحمل نفس الاسم لتكون عاصمة داود الاولى ويستمر المؤلف « وكما سنرى لابد ان اورشليم كانت تقع على مسافة ما صعودا باتجاه الشرق في جوار النماص الخ » ولكن ما نراه هو سبع صفحات من « التدقيق في النص العبري لصموئيل الثاني ٥:٦–١٠ الذي يتحدث عن كيفية استيلاء داود على اورشليم » (ص١٧٦) يحدد فيها المؤلف مواقع عدد من اسماء الاماكن الحقيقية او المتخيلة بالنسبة الى خربان في منطقة المجاردة ثم لا يلبث ان يعثر على موقع اورشليم « فورا على مسافة حوالي ٣٥ كم الى الشمال من بلدة النماص في سراة عسير شمالي ابها . انها القرية التي تسمى اليوم آل شريم » (ص١٨٣) .

وفي الفصل المعنون « مسألة الاردن » (ص١٣٣–١٥٤) توصل الدكتور الصليبي في الصفحة الثانية من هذا الفصل الى ان هـ ى ر دن الاردن تعني « جرف » «نتوء» او « مرتفع » كما يلي : يقرر الدكتور الصليبي في الجملة الاولى من هذا الفصل ان هـ ى ردن لم تكن في التوراة نهرا لان عبارة نهر هيردن لا ترد في اي مكان فيها ورغم انه يقتبس من كتاب(لجون سيمونز) قوله ان « مشكلة اصل ومعنى كلمة يردن التي اختلفت الاراء حولها ما زالت بلا حل (ص ١٣٣ هامش رقم ١) الا انه يقرر انها من الجذر (يرد)بمعنى انحدر ويقابلها في العربية الجذر (ردى) الذي يعني سقط ومنها اشتق الاسم الذي نجده في عسير في صيغة ريدان وهي تعني نتوء او مرتفع (اما النون في كل من يردن وريدان فهي اداة تعريف مماثلة) وعلى ذلك فان هيردن تعني جرف نتوء او مرتفع . من ناحية اخرى وفي الهامش رقم ٣ صفحة ١٣٥ يعترف الدكتور الصليبي ، على مضض ان عبارة « مياه الاردن » ترد في التوراة (وهي تذكر عدة مرات) وهنا يقترح ان (يرد) العبرية مقابلة لـ (ورد) العربية وليس (ردى) ويكون معنى هـ ى ردن هنا ليس جرفا او نتوءا او مرتفعا وانما جدول ماء او بركة(١٧)».

وكتاب الدكتور الصليبي هو مجموعة هائلة من المطابقات اللغوية من هذا

المستوى وفيه من المفارقات ما لايحيط به حصر ،ومنها ان المؤلف يؤكد لنا ، وفي اكثر من مكان ، ان بعض اسماءالاماكن في عسير زمن التوراة قد اطلقت من قبل المهاجرين الى فلسطين على مواقع فيها ونحن نعرف على وجه التحقيق كيف انتقلت اسماء هذه المواقع في فلسطين الى لغتنا العربية فلماذا انتقلت في عسير على نحو يختلف تمام الاختلاف ، اننا نعرف انه في فلسطين عربت هذه الاسماء كما يلي: يروشلم : اورشليم، يريحو : اريحا ، عزة : غزة، اشكلون : عسقلان ، اشدود : اسدود ، يافو : يافا ، عكو : عكا ،وتعنك:تعنك .. الخ، فلماذا عربت في عسير على النحو التالي : يروشلم آل شريم ، يريحو : الرخية او الورا خ وعزة : آل عزة في منطقة بلحمر او العزة في وادي اضم او عز فيمنطقة بلسمر واشكلون : شقله في جوار قنفذة او ثقالة في الجوار نفسه ولماذا عربت اشدود اما الى السدود فيرجال المع او السداد في منطقة جيزان اوالشديد في منطقة مكة المكرمة ، او السداد في منطقة الطائف وكيف اصبحت يافو : الوفية ، وعكو : العكة وتعنك : عنقة ؟ الخ.

ومن النقاط البارزة في هذا الكتاب التسليم بصحة روايات التوراة التاريخية تسليما مطلقا الى درجة لم يصل اليها اكثر التوراتيين المحافظين تطرفا ولذلك فان المؤلف يرهق نفسه في البحث في جغرافية روايات يحوم شك كبير حول صحة احداثها . والتوراة كتاب ديني ذو نظرة تاريخية خاصة وقد كتب ما فيه من روايات لتعزيز تلك النظرة ونجد في التوراة في بعض الاحيان ، روايتين مختلفتين او متناقضتين لحدث واحد . ونقد الروايات التوراتية من حيث نشأتها وفلسفتها ومن حيث المدرسة التي حررتها وصاغتها ومن حيث انتقالها حتى دخلت في «الكانون Canon »(١٨) الذي لم يغلق الا في القرن الاول الميلادي امر ضروري جدا لتقييم روايات التوراة تاريخيا ، وضروري جدا مقارنة ماله صلة بالاثار منها بنتائج الحفريات الاثرية ذات العلاقة ولو فعل الدكتور الصليبي ذلك لوجد انه لا مجال للشك ابدا في ان التوراة قد نشأت في فلسطين من ناحية ، ولا مجال ابدا ، منناحية اخرى ، للقبول بان كل روايات التوراة التاريخية صحيحة وهذا مثل بسيط :

تذكر مدينة جبعون وسكانها الجبعونيون في التوراة خمسا واربعين مرة. ويفهم من هذه الاشارة ان في مدينة جبعون بركة ماء (ارميا ١٢:٤١) وان سكانها كانوا يتعاملون بصناعة النبيذ او نقله على الاقل (يشوع : ٤:٩) ومنها ايضا ان جبعون ، في زمن يشوع كانت مدينة عظيمةمحصنة(يشوع : ١٠:٩) وانه قد احتلها ، ومنذ سنة ١٨٣٨ ارتأى ادوارد روبنسون E. Robinson ان جبعون هي الجيب التي تقع على مسافة ١٤ كم الى الشمال الغربي من القدس وبين السنوات ١٩٥٦ ــ ١٩٦٢ قام (جيمس بريتشارد) J. B. Pritchard من جامعة بنسلفانيا في فيلادلفيابالحفر في هذا الموقع فكشف عن وجود بركة ماء(١٩) ومعصرة نبيذ(٢٠) وكشف ايضا عن عدد كبير من النقوش و « طبعات » اختام على مقابض جرار فخارية من بينها واحد وثلاثين

مقبضا نقشت عليها كلمة جبعن . وكان على (بريتشارد) ان يقنع المختصين بان هذه الحروف اسم المكان الذي هو جبعون وكان عليه ثانيا ان يقنعهم ان تلك الجرار لم تأت اني الجيب حيث وجدت من جبعون وهذا ما فعله في نقاش مطول.(٢١) وبذلك يصبح تحديد موقع جبعون في الجيب الحالية في حكم المؤكد . من ناحية اخرى لم تكشف الحفريات في الجيب عن اية اثار لمدينة محصنة يمكن ارجاعها الى الزمن الذي يفترض ان يشوع قد احتلها فيه وبذلك تكون رواية سفر يشوع ليست صحيحة وانما نسجت فيما بعد لاعتبارات ايديولوجية لا مجال للخوض فيها .

(١) كمال سليمان الصليبي ، التوراة جاءت من جزيرة العرب ، ترجمة عفيف الرزاز ومراجعة كمال الصليبي . مؤسسة الابحاث العربية ١٩٨٥، م بيروت ، ٢٦٤ صفحة ، ١١ خارطة . ويفهم من تصدير ناشر الطبعة العربية (ص٨) ومن بعض المقابلات مع المؤلف (مثلا القبس اليومية الكويتية الصادرة بتاريخ ١٩٨٥/١٠/٢ ص ١١) ان مجلة دير شبيغل Der Spiegel الالمانية قد تعاقدت معه في صيف سنة ١٩٨٢م ، بعد ان اوشك على الانتهاء من تاليف كتابه على ان تتولى نشره باللغات الالمانية والانجليزية والعربية والفرنسية والهولندية والدانماركية . ويبدو ان هذه المجلة قد واجهت صعوبات في العثور على دور نشر تتولى القيام بهذه المهمة اذ لم يقدر لهذا الكتاب ان يرى النور الا في ايلول من سنة ١٩٨٥.

(٢) هذا تعريب موفق لاسم هذا الشعب القديم الذي كتب بالعبرية التوراتية Pelishtim وبالمصرية Peleset وبالسمارية الاشورية Palashtu

(٣) مجلة الشراع الاسبوعية الصادر بتاريخ ١٩٨٤/٩/٣ .

(٤) يستعمل الدكتور الصليبي في هذا الكتاب مصطلحي ((يهود)) و ((الديانة اليهودية)) كمرادفين لمصطلحي ((بني اسرائيل)) و ((ديانة يهوه)) . وينعقد الاجماع على ان المصطلحين الاولين لم يظهرا الا بعد السبي البابلي وانه لذلك لا يصح استعمالها عند الحديث عن الفترة التي سبقت ذلك السبي . ولكن هذه تبقى مسالة ثانوية في ضوء التغييرات الضخمة الاخرى التي يقترحها المؤلف .

(٥) هكذا يكتب المؤلف اسم هذه المدينة المشهورة بالحروف الساكنة كما يعتقد انه ورد في النص العبري للتوراة وهذا خطا . فقد كتب هذا الاسم في النص العبري دوما ودون اي استثناء يروشلم وينبهنا ال ((ماسوريم)) الذين ادخلوا الحركات في النص العبري ان هذا ما هو مكتوب Kethib وانها يجب ان تقرا Qere يروشلايم . حولهذه المشكلة انظر :

A.D. Tushingham, « Yerushalayim, » pp. 183 - 193 in Archaeology in the Levant. Essays for kathleen kenyon, R. Moorey and P. Parr ed. Aris and Philips Ltd Warminster, England, 1978.

(٦) ان صفة ((مقدس)) و ((غير مقدس)) ليست دقيقة في التعبير عن العملية التي تشير اليها . والمقصود هو مايقابل المصطلح Canon في اللغات الاوروبية الحديثة وفي اليونانية واللاتينية الذي يوصف به نص ما ــ ليس بالضرورة دينيا ــ عندما ينعقد الاجماع على انه ((أغلق)) فلا يزاد عليه

او ينتقص منه.ويختلف « كانون » العهد القديم الكاثوليكي والارثوذكسي عن نظيرهالبروتستانتي، والاخير مطابق لمجموعة الاسفار التي يصفها اليهود بانها « تلوث اليدين » والتي يفترض في المؤمن ان يغسل يديه بعد كل مرة يمسها خشية ان ينتقل ما بها من القداسة الى ما يمسه فيلوثتلك القداسة . من اجل فكرةعامةعن هذا الموضوع الحساس انظر :

G.W. Anderson, « Canonical and non-Canonical, » pp. 113-159 in The Cambridge History of the Bilble Vol. I,P.R. Ackroyd and C.F. Evans ed., The University press, Cambridge, 1970.

(٧) نستعمل مصطلح « توراة » هنا كما استعمله الدكتور الصليبي ، وكما هو شائع في الاستعمال العربي العام رغم عدم دقته . والمقصود هو ما يسميه المسيحيون « العهد القديم » وما يطلق عليه اليهود اسم « تنك » وهو مصطلح يتالف من الحرف الاول من اسم كل جزء من الاجزاء الثلاثة التي يتالف منها كتاباليهود المقدس تورا ، نبيئيم وكتوبيم . واما بالنسبة للمفهوم الاسلامي فان التوراة هي كتاب واحد مقدس انزل على سيدنا موسى عليه السلام حرف فيما بعد من قبل ربابنة يهود .

(٨) من اجل فكرة عامة عن هذا الموضوع انظر : وليم بروز ، مخطوطات البحر الميت ترجمة محمود العابدي ، دائرة الثقافة والفنون ، ١٩٦٧ ، عمان . وقد اضاف المترجم ، الذي عمل سنوات طويلة في دائرة الاثار الاردنيةمعلومات مهمة تتعلق بمصير هذه المخطوطات .

(٩) انظر مثلا :

R. Hestern et. al, Inscriptions Reveal : Documents From the time of the Bible the Mishna and the Talmud, The Israel Museum, Jerusalem, 1972 .

Synagogue في :

M. Avi, - Yonah ed. Encyclopedia of Archeological Excavations in the Holy Land, Vol. IV, The Israel Exploration Society and Massada Press, Jerusalem, 1978.

(١٠) من الجذر الارامي مسر ويعني « ينقل » « يسلم » . واقدم ما وصلنا منجهدهؤلاء ال «ماسوريم» لا يرقى الى ما قبلالقرنالعاشرا ميلادي وهي نسخة من التوراة ب ((ماسورة)) هارون بنموسى بن اشر موجودة الان فيمتحف لينتفراد في الاتحاد السوفياتي وهي التي اعتمدها رودلف كتل R. Kittel ورفاقه في Biblia Hebraica التي صدرت الطبعة الاولى منها سنة ١٩٢٩ ،والتي حلت فورا محل النسخ العبرية الاخرى التي كانت متداولة وتعمل الجامعة العبرية الان على اصدار تحقيق جديد للتوراة اساسه ما يعرف باسم نسخة حلبAleppo Codex وتنسب الى هارون بن اشر ايضا وكانت محفوظة في كنيس حلب ولكنها سربت سنة ١٩٦٥ الىالكيان الصهيوني. حول هذا الموضوع انظر :

M. Goshen - Gottstein. « The Aleppo Codex and the Rise of the Massoretic Bible Text», Biblical Archaeologist, Vol. 42, N°. 3 (1979), pp. 145-165.

(١١) وبالطبع فان اقتراح الدكتور الصليبي المتعلق بان هذا الاسم قد يكون للاله المصري اتوم مرفوض رفضا قاطعا لان اي ختم هو بالضرورة لتوثيق معاملات رسمية ادارية وتجارية مما لا شان للالهة به ولم يحدث ابدا ان اكتشف ختم اله في اي مكان من الشرق القديم . اضف الى ذلك ان المصريين القدماء لم يستعملوا اختاما وان سكان فلسطين القدماء لم يعبدوا الهة مصرية .

V. Glueck. « The First Campaign at Tell el - Kheleifeh (Ezion Geber), Bulletin of the American Schools of Oriental Research N° 71 (1936). pp. 3-17; « The Topography and History of Ezion Geber and Elat,

« ibid N° 72 ;1938), pp. 2-13;« The Second Campaign at Tell el-Keleifah (Ezion Geber: Elath) ibid N°. 75 (1939) , pp. 8-22; « The Third Season of Excavations at Tell el-Kheleifeh ibid N°. 79 (1940) , pp. 2-18; «Osttraca from Elath» ibid N°. 79 (1940), pp. 3-10; ibid N° 82 (1941) pp. 3-11.

(١٢) من اجل عرض للاقتراحات المتعلقة باسم تل الدوير في العصور القديمة ، بما في ذلك اقتراح (البرايت) الذي طرحه سنة ١٩٢٩. وتلخيص لابرز موجودات هذا الموقع بما في ذلك الكتابات وقائمة باهم المصادر انظر :

O. Tufnell, « Lachish » , pp . 296-308 in Archaeology and the Old Testament, D. winton Thomas ed, The Clarendon Press, Oxford(1967).

(١٤) ويتحدث النقش عن عملية الحفر نفسها ، ويرد في خمسة مواضع من التوراة (الملوك الثاني ٢٠:٢٠ اشعيا ٢٢:١١ اخبار الايام الثاني ٣٢:٢-٢٢-٣٠ وبن سيراخ ٢٨:١٧) ان حزقيا (٧١٥-٦٨٧ق.م) قد حفر في يروشلم بركة وصلها بنفق الى عين جيحون . وان مناسبة ذلك هو الاستعداد للحصار الذي كان متوقعا ان يفرضه سنحاريب على هذه المدينة .

(١٥) انظر مثلا :

L. H. Gray, Introduction To Semitic Comparative Linguistics, Philo Press, Amsterdam, 1971.

ربحي كمال ، التضاد في ضوء اللغات السامية . دراسة مقارنة ، جامعة بيروت العربية . بيروت ١٩٧٢ .

(١٦) انظر مثلا فيما يتعلق بفلسطين :

A. F. Rainey, « The Toponymics of Eretz-Israel » , Bulletin of the American Schools of Oriental Research N°. 231 (1978), pp. 1-17.

(١٧) يجمع الدارسون على انه من الصعب القبول بان صيغة هيردن مشتقة من الجذر يرد انظر :

J. Simons , The Geographical and Topographical Texts of the old Testament, Brill, Leiden, 1959.

وقد نوه سيروس جوردن بان عبارة « نهر الاردن » لا ترد في التوراة وان هذا الاسم باستثناء مرتين (المزامير ٤٢:٧ ، أيوب ٤٠:٢٣) يكون دوما مسبوقا باداة التعريف ، هذا بالاضافة الى عبارتي

«هذا الاردن» و « اردن اريحا » وقد قاده ذلك الى اقتراح ان هذه اللفظة تعني « نهـر » اعتمادا على ذكر iardanus في اوديسه هوميروس (٣ : ٢٩١-٢) ولكن رايه هذا لم يحظ بالقبول انظر:

C. Gordon, Before the Bible . The Common Background of Greek and Hebrew Civilizations, Harper & Row, New York 1962, pp. 284-5.

ونذكر بهذه المناسبة (ان بردية انستاسي الاولى) وهي عبارة عن رسالة سخرية من احد الكتاب المصريين الى غريمه ومنافسه وتعود الى اواخر زمن السلالة التاسعة عشرة المصرية ، اواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ترد فيها عبارة « جـدول الاردن اين يقع » واسم الاردن هنا مسبوق بالاشارة الدالة على نهر اوجدول . من اجل ترجمة انجليزية لهذه الرسالة الطويلة المتعة انظر :

J.A. Wilson, « An Egyptian Letter », pp. 475 - 479 in Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, J.B. Pritchard ed. 3rd edition with Supplement, Princeton University Press, Princeton, 1969.

وفي

W. Helck, Die Beziehungen Agyptens Zu Vorderasien im 3. Und.2. Jahrtausend V. Chr., Agyptologische Abhandlungen 5, 2nd revised ed. O. Harrassovitz, Wiesbaden, 1971, pp. 315 - 319.

نجد مناقشة لغوية جغرافية لهذه الرسالة .

(١٨) انظر الهامش رقم ٦ .

J.B. Pritchard, The Water System of Gibeon,The University Museum, (١٩)
The University of Pennsylvania, Philadelphia, 1961.

Idem Winery, Defenses and Soundings at Gibeon. The University (٢٠)
Museum . The University of Pennsylvania , Philadelphia, 1964.

Idem Hebrew Inscriptions and Stamps From Gibeon. The University (٢١)
Museum . The University of Pennsylvania , Philadelphia, 1959.

هل التوراة على حق ؟

المؤرخ اللبناني كمال الصليبي يبدل اماكن المدن المقدسة

ترجمة : قاسم طوير
المديرية العامة للاثار والمتاحف ــ دمشق

يؤكد استاذ الاثار الاسرائيلي في تل ابيب موشيه كوخاوي ، وهو واثق من نفسه ، بان « الوصف الجغرافي الوارد في التوراة لا ينطبق الا على فلسطين ، لذلك لا يمكن ان تكون ارض التوراة الا في فلسطين » .

غير ان وجهات النظر المخالفة للراي السابق تعتبر جدية ايضا في اوساط العلماء ، فعالم الاثار التوراتية في جامعة ماينز بالمانية الغربية يقول « ان بعض البقاع في بلدان الشرقين الاوسط والادنى تشبه في مظهرها الجغرافي اجواء فلسطين بحيث لا يكون ضروريا ان نوجه انظارنا الى عسير دون غيرها » . نعم ليس من الضروري، بل لعل وعسى ، فلماذا لا نحاول توجيه الانظار الى عسير ، لا سيما وقد تعذر حتى الان ايجاد الدليل المادي في فلسطين على الاحداث التوراتية التي جرب من أيام ابراهيم حتى السبي البابلي ، في حين يعتقد المؤرخ اللبناني كمال الصليبي انه اكتشف وجود عدد كبير من المدن والبلدان والمواقع في عسير تتفق اسماؤها مع الاسماء التوراتية . واذا نقلنا الشبكة البلدانية التوراتية من فلسطين الى عسير نجد ان التوافق لا يقتصر على اسماء البلدان والمواقع بل ويشمل الطبيعة وخصائص الارض والمعادن والمياه والنبات والحيوان كما ورد وصفها في التوراة .

تقع عسير في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية بين الطائف شمالا واليمن جنوبا ، وقد اصبحت الان البلد « الذي يسيل فيه اللبن والعسل » بدلا من فلسطين.

عن مجلة « دير شبيغل » الالمانية ، ٤٠، ١٩٨٥/٩/٣٠ .

وقد وصف الجغرافي اليوناني سترابون الذي عاش بين ٦٣ ق.م و ٢٦ ميلادية ،بلاد عسير بان في داخلها يجري استخراج الحديد والرصاص والذهب .. والذهب موجود فيها على هيئة فلزات اصغرها بحجم الجوزة وليس على هيئة غبار .

يذكر سفر موسى ان الذهب يستخرج من مكان قريب من نهر بيسون تماما كما في منطقة وادي بيشا بعسير حيث يرى كمال صليبي تشابها بين كلمة بيسون التوراتية وكلمة بيشا في بلاد عسير.

ويذكر سفر موسى ايضا ان الله امطر النار والكبريت فوق مدينتي سودوم وعمورة لقاء خطاياهما .

وهذا يعني وجود براكين بالقرب منهما . وثمة اجماع بين العلماء ان المدينتين المذكورتين تقعان في مكان ما قرب البحر الميت، لكن الواقع هو انه لا وجود للبراكين في منطقة البحر الميت ، بل هي موجودة، حسب تحقيق كمال صليبي ، في وادي دميس بمنطقة جيزان .

تهطل الامطار في عسير اكثر من اي مكان اخر في شبه الجزيرة العربية ، ويتراوح معدلها بين ٣٠٠ و ٦٠٠ مم في العام، وهناك خصائص اخرى كثيرة تتفق مع طبيعة عسير ، فالثلوج الكثيرة التي تحدث عنها النبي اشعيا والنبي ارميا تهطل بغزارة في جبال السراة في بلاد عسير . وتنبت في هضاب عسير انواع الحبوب وتكثر اشجار الرمان والزيتون والتين واللوز والكرمة ، وفي السهول المحاذية لساحل البحر الاحمر يكثر العديد من أنواع الخضار ، وقد وجد الجغرافي اليوناني سترابون ان عسل عسير من أفضل الانواع ، وتنتشر حول المناطق المزروعة المراعي التي تربى عليها قطعان الغنم والماعز وتسرح فيها الحمير والدواب والجمال..

ان الضب من الحيوانات التي حرمت التوراة اكلها ، ويعتقد كمال صليبي ان الكلمة المستخدمة في سفر موسى لهذا الحيوان المحرم اكله تنطبق على ضب الصحراء العربية ولا تنطبق على الضب الذي يعيش في جنوبي فلسطين .

يذكر الجغرافي اليوناني سترابون في سياق حديثه عن حملة القائد الروماني ايلوس جالوس الى جنوبي الجزيرة العربية ، ان الدجاج ليس معروفا لدى اهالي عسير . وفي هذا الصدد تجدر الاشارة الى ان قائمة الحيوانات التي يمكن او لا يجوز في تعاليم موسى تقديمها كأضاح لا تتضمن الدجاج ، علما ان الدجاج معروف في فلسطين منذ أقدم العصور .

---

* المقصود بـ « سفر موسى » الاسفار الخمسة الاولى من التوراة .

يعتقد كمال الصليبي انه اكتشف في القرآن الكريم ايضا وجود ادلة وقرائن على صحة نظريته بأن عسير وليس فلسطين البعيدة عنها قرابة الفي كيلو متر الى الشمال هي ارض التوراة .

ان الرسول العربي محمد (ﷺ) الذي عاش بين ٥٧٠ ــ و ٦٣٢م اراد احياء دين ابراهيم الخليل . ولقد تعرف محمد (ﷺ) على الديانة اليهودية وفق المأثور لدى يهود الحجاز الذين كان لهم كنيس في مكة انذاك . ويتحدث القرآن الكريم عن يهود يثرب (المدينة المنورة) . ويعتقد كمال الصليبي ان محمدا (ﷺ) قد تبنى بقايا المأثورات اليهودية الحجازية من يهود يثرب وغيرهم ، ويرى ان القرآن الكريم في سياق الحديث عن الاوائل والانبياء يسرد اسماء مواقع وبلدان حجازية في اشكال مثيرة للاهتمام : فاذا كانت التوراة تكتفي بذكر اسم جبل فان القرآن الكريم يذكر الجبل واسم الوادي التابع له او اسم المدينة او البلدة المجاورة له . فمثلا نادى الملاك علي موسى من بين الادغال في جبل حوريب . لكن حتى الان لم يستطع احد تحديد مكان هذا الجبل وجرت العادة على الظن بانه في مكان ما بجنوب سيناء .

أما القرآن الكريم (السور ٢٠ و ١٢ و ٧٩) فيحدد المكان في وادي طوى المبارك، وطوى اليوم هو اسم احدى القرى في عسير .

يرى الصليبي ان جبل حوريب التوراتي موجود في جبل هادي الذي هو جزء من سلسلة جبلية ساحلية منعزلة في عسير . ففي وادي البقرة المحاذي لذلك الجبل بالذات يوجد اليوم موقع اسمه حريب . يضاف الى ذلك ان التوراة (سفر موسى) تتحدث عن اسماء سبعة مواقع تبعد مسيرة احد عشر يوما عن جبل حوريب وهي : عربة ، صوف ، فران ، طوفل ، حازروت ، ديساهب ، لابان . وقد حقق كمال الصليبي ان تلك المواقع تبعد /٢٥٠٫٠/ كم عن جبل هادي بعسير ، وبالفعل تحتاج تلك المسافة الى مسيرة احد عشر يوما .

استنادا الى السورة /٢٨/ والسورة /٢٤/ من القرآن الكريم توقف موسى بعد خروجه من مصر في موقع اسمه الظل وقد عثر كمال صليبي على هذا الموقع في منطقة المدينة المنورة بالقرب من ينبع النحك .

مهما كان شأن التفسير المطروح للمأثورات الاسلامية عن اليهود فان بعض التفاصيل في الحياة الاسلامية في الحجاز تبدو وكأنها تشير الى ماض يهودي فأهالي الحجاز اليوم ينعتون اهالي عسير بكلمة (يهودنا) . وثمة عدد من القبائل الحجازية غير اليهودية ما تزال تعتقد حتى الان ان اجدادهم في الازمنة البعيدة كانوا يهودا . كما انهم ما زالوا على قناعة تامة بان ارض الانبياء التوراتيين موجودة في الحجاز .. وفي

الاحساء بالسعودية ما زال البدو هناك يزورون كهوفا ومغارات معينة على اساس انها منازل ابراهيم الخليل . كذلك تقول احدى المأثورات القبلية في غربي الجزيرة العربية ان اليهود كانوا يقطنون الجبال في الوقت الذي كان فيه العرب ينزلون في الصحراء ، وان اليهود هم أول من اهل الجمل ، وما زال اهالي ابها وخميس مشيط في جبال عسير يعتقدون حتى اليوم أن ابراهيم الخليل وموسى عليه السلام من مواليد عسير وانهم (اي اهالي ابها وخميس مشيط) كانوا بالاصل يهودا .

سبق للمستعرب والمؤرخ الهولندي واينهارت دوزي ان جمع ادلة كثيرة على الماضي اليهودي للحجاز وعسير في كتابه الذي صدر قبل ١٢٠ عامابعنوان «الاسرائيليون في مكة من ايام داود حتى القرن الخامس بعد الميلاد ». ونستخلص من كتابه هذا ان اليهود سكنوا الحجاز وعسير على الاقل منذ ايام داود .كما عثر على معلومات مفادها ان دولة عربية قامت بين مكة واليمن بين ١١٥ ق.م والقرن السادس الميلادي،وكانت تدين باليهودية ، وهي دولة حمير التي مقرها اليمن . والمعروف ان اخر ملكين من ملوك حمير كانا يدينان باليهودية ..

وخلافا لرأي كمال الصليبي يعتقد المؤرخ الهولندي دوزي ان الوجود اليهودي القديم في غربي الجزيرة العربية جاء نتيجة لهجرة يهودية الى الحجاز وعسير.

ثمة ادلة مادية على انه لا يوجد اجماع لدى اليهود بان فلسطين هي الوطن الاول لليهود . فالنصوص المكتشفة في جزيرة الفيلة في نهر النيل بمصر العليا تدل بان يهود مصر العليا لم يسمعوا قط بمعبد سليمان العظيم كما انهم عبدوا آلهة اخرى الى جانب يهوا .

ان الفلاشة الذين هاجروا من جنوبي الجزيرة الى الحبشة في الالف الاول قبل الميلاد على ما يظهر ، ويعتبرون انفسهم يهودا لم يعترف الحاخام الاكبر في القدس بيهوديتهم الا مؤخرا وذلك عندما هربوا من مجاعة افريقيا الى دولة اسرائيل .

وحتى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ كان يعيش في اليمن قرابة ٦٠ الف يهودي ، وهؤلاء لم ينسوا دينهم لكنهم نسوا تاريخ نشوئهم مثلما نسوا اللغة العبرية . وحتى الحاق عسير بالمملكة العربية السعودية في الثلاثينات من هذا القرن كان الاف من اليهود يعيشون في عسير.. وعلى الرغم من ان السعوديين قد اجبروهم على اعتناق الاسلام الا ان هؤلاء احتفظوا بعدد من عاداتهم وتقاليدهم ، وبخاصة في اللباس والطعام والسلوك ، فهم ، خلافاللمسلمين ، يسمحون لبناتهم بركوب الخيل . ولقد اثار « الطابع غير العربي بتاتا » في سلوك اهل عسير اهتمام الرحالة البريطاني وهاوي الاثار السير هاري سان جون فيلبي الذي جاب في جميع ارجاء الجزيرة العربية خلال

الثلاثينات ، ففي احدى مذكراته يتحدث عن نسوة بلا حجاب ، وعن راع يتنفس بموسيقى جبلية مطربة . يضاف الى ذلك ان الغرباء في عسير اليوم يستغربون وجود اسماء يهودية دارجة بين اهالي عسير مثل مناحيم وحبقوق ، وبعضهم لا يدرك انه يحمل اسما يهوديا . من الممكن ان تكون الظواهر اللغوية الغريبة وغيرها مجرد مصادفة ، ولكنها قد تكون قرائن تدعم نظرية كمال الصليبي ، فمثلا نوجد في جنوب الجزيرة العربية لهجات تحتوي على مفردات متصلة اتصالا وثيقا باللغة العبرية وهذا الامر يشير الى وجود عبري سابق في المناطق التي تسود فيها تلك اللهجات ».

جمع عالم اللسانيات الانكليزي ف.ل . بيستون ، من النصف الغربي من الجزيرة العربية من شمالها الى جنوبها ، اعدادا هائلة ومشتتة من النقوش الكتابية التي تتوزع في مجموعتين رئيسيتين ، الاولى تستخدم (ال) التعريف العربية والثانية تستخدم (ها) التعريف العبرية ، واستنتج بتحفظ وحذر « ان هذه الظاهرة تكفي للاعتقاد بوجود مجتمعين لغويين كانا متصلين بعضهما مع بعض جغرافيا ثم تمازجا . وفي كل الاحوال لابد ان نوعا من الفسيفساء اللغوية ساد جنوبي الجزيرة العربية . وقد لاحظ العلماء منذ عشرات السنين وجود كمية من المفردات العبرية في جميع اللغات الحبشية ». ترى هل مصدر تلك المفردات هو فلسطين التي تبعد عن الحبشة قرابة الفي كيلو متر او بالاحرى جنوب غربي الجزيرة العربية المجاورة للحبشة .

ومن الاثار اليهودية الاخرى في الحبشة التي تقع عبر قبالتها ، نرى نجاشي الحبشة وقياصرتها حتى هيلاسيلاسي ينعتون انفسهم بلقب « أسد يهوذا » وينسبون انفسهم الى سليمان ، وان شعار الخطوط الجوية الاثيوبية اليوم هو الاسد التوراتي. وقد فسر عالم الساميات الالماني **فولف ليسلاو** هذه الظاهرة في بحث نشره عام ١٩٦٢ في مجلة الاستشراق الالمانية ، فبين ان جماعات من سكان جنوب غربي الجزيرة العربية هاجروا الى الحبشة في الالف الاول قبل الميلاد ، وهذه هي الفترة التي تقوم عليها نظرية كمال الصليبي .

يفسر كمال الصليبي غياب الماضي التوراتي غيابا كاملا من ذاكرة يهود ما بعد السبي وأهل عسير باسباب لغوية ، ففي نحو ٥٠ ق.م كانت العبرية لغة شبه ميتة اذ حلت مكانها الارامية حتى مطلع الميلاد ، ثم جاءت العربية لتسود كليا . وعندما توقفت العبرية عن ان تكون لغة حية واجه اليهود مشكلة في قراءة النص التوراتي، ويتصور كمال الصليبي الامر كالتالي : كانت نصوص التوراة المتوارثة مليئة باسماء مواقع وبلدان لم تكن مألوفة لدى يهود اسرائيل لان تلك الاسماء كانت تخص مواقع وبلدان في غربي الجزيرة العربية ، وبعد ٥٠٠ ق.م تقلص عدد اليهود في غربي الجزيرة العربية تقلصا شديدا بحيث لم يبق منهم الا اقلية ضئيلة ، ويبدو انه لم يعد بين

صفوف هؤلاء علماء يتمكنون من مساعدة اخوانهم في الدين في فلسطين وبابل في فك طلاسم المواقع والبلدان وتصحيح لفظها لهم . يعتقد كمال الصليبي انعوامل سياسية ايضا فعلت فعلها في محو ذكريات اليهود بعسير ، ففي جنوب غربي الجزيرة العربية صعدت جماعات جديدة مثل المعينيين ، وفي ظل هؤلاء فقد اليهود تماسكهم وقد يمكن ان يكون وصولهم الى البلد الجديد فلسطين ومنثم صعودهم فيمابعد قد محا ذكرياتهم القديمة عن عسير .

تحقق لاسرة الاشمونيين في القرن الثاني قبل الميلاد ، بعد ثورة ناجحة على الحكم السلوقي ، الوصول الى فلسطين ، حتى الجزء الجنوبي من الجليل وفي هضاب شرقي الاردن . وفي ضوء هذه المكاسب التي دفع اليهود ثمنا غاليا لها قد يبدو ان التفكير بعسير صار مزعجا لهم ، فالارض الجديدة يجب ان تحل مكان القديمة وكل تشكيك في ملكية الوطن الجديد لم يعد مرغوبا فيه .

اذا اراد الصليبي أن تتعزز اسس نظريته فلا بد لعلماء التوراة ان يستعدوا للاجابة على سلسلة من الاسئلة . وعلى الرغم من ان المسائل الدينية في التوراة لن تتبدل لان المؤمن الديني سيان لديه اذا كانت الوصايا العشر قد نزلت على موسى في هذا المكان او ذاك ، ففي نهاية المطاف ستبقى التوراة توراة وسيان مكان نزولها ، هكذا يقول كمال الصليبي . غير انه من المؤكد ايضا ان هناك الكثير من الناس ممن يرون في نظريته عدوانا على هويتهم الدينية والاجتماعية او السياسية .

فاليهود شعب عربي ..! رئيس وزراء اسرائيل وملك المملكة العربية السعودية اخوة ، ارض الميعاد ليست فلسطين بل جزء من المملكة العربية السعودية ، تاريخ اسرائيل في فلسطين يتقلص حوالي الف عام ، كل هذه الامور لو صحت ستكون كابوسا على الاقل على اصحاب الخط المتصلب الذين لا يكتفون بتبرير جود الدولة الاسرائيلية بل والاحتلال الاسرائيلي لقطاع غزة والضفة الغربية بالاستناد الى التوراة . فاليهود المتعصبون لا يرون ان الله عقد حلفا مع شعب اسرائيل وحسب بل ومع ارض اسرائيل (اسرائيل الكبرى) . يضاف الى ذلك ان الليبراليين من الاسرائيليين شعروا بالارتباك نتيجة لنظرية كمال الصليبي فهم كانوا يبحثون في الخفاء عن تاكيد تاريخي قديم بقدر الامكان على استمرارية تاريخ بني اسرائيل ، فاذا استطاع علماء الاثار ان يعثروا على دليل اثري يؤكد وجود اسرائيل في فلسطين منذ ايام يشوع فان اسرائيل اليوم ستعتبره دليلا اضافيا على شرعية وجودها .

لكن حتى العرب المتصلبين قد يجدونفي في نظرية كمال الصليبي نوعا من الاساءة اليهم ، فالسورة (٢١) والسورة (٧١) في القران الكريم تعتبر ان فلسطين الارض التي جعلناها مباركة للناس اجمعين . ومنذ فتح المسلمين لفلسطين في القرن السابع الميلادي

صاروا يطالبون بفلسطين الجغرافية ، وصارت القدس ثالث الحرمين بين مكة والمدينة وذلك بسبب احداثها التوراتية بالذات ، والتي جاء كمال الصليبي الان لينقل مسرحها من القدس الى العربية السعودية .

غير ان المسيحيين هم اقل الاطراف انزعاجا من نظرية كمال الصليبي . فالنظرية لا تمس المسيح والعهد الجديد ، لاسيما وان المفسرين في السنوات الخمسين الاخيرة قد اشبعوهما دراسة . أما التوراة ككتاب فقد عززت مكانته نظرية كمال صليبي ولا بد ان العديد من أسماء المواقع والبلدان التي كانت مسرحا للاحداث التوراتية والتي لم يتمكن العلم من تحديد مكانها الجغرافي حتى الان ، اصبحت اماكنها معروفة بدقة اكثر بفضل هذه النظرية .

لكن ماذا في نظرية الصليبي من خروج عن المألوف ، هل الاكتشافات اللغوية (اسماء البلدان والمواقع التوراتية في خارطة عسير) واستنتاجات المراقب الحيادي مجرد مصادفات ولعب بالكلمات وخواطر جريئة . ان مثل هذه الامور لا تتبدى الا بعد المناقشة الجدية للنظرية . وحتى اذا تبين بان نظرية الصليبي لا تستند الى اسس صحيحة كليا او جزئيا ، فانه سيبقى له الفضل في وضع اشارة استفهام جديدة امام عدد من التفسيرات الدراجة للاحداث التوراتية .

كان حكم علماء الاثار التوراتية ممن قرأ الكتاب رافضا للنظرية ، وذلك مثل البروفيسور اوسفالد لوريتس الاستاذ في العهد القديم والعلوم الاوغاريتية في قسم اللاهوت الكاثوليكي بجامعة مونستر بالمانيا الاتحادية منذ ١٩٦٧ . فهو من المختصين في الدراسات الاوغاريتية ، واوغاريت موقع اثري في شمالي سورية وقد تم العثور فيه منذ ١٩٢٩ على نصوص مسمارية سومرية واكادية وحورية واوغاريتية . وحكم البروفيسور لوريتس على نظرية الصليبي هو التالي :

ان عملية نقل احداث التوراة الى مسرح عسير تهمل الادلة غير التوراتية التي يؤكد جزء منها على ان فلسطين الحالية هي نفسها فلسطين يشوع وسليمان ، وبالتالي لابد ان تكون ارض كنعان في منطقة فلسطين الحالية وذلك وفقا للوثائق الاوغاريتية والفنيقية والاشورية والبابلية والمصرية ، والا لن يكون لتلك الوثائق اي مغزى . كما ان منهج كمال صليبي في البحث عن الاسم البلداني العربي المناسب للاسم البلداني التوراتي يستند كليا الى لعب قسري باللغتين العربية والعبرية ، ولا يظهر الا عملية لعب بالكلمات . وعلى اساس مثل هذا المنهج يمكن لاي انسان ان يبرهن على وجود فلسطين في اي بقعة يختارها من بقاع العالم العربي ، كذلك يكرر الصليبي على الطريقة العربية الفرضية القديمة المتعلقة بهجرة اسرائيل الى كنعان ، فهو ينقل الهجرة الى الجزيرة العربية ويفعل ذلك وفق الطريقة المتميزة في التفكير العربي ، اذا يهمل نتائج

التحريات العلمية الحديثة اهمالا تاما . تلك التحريات التي اقرت بنشوء اسرائيل في ارض كنعان .

وممن يقفون موقف الرافض من نظرية صليبي في الجانب البروتستانتي نذكر البروفيسور فولكمار فريتس ، استاذ العهد القديم والاثار التوراتية والمنقب في عدد من التنقيبات الاثرية في اسرائيل ، وهو يقوم منذ ١٩٨٢ بالتنقيب الاثري في تل العريمي (كينيريت التوراتية) قرب بحيرة طبرية . وعلى الرغم من ان البروفيسور فريتس يعترف بان نتائج التحريات الاثرية في فلسطين ضحلة فيما يتصل بالفترة الواقعة بين ١٥٠٠ — ٥٠٠ ق.م ، لكن اذا جمعنا المأثورات والوثائق غير التوراتية معما تم اكتشافه حتى الان نجد ان الحصيلة تؤيد فلسطين اكثر مما تؤيد لعبة الصليبي بالالفاظ بالقياس الى عسير . فقد تحقق مثلا وجود قرابة ثلث الاسماء البلدانية الوارد ذكرها، وسدس اخر نجد الدليل علىصحة موقعه في فلسطين في مصادر غير توراتية ، مثل النصوص المصرية من الالف الثاني قبل الميلاد . ويخلص البروفيسور فريتس الى النتيجة التالية :

اذا اراد اي زميل لنا ان يتصدى للتاريخ باجمعه وان يقلب الاراء المتعارف عليها رأسا على عقب فلابد له ان يتقدم بحجج ممتازة ، وعليه أن يبرهن بانه على حق . وما من شك ان المادة التييطرحهاالصليبي طريفة للغاية الا انها لا تحمل النظرية التيتقوم عليها . فهو يهمل الادلة التاريخية والجغرافية والاثرية.

لذلك لا غرابة اذا كان الاختصاصيون الاسرائيليون قد نظروا الى نظرية الصليبي نظرة شك منذ البداية وقبل ان يقرأوا كتابه . فالبروفيسور **ابراهام مالامات** ، استاذ التاريخ التوراتي في الجامعة العبرية بالقدس يعتبرها « فكرة متمادية » وخرقاء .أما **موشيه كوحاوي وداڤيد اوسيشكين** ، وهما عالما اثار مرموقان في جامعة تل ابيب ، فيعتبرانها « طائشة » و « مضحكة » و « سياسية الغرض من الفها الى يائها » .

يقوم كوحاوي بالتنقيب الاثري في موقع آفق / انتيباتريس منذ ١٩٧٢ ، واوسيشكين في موقع لاخيش منذ ١٩٧٣ . وهما لا يعترضان على احتمال الوجود اليهودي في عسير قديما لكن ذلك الوجود ، برأيهما ، جاء نتيجة لهجرة يهودية من فلسطين الى هناك ، وذلك في اعقاب الفتح الاشوري والبابلي لفلسطين بين القرن التاسع والقرن السادس قبل الميلاد.

ان الوحيد الذي ابدى موقفا ايجابيا من نظرية الصليبي عندما سئل ، هو عالم الاثار التوراتية البريطاني جون جيبسون ، فهو يعترف بان اجزاء من كتاب صليبي قد « سلبت الباية » . غير ان علماء اللسانيات تناولوا النظرية بالنقد ايضا

فالبروفيسور فيرنر ديم ، استاذ فقه اللغةالعربية في جامعة كولونيا بالمانيا الاتحادية يرى بان صليبي يفتقر كليا الى المنهجية في معالجته للامور ، وطريقتهفي التوفيق اللفظي بين الاسماء العربية والاسماء العبرية ضرب من ضروب الهوى والغي، كما ان الريبة تكتنف كل حلقة في سلسلة البراهين التي يسوقها .

اما البروفيسور يوشع بلاو ، استاذ الساميات في الجامعة العبرية بالقدس، ومن المع الاختصاصيين في هذا المجال ، فانه لا يريد ان يدلي بحكمه على النظرية الا بعد ان تكون الاسماء قد صنفت تصنيفا دقيقا وفق توافق مقارناتها وتم تقييمها تقييما احصائيا ، عندئذ سنرى ما اذا كانت ستصمد من الناحية اللسانية .

غير ان استاذ الفقه العربي والتاريخ الاسلامي في جامعة هامبورغ البروفيسور البريشت نوت يقف موقفا اقل تحفظا من غيره من نظرية الصليبي ، اذ يقول : فعلا ثمة اسماء بلدانية كثيرة العدد في عسير تكشف عن وجود قرابة ظاهرة مع اسماء بلدانية في اماكن مختلفة من صفحات العهد القديم ، كما ان عملية الصليبي المعقدة للتوفيق بين المجموعتين العسيرية والتوراتية مقبول عادة من الناحية اللسانية ومن ناحية تاريخ اللغات ، لاسيما وانه قد تبين عدم صحة الحجة المضادة بانه من الممكن اكتشاف تشابه بين الاسماء البلدانية التوراتية من جهة وبين اسماء بلدانية في اي بلد عربي من جهة ثانية .لذلك فانه من المحتمل جدا الافتراض بوجود علاقة (مهما كان نوعها) بين الاسماء البلدانية التوراتية والعسيرية .. وسيكون من واجب الباحثين في المستقبل تفسير اسباب ذلك التشابه في الاسماء . ويرشدنا البروفيسور نوت الى الطريقة التالية : من الممكن التفكير مثلا بوجود بقايا صور عسيرية تسللت الى التراث التوراتي عن طريق فئة او طبقة معينة من الاسرائيليين المتأخرين الذين كانوا يشكلون خليطا غير متجانس ، ومع هذا قد تظهر معادلات تأويلية اخرى لا تخطر على بال او على خاطر .

اكد البروفسور أوتو ياسترو ، استاذ الساميات وفقه اللغة العربية في جامعة ارلانغن بالمانيا الاتحادية على ان اكتشافات الصليبي للاسماء البلدانية تستحق الدراسة والبحث ، فهو ايضا يرى ان التشابه اللفظي الموجود بين الاسماء البلدانية العسيرية والتوراتية العبرية واضح بشكل كاف ومنتظم بحيث يبدو التوافق بينهما محتملا جدا .

غير ان الاسماء البلدانية العسيرية ليست عبرية بل تحتفظ ، مع تعديل طفيف، بشكل لفظي سامي اقدم عهدا من العبرية ، وهي من الناحية اللغوية اقدم عهدا من الاسماء التوراتية ، لذلك فانه يجوز لنا الاعتقاد بان العبرانيين قد جلبوا تلك الاسماء البلدانية كجزء من تراثهم اللغوي من عسير الى فلسطين ، ثم شهدت تلك الاسماء التطور الذي شهدته العبرية ..

غير ان المستبعد في الامر ان تكون الاسماء البلدانية الحالية في عسير لفظا عربيا للاسماء التوراتية ، اي ان تكون تلك الاسماء قد وصلت الى عسير من فلسطين ، لان

الصيغة اللغوية الاحدث عهدا لا يمكن ان تتحول الى صيغة اقدم عهـدا . واذا قيض لاسماء بلدانية الثبات في غير مكانها الاصلي فانه لا يمكن ان يحدث ذلك الابانتقالها من عسير الى فلسطين ولعل ذلك تم بوساطة يهود عسير الذين اسسوا مواطن لهم في فلسطين واطلقوا اسماء مواطنهم السابقة على مواطنهم الجديدة من باب الاحتفاظ بذكريات الوطن الاصلي . وان مثل هذا الافتراض يتفق مع نظرية الصليبي والقائلة بان يهودا من عسير هاجروا في حوالي /١٠٠٠/ ق.م باتجاه الشمال واستقروا في فلسطين .

وثمة مشكلة لغوية اخرى في نظريـة الصليبي لم تجد لها حـلا حتى الان . فاذا كانت الاحداث التوراتية بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠ ق.م قد جرت في عسير السعودية فلابد ان تكون اللغة العبرية دارجـة هناك ، الى جانب مـا يسمى باللغـات الحجازية . وفي حين يعتقد الصليبي بذلك نجد البروفيسور ياسترو يفترض بان الاشكال البدائية للعبرية التوراتية كانت دارجة في عسير في كل الاحوال ، وبعد ذلك بعـدة قرون جرى تدوين الاحداث التوراتية باللغة العبرية التوراتية المتاخرة ، غير ان ما يبدو اكيدا في تحليل البروفيسـور ياسترو ان الصورة العلمية اللغوية لذلك الزمان وان كانت معالم حدودها غير واضحة جدا ، لا تتعارض مع نظرية الصليبي .

لعل علماء اللغات من اشد الذين يشقون الطريق لنظرية الصليبي فهم ، خلافا لعلماء اللاهوت ، يتحررون في غالبيتهم من مشاق التغلب على الاحكام المسبقة مـن الناحيتين الدينية والقومية .

وثمة عقبة اخرى تعترض طريق الاكثرية من علماء التوراة وهي عدم درايتهم دراية كافية باللغات القديمة فالغالبية منهم تعرف اللغة العبرية ويدعون انهم متمكنون منها ، كما يقول الاستاذ لوريتس .

يتوقع كمال صليبي بان يعاني زملاؤه من حدود امكاناتهم مثلما يعاني من حدود امكاناته ، ففي البدء سيحاول هؤلاء ، والكـلام للصليبي ، تجاهـل نظريتي بكل بساطة ، واذا لم يتحقق لهم ذلك فسيحاولون السخرية منها ، واذا لم يتحقق لهـم ذلك ايضا فانهم سيناقشوها ، وهذا ما ارمي اليه .

لا نعرف بعد نتائج مثل تلك المناقشة طالما ان علماء اللغات وعلماء الاثار لم يقوموا بتحريات واسعة في عسير. وحتى عالم الاثار التوراتي فريتس الذي يتخذ موقف المتشكك من النظرية ، يعترف بانه قد يوجد في عسير اثار لم تكتشف حتى الان والتي قد تكون ذات دلالة للتاريخ التوراتي . وقد نسخر الان من نظرية الصليبي ولكن قـد نضطر جميعا الى الحج الى عسير بعد عشرين سنة .

مؤتمرات تاريخية

المؤتمر الدولي الثالث والثلاثون لعلماء الآشوريات

انعقد في باريس ، في الفترة بين ٧ و ١٠ تموز ١٩٨٦ ، المؤتمر الدولي الثالث والثلاثون لعلماء الاشوريات حول ((المراة في الشرق الاوسط في العصور القديمة)) شارك فيه اكثر من مائتي باحث وباحثة ، والقي فيه خمسة وثلاثون بحثا تناولت تاريخ المراة في شرقنا العربي وما جاوره من بلدان، من خلال الوثائق المسمارية فحسب. وهذه البحوث التي كتبت بلغات باحثيها ، وهي الفرنسية والانكليزية والالمانية ، ستنشر في باريس خلال عامين باشراف مركز الابحاث والدراسات الشرقية الفرنسية.

ومما تجدر الاشارة اليه غياب العرب التام عن مثل هذه المؤتمرات العلمية التي تبحث في تاريخنا القديم .. وقد ساهمت جامعة دمشق مشكورة في جزء من نفقات سفري للمشاركة في هذا المؤتمر ببحث عن المراة في مملكة يمحاض (حلب) في القرن الثامن عشر .

ولعل عرضا سريعا للبحوث التي القيت في المؤتمر يحفزنا على بذل المزيد من اجل مشاركة المتخصصن العرب فيه ، وفي المؤتمرات الاخرى المماثلة ، بل الدعوة لعقدها في بلادنا ، لان علم الاشوريات علم يبحث في تاريخنا القديم اولا واخرا ، فحري بنا ان نكون من اوائل المشاركين في ابحاثه لان من يكتب التاريخ هو الذي يمتلكه ، ونحن للاسف لم نكتب تاريخنا القديم الذي يمتد الى خمسة الاف عام ، وقد آن الاوان لدخول هذا الميدان الذي يسيطر على قسم كبير منه متخصصون توراتيون وصهاينة متعصبون ، اشبعوا هذا التاريخ دراسة وتمحيصا ومقارنة مع توراتهم بقصد امتلاكه ونسبته اليهم ، كورثة لكل التراث القديم .

فهل يتنبه العرب الى هذه المعركة الصامتة والخطيرة ..

١ ـ باولين البندا Pauline Albenda

صور للنساء والاطفال والعائلة في الفن الاشوري .

٢ ـ بينهاس ارتسي Pinhaz Artzi

الزواج السياسي واثره على العلاقات الدولية في عصر تل العمارنة.

٣ ـ جوليا م. اشر ـغريف Julia M. Asher - Greve

الكاهنة والحلم . وهو دراسة في اختام السلالات الاكادية الاولى ، حيث تظهر مشاهد هامة ذات دلالة دينية . وتفسر هذه المشاهد على انها احلام مثلت على تلك الاختام ، يصور احدها امرأة ، يعتقد انها كاهنة أو الهة ، مضطجعة على سرير وبجانبها ذكرين واثنى .

٤ ـ ن.ب. جان كوفسكا : E.K. Astakhishvili, N.B. Jankovska

الملكة والكاهنة ، دراسة مقارنة للمرتبة الاكادية « ملكة وكاهنة» في نصوص مدينة نوزي وفي المعطيات الدينية في العصور الباكرة . . في المناطق المجاورة لمنطقة الرافدين السفلى .

٥ ـ زفريدا بن برك Zafrira Ben Barak

الملكة الزوجة والصراع على خلافة العرش . ويدور البحث حول محاولات الملكة الزوجة وام وريث العرش للاستئثار بالسلطة وحكم المملكة من قبلها مباشرة . الامثلة مستمدة من الممالك القديمة على الشاطىء السوري .

٦ ـ اليزابيت كارتر Elisabeth Carter

استعراض لاخر نتائج التنقيبات في موقع مدينة لاجاش جنوبي العراق .

٧ ـ دومينيك شاربن Dominique Charpin

شوبات انليل وبلاد ابوم . يتحدث الباحث عن اخر حفريات تل ليلان في شمال سورية ، ومحاولة ايجاد موقع شوبات انليل التي كانت عاصمة لشمشي ادد الاول مؤسس الدولة الاشورية الامورية . وهويعتقد استنادا الى ان اسم شوبات انليل كان شيخنا في نصوص تل براك . ان تل ليلان التي تجري فيه الان حفريات اميركية هو المرشح لان يكون شوبات انليل القديمة وعاصمة دولة آشور الاولى .

٨ ـ دوغلاس فراين Douglas Frayne

وراد ـ سين وعرش نانا . وهو دراسة لنصين وجدا في مدينة اور ، يصفان عرش الالهة نانا . واهمية ذلك تعود الى امكانية مقارنته مع وصف العروش الملكية التي وجدت في نصوص اخرى .

٩ ـ بيلو فرانزارولي Pelio Fronzaroli

بحث في تركيب اسماء العلم المؤنثة في نصوص ابلا . وهي دراسة لغوية مقارنة للاسماء المؤنثة التي نشرت حتى الان في نصوص ابلا .

١٠ ـ اندريو جورج Andrew George

ختم الحظ والقدر • دراسة عن طبعة لختم يعتقد بانه مصنوع من قبل سنحريب بعد مقارنته بكتابة جديدة لهذا الاخير •

١١ ـ يوحنا غرين فيلد Jonas C. Greenfield

اسماء نساء ، عرفن من خلال نصوص ادبية متأخرة • والبحث يحاول القاء الضوء على اسماء النساء التي وجدت في نصوص العصر البابلي الحديث والنصوص الارامية ، وهي الفترة المواكبة لكتابة التوراة والاسماء التي وردت فيها •

١٢ ـ م• هيلتزا M. Heltzer

شكنتو الاشورية وسكنت التوراتية • محاولة لا تخلو من الحقيقة وهي تقريب لقب شكنتو الاشورية وسكنت العبرية وساكنة العربية • وهي وظيفة امرأة في بلاط الاشوريين يحاول الباحث هنا تشبيهها بوظيفة أبيشاح الشونمية ، تلك الفتاة التي كانت تؤانس الملك داود عندما شاخ وطعن في السن وتضطجع في حجره ليدفأ، (سفر الملوك الثالث ـ الفصل الاول ١ـ٥) • والمقارنة هنا مع المصدر الاكادي /شكن/ والذي يقابله بالعبرية والعربية (سكن) اما شكنتو Sakintu الاكادية ، فهي لقب محدد لوظيفة امرأة في البلاد الاشورية تتولى شؤون الحريم وذات نفوذ لا يستهان به • والمحاولة هنا بقصد تقريب التوراة من التاريخ الاشوري وبالتالي الظهور بمظهر المتملك لهذا التاريخ •

١٣ ـ فرانسيس جوانس Francis Joannes

الزواج للمرة الثانية في العصر البابلي الحديث • موشذب ـ بل من نسل (ابا ايلوتا باني) ، وهو من اعيان مدينة بورسيبا ، كان هذا الرجل متزوجا من « خبيست » ارملة اخيه البكر واسمه ادين ـنبي ، وتزوج بعد موت زوجته من ابنة اخ او اخت بالمصاهرة•.

ان مواجهة مثل هذا الزواج العائلي في المحفوظات المسمارية العائلية تدل بوضوح على مخطط عائلي كي لا تبدد الاسرة ثروتها وممتلكاتها • والباحث يقدم نصوصا جديدة تدعم بحثه •

١٤ ـ ج•ب جوزيفوف J.B. Jusifov

المرأة في الفن الاذربيجاني القديم • ظهر ، بعد سقوط السلالة الاخمينية في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، ما يسمى البانيا القوقازية ،التي تميزت بحضارة متطورة ونظام نقدي واقتصادي هام • ظهر في تلك البلاد بعد التنقيبات الاثرية الكثير من التماثيل الصغيرة بهيئة امرأة يعتقد بانها الهة الخصب • بالرغم من ظهور

المسيحية ثم الاسلام فان تلك العبادة لم تختف تماما .

١٥ ـ جاكوب كلاين Jacob Klein

ولادة ولي العهد في المعبد رواية الادب السومري ـ في عصره الجديد ((الانبعاث السومري)) .

تروي النصوص السومرية الادبية الدينية ان شولجي الملك السومري ولد بمعجزة في المعبد والمشكلة المطروحة هي في تفسير النص ، فهل يعني النص السومري ولادته بتدخل الهي ، أم انساني . .والبحث يقدم لنا وجهة نظر المؤلف .

١٦ ـ صموئيل نواه كرامر Samuel Noah kramer

المراة في الشرق القديم من خلال الادب السومري . وهو بحث القصد منه تكوين فكرة عامة عن موقع الام ، والبنت والاخت والزوجة ، والعذراء البتول في الادب ، وبالتالي المجتمع .

١٧ ـ برتراند لافون Bertrand Lafont

بنات زمري ـ ليم ملك ماري او سياسته في الزواج . دراسة لاحدى عشرة بنت للملك زمري ـ ليم ملك ماري .. والباحث هنا يستعرض وثائق جديدة غير منشورة توضح اكثر وأكثر سياسة زمري ليم في تزويج بناته الى نوابه في المناطق والمقاطعات وفق سياسة مرسومة للسيطرة على البلاد .

١٨ ـ ماريا هيلينا لوبس . Maria Helena Lopes

دور المراة في مصر القديمة . والبحث دراسة الاوضاع المراة من خلال الاسطورة والملحمة والصلوات المصرية القديمة .

١٩ ـ بيوتر ميشالوفسكي Piotr Michalowski

الاميرات والسلطة والسياسة .وهو استعراض للزيجات السياسية في عصر اور الثالثة او عصر النهوض السومري . ويبرز الباحث أهم زيجتين لاميرتين اصبحتا ملكتين لمدينتي سيمانوم وخمازي.

٢٠ ـ هـ . نويمان H. Neumann

ملاحظات حول موقع المراة الاجتماعي والحقوقي في العصر السومري الجديد .
تعتمد هذه الدراسة بشكل خاص على قانون اورنامو في نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد.

٢١ ـ السندرا نيبي Alessandra Nibbi

السيدة خطيبا Hatiba **سيدة آلاشيا** Alashiya **في حكاية المراة المصرية .**
البحث يدور حول قصة مصرية عن امراة تدعى خطيبا قامت برحلة في المنطقة .. والباحث يقترح تحديد هوية المناطق والمدن المذكورة في الرواية المصرية .

٢٢ ــ مارفن هـ . بوب Marvin H. Pope

القدرة الخارقة (فوق الطبيعة) للدور البطولي الانثوي في اناشيد الملك سليمان في التوراة . هذه الاناشيد المنسوبة الى الملك سليمان والتي لا علاقة لها به ولا بعصره ربما كانت مستمدة من اناشيد اكثر قدما .

٢٣ ــ اديت بورادا Edith Porada

المذكر والمؤنث في الايقونات الايرانية القديمة.

٢٤ ــ جان بوفل Jaan Puhvel

خلف وولد باللغة الحثية . وهو بحث لغوي مقارن حول معنى هاتين الكلمتين وصلتهما بالفعلين ذاتهما في الاغريقية واللاتينية .

٢٥ ــ جوليان رد Julian Reade

سنحريب والمراة . هنالك وثائق منشورة وغير منشورة تدل على ان لهذا الملك موقف تعاوني خاص تجاه المراة .

٢٦ ــ غرد شتاينر Gerd Steiner

المراة المغوية في الشرق القديم ، وهي من المظاهر التي اغنت الادب القديم . وهناك المراة المتزوجة والغانية والكاهنة ، ولكل منهن غوايتهن .

٢٧ ــ فلاديمير س . تومان Vladimir S. Tuman

ثلاث كدور Kudurru **مكاييل اكادية في متحف اللوفر، وعيد المنقلب الصيفي .** دراسة حول تحديد عيد المنقلب الصيفي من خلال تقدير أعمار تلك المكاييل .

٢٨ ــ كلاوس فيلك Klaus Wilcke

شقيقة الزوج . ان الادب السوري منذ العصور المبكرة يبرز مكانة شقيقة الزوج . وتظهر لشقيقة انليل أهمية خاصة في الزواج .

٢٩ ــ اليزابت وليامس Elizabeth williams

بعض الملاحظات حول طبقات الاختام من عصر ماري ، ومحاولة لدراسة صورة الالهة المؤنثة عليها كفن سوري قديم .

٣٠ ــ ارين ج.ونتر Irene J. wenter

المراة في الحياة العامة . يظهر دور المراة ككاهنة كبرى منذ السلالات الاولى ، وفي العصر الاكادي تظهر لنا شقيقة صارغون ككاهنة . وبصورة عامة كانت مكانة المراة ضعيفة في الحياة العامة .

٣١ ــ يوهنغ يو Yuhong wu

كتابة مسمارية منسوخة عن الختم الاسطواني لقورش . دراسة مقارنة بين تلك الكتابة التي وجدت عام ١٩٨٣ منقوشة على عظمة حصان . والكتابة الاصلية الموجودة في المتحف البريطاني.

٣٢ ــ مينا زوغرافو Mina zografou

اشارات تدل على وجود مجتمع نساء (فقط) في الشرق القديم . محاولة لاثبات وجود مؤسسات نسائية تعيش مستقلة عن المجتمع المختلط . وهذه الدراسة لا تمتلك مستندا مباشرا ، وانما دلائل غير مباشرة وغير أكيدة من الملاحم الادبية والدينية .

٣٣ ــ مارك جيلر Mark geller

« ارادت ليلي » امراة مغوية . بعض النقاش حول تلك المراة التي تحدثت عنها النصوص السومرية .

٣٤ ــ دورينغ كاسبر E.C.L. During Caspers

الحصان المقرن في وادي الهندوس . تهدف الدراسة الى اثبات ان الاختام على شكل حصان مقرن لها اصل من بلاد الرافدين .

٣٥ ــ فيصل عبد الله

المراة في المملكة الحلبية/اليمحاضية في القرن ١٨ ق.م . يبرز البحث الدور الهام الذي لعبته المراة الحلبية في السلطة ،وكذلك عادات ومراسيم الزواج ، واهمية الزواج السياسي مع امثلة على ذلك (نشرنا ترجمة البحث في هذا العدد).

د. فيصل عبدالله

الهجرة الجزائرية إلى بلاد الشام في مطلع القرن العشرين (١٩٠٩ - ١٩١١)

نادیا طرشون

مرشحة للماجستير

اختلفت الهجرة الجزائرية التي حدثت في مطلع القرن العشريـن (١٩٠٠-١٩١١) الى بلاد الشام في بعض اوجهها ، عن الهجرات السابقة التي حدثت على امتداد النصف الثاني من القرن التاسع عشر واشتدت في نهايته .

صاحب الهجرة هذه المرة مظاهر جديدة ، تمثلت اولا في الاهتمام الذي اولتـه الصحافة الفرنسية ، سواء تلك الصادرة في باريس او الصادرة في الجزائر ، وعلى رأسها صحيفةLe Tempsالباريسية فقد كتبت هـذه الصحف عن ظاهـرة الهجرة الجزائرية التي دفعت بالاهالي المسلمين الى التخلي عن بلادهم والبحث عن ملجأ لهم في بلاد اسلامية اخرى .

وابدى الكثير من الكتاب والصحفيين الفرنسيين ذوي الاقلام الحرة اسفهـم على الوضع الذي آلت اليه مستعمرة الجزائر ، فكثرت المقالات في الصحف والمجلات لتفسير وتحليل الاسباب التي دفعت بالاهالي الى اختيار الهجـرة ، واتجه هؤلاء الكتاب للكشف عن الحقائق وابرازها للرأي العام ، لان التقارير الرسمية التي تصدرها الحكومة لا تكشف عن الاسباب الحقيقية ولا تجرؤ على ذكرها ؛ وبذلك برزت لاول مرة انتقادات الصحافة الفرنسـية للسياسة والاسلوب المستبد الذي تنتهجه الحكومـة العامة بالجزائر لادارة شؤون الاهالي المسلمين ، فبينوا من خلال كتاباتهم ان اسبـاب الهجرة داخلية اكثر منها خارجيـة ، وذلك على عكس ما كانت تدعيـه الحكومـة في تقاريرها من ان السبب خارجي وليس داخليا .

والامر الجديد الثاني تمثل في ظهور صحافة محلية غير رسمية بدأت في الظهور مع مطلع القرن العشرين في انحاء مختلفة من الجزائر(١) . وهذه الصحافة ، وان كانت ناطقة باللغة الفرنسية ويديرها فرنسيون ، الا ان بعضها حمل لواء الدفاع عن حقوق الاهالي وتصدى لفضح اساليب بعض الموظفين الاداريين ونوابهم من الاهالي .

اما الاسباب الدافعة للهجرة فقد كانت استمرارا للاسباب السابقة ، وزادت عليها اسباب جديدة تمثلت في القوانين التي اصدرتها السلطات الاستعمارية في الجزائر في مطلع القرن العشرين ، ومنها قانون فصل الدين عن الدولة الذي اصدرته الحكومة الفرنسية بحق الدين الاسلامي في الجزائر سنة ١٩٠٧ ، وقانون التجنيد الاجباري الذي شرع في تطبيقه سنة ١٩١٠ . فقد اجبر هذان القانونان عند الشروع في تطبيقهما المئات من سكان المنطقة الغربية والوسطى وكذلك المنطقة الشرقية ، الى اعتبار الهجرة السبيل الوحيد الذي ينقذهم مما هم عليه ، مثلما انقذ الذين هاجروا في السابق . كما لعبت الدعاية لمشروع الجامعة الاسلامية والتي اشتدت في مطلع القرن العشرين ، دورا كبيرا في تأجيج الشعور بالاخوة والتضامن الاسلامي والالتفاف حول الخلافة العثمانية ردا على استفزازات الدول الاوربية الهادفة الى السيطرة على كل البلاد الاسلامية .

ولكن ، ونتيجة للاجراءات المتشددة التي اصبحت تمارسها السلطات الفرنسية على الحدود الجزائرية ــ التونسية والجزائرية ــ المغربية ، ومنع المسلمين الجزائريين من اداء فريضة الحج مدة اربع سنوات (١٨٩٨ ــ ١٩٠١) اي منع خروج جزائري مسلم من الجزائر ، توقفت ، او بعبارة اخرى قلت الهجرة الجزائرية الجماعية ، ولم تسجل السلطات الفرنسية في الجزائر ولا المراسلات القنصلية من دمشق وبيروت أي نزول لجماعات جزائرية في بلاد الشام حتى عام ١٩٠٩ .

قانون فصل الدين عن الدولة : La Loi de Separation

لم يبق الاهالي المسلمون في الجزائر مكتوفي الايدي تجاه القوانين والتنظيمات التي بدات السلطات الفرنسية على اصدارها بدعوى تنظيم احوال الجزائريين الاجتماعية والقانونية(٢) ، بل ابدوا معارضتهم ورفضهم لكل قانون يمس معتقداتهم وشخصيتهم الاسلامية بعد ان افقدتهم القوانين السابقة اراضيهم واملاكهم .

ويمكن القول ان اكثر القوانين التي اثارت حفيظة الاهالي في مطلع القرن العشرين كان القانون الخاص بفصل الدين عن الدولة ، الذي قررت الحكومة الفرنسية العمل به ابتداء من سنة ١٩٠٧ . والمعروف ان الاسلام لا يعرف فصلا بين الدولة والدين ولكن فرنسا قررت تطبيق قانون الفصل الذي تتبعه في فرنسا على المسلمين في

الجزائر . واهم ما تعرض له قانون الفصل هذا هو توقف السلطات الفرنسية في الجزائر عن اشتراكها في رعاية المساجد وبنائها .

ومعلوم ان السلطات الفرنسية استولت على كل الاملاك العامة بعد الاحتلال مباشرة ومن بينها الاوقاف التي كان المسلمون يخصصونها لصيانة الجوامع ومساعدة الفقراء وابناء السبيل ، ومنها ما كان مخصصا للحرمين الشريفين ، فالحقتها باملاك الدولة (٣) ، على ان تتحمل هي مسؤولية الجوامع والمساجد مثل الانفاق على بعض الاصلاحات وتعيين مرتبات للائمة وغير ذلك .. الا انه باستيلاء السلطات الاستعمارية على الاوقاف لم تعد هذه تعطي مردودها السابق وضعف شأنها لان الفرنسيين كانوا يؤجرونها مقابل فوائد بسيطة ، واصبحت الديانة الاسلامية تحتل مرتبة اقل من المرتبة التي تحتلها الديانة اليهودية والتي اصبحت تحت حماية الحكومة الفرنسية منذ عام ١٨٤٥(٤) .

وبقي الحال كذلك الى سنة ١٩٠٥ حين قررت الحكومة الفرنسية النظر في امكانية تطبيق قانون الفصل في الجزائر ، فعرض المشروع على التصويت في البرلمان الا انه لقي معارضة شديدة من طرف بعض النواب ، وبفضل تدخل من النائب البان روزيت تم تحاشي تطبيق القانون الفرنسي كلية في الجزائر .

ولكن المؤيدين لتطبيق قانون الفصل استمروا في حملتهم وعلى راسهم الحركة الماسونية الفرنسية ، فاعيدت المسألة للمناقشة في مجلس النواب سنة ١٩٠٧ وتقرر هذه المرة تطبيق القانون مع التزام الحكومة العامة بالجزائر بتقديم تعويضات مؤقتة خلال اربع سنوات « لرجال الدين المسلمين » والسماح من جهة اخرى باقامة رابطات دينية Associations Cultuels تكون مهمتها رعاية المساجد وتوزيع المرتبات والاشراف على المؤسسات الدينية عامة وتنظيم الاحتفالات في المناسبات وتعيين الائمة وغير ذلك .. ويكون مديرو هذه الجمعيات الدينية واداريوها من الفرنسيين ، ويمنع كل تجمع سياسي او خطبة تتعرض بسوء للسلطة الفرنسية(٥) .

وشيئا فشيئا وبعد التطبيق الفعلي للقانون وجدت الحكومة العامة في الجزائر زمام الامر يفلت من يدها وادركت انها ارتكبت خطأ عندما نزعت سلطتها عن المساجد والائمة في الجزائر . واعلم الحاكم العام « جونار » وزارة الداخلية الفرنسية بذلك ولاحظ .. ان المصلحة العليا لفرنسا في الجزائر تقتضي الاحتفاظ بسيطرة مباشرة على ممارسات وانشطة المؤسسات الدينية وهذه السلطة يجب ان تتمثل في حقنا في ممارسة التعيينات(٦) .

ومن سلبيات قانون الفصل هذا ان المساجد اصبحت عرضة للخطر اكثر من

اي وقت مضى اذ رفضت المجالس البلدية في كثير من المناطق الاصفاء لمطالب النواب المسلمين الخاصة بتقديم بعض المعونات واداء بعض الخدمات للمرافق الدينية ، فقد رفضت الحكومة العامة بعد عام ١٩٠٧ تسجيل قروض مالكة لصالح المؤسسات الدينية مما اثار غضب وسخط النواب المسلمين في المجالس المالية وطالبوا باعادة الاوقاف للمسلمين ، ولكن حكومة « جونار » رفضت الطلب وانتقدته بشدة .

واكثر ما كان يثير الادارة في الجزائر ويزيد من حقدها على الاهالي المسلمين مسالة الحج لذلك راحت تخلق لهم الاعذار لتمنعهم من تادية الفريضة ، ومنع الحج عام ١٨٩٨ لمدة اربعة سنوات تحت اعذار صحية مختلفة ومنها انتشار الاوبئة ، ثم سمحت به سنة ١٩٠١ و ١٩٠٢ ، ولكن المسلمين الجزائريين كانوا يشكون دوما من العراقيل التي تضعها الادارة الفرنسية امام منحهم جوازات السفر ومن سوء المعاملة التي يلقونها في السفن الفرنسية الحكومية والتي يحشرون فيها كقطعان الماشية، اذ كان يفرض على الحجاج ركوب السفن من الجزائر رغم ارتفاع سعر التذكرة (٣١٥ فرنك ذهاب واياب) في حين ان التذكرة نفسها تباع في تونس بسعر (١٥٠ فرنكا)(٧) . وعندما طالب النواب المسلمون في المجالس المالية ترك حرية الاختيار للحجاج لركوب السفن التي يشاؤون ، قوبل طلبهم بالرفض التام ، واعلن عن الغاء الحج في عام ١٩٠٣ وعام ١٩٠٤ . ولكن امام استمرار الخروج الخفي للراغبين في الحج عبر الطرق البرية ، وامام ازدياد الانتقادات من طرف بعض المسؤولين اضطرت السلطات لالغاء المنع وسمحت بالحج خلال سنوات (١٩٠٥ ، ١٩٠٦ و ١٩٠٧) ، ومنع الحج مجددا سنة ١٩٠٨ بسبب قيام الثورة في تركيا ، وسمح به سنة ١٩٠٩ ، وعادت الى منعه مرة اخرى خلال الاعوام (١٩١٠ ، ١٩١١ ، ١٩١٢) ، بدعوى الوضع الدولي المتوتر انذاك(٨) . وسمح بالحج سنة ١٩١٣ ، وصدر قانون سنة ١٩١٤ الذي سمح للمسلمين في الجزائر بأداء فريضة الحج بدون التزود برخصة ادارية (٩). وكانت هذه السياسة الفرنسية التعسفية تحمل العشرات من الحجاج الى الاقامة النهائية في الحجاز أو الهجرة الى بلاد الشام او مصر .

قانون التجنيد الاجباري : Le Service militaire obligatoire

لم يكن مشروع التجنيد الاجباري للمسلمين في الجزائر ـ والذي تقدم به النائب مسيمي سنة ١٩٠٧ اول مشروع من نوعه وضع للاستفادة من الطاقات البشرية في الجزائر ، بل سبقته عدة خطط ومشاريع وضعها جنرالات فرنسيون خلال القرن التاسع عشر .

فالاصداء الاولى للتجنيد الاجباري ترجع الى سنة ١٨٥٥ حين رفضت وزارة الدفاع الفرنسية فكرة استبدال التجنيد الاجباري بالتجنيد التطوعي الذي كان مطبقا

على فرق الاهالي . وجاءت الحرب البروسية ـ الفرنسية لتظهر مدى قوة واندفاع فرق القناصة الجزائرية ، فبرزت الى الاذهان مرة اخرى فكرة تشكيل جيش من المسلمين الجزائريين ، ولكنه لم يكن بامكان فرنسا المهزومة والضعيفة انذاك تحقيق المشروع . وتوالت الخطط والمشاريع وآلت في غالبيتها الى الفشل(١٠) . وكان الفرنسيون وخاصة المستوطنون في الجزائر يخشون من تشكيل جيش من المسلمين اذ ان هذا الجيش اذا ما تعرف على فنون القتال واتقنها قد يتحول الى عنصر خطر ضدهم ، لذلك كانوا يفضلون دوما الابقاء على نظام الارتزاق ..

ولكن جملة اسباب ومن بينها نقص في نسبة الولادة في فرنسا، والقانون العسكري الذي صدر سنة ١٩٠٥ ، ونص على تقليل مدة الخدمة العسكرية في فرنسا من مدة ثلاثة سنوات الى سنتين (وهو القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسية للتخفيف من الاعباء العسكرية على ابنائها ، ولتظهر لجيرانها الاوربيين مدى حبها للسلام) دفعت بالحكومة الفرنسية الى اعادة التفكير في الاستفادة من طاقات الشباب المسلمين في الجزائر وهذه المرة ليست بالزيادة في عدد الفرق المرتزقة ، وانما بفرض التجنيد الاجباري للحصول على جيش نظامي جزائري(١١) ؛ فتقدم النائب « ميسمي » مقرر الميزانية الحربية بمشروعه بعد أن تبين له ان تجنيد الشباب من الجزائر هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن ان تخرج فرنسا من المأزق ، وخاصة وان الاوضاع في اوربا كانت تسير نحو التأزم ، فكتب رسالة بتاريخ ٧ديسمبر عام ١٩٠٧ وجهها الى وزير الحربية يقترح عليه فيها :

- التخفيض من القوة الفرنسية في الجزائر .

- الزيادة بالمقابل في القوة العسكرية للاهالي .

- تنظيم الاحتياط منهم .

وشكلت لجنة للنظر في امكانية تطبيق المشروع جديا ، ودامت اعمالها من عام ١٩٠٧ الى عام ١٩٠٨ ، وعلى ضوء نتائجها اتخذ قرار فرض الجنيد الاجباري سنة ١٩١٢(١٢) . وعلى ضوء قرارات اللجنة بادرت السلطات الفرنسية في كل انحاء الجزائر الى احصاء الشباب المؤهلين للخدمة العسكرية سنة ١٩٠٩(١٣) ..

ويتوجب علينا في هذا الصدد ان نلقي نظرة على مضمون مشروع « ميسمي » وردود الفعل التي تنجت سواء في الاوساط الحكومية الفرنسية او في اوساط المستوطنين والاهالي المسلمين في الجزائر ، اضافة الى ردود الفعل التي سجلتها الصحف والمجلات .

يقول ميسيمي في مشروعه «ان رغبة فرنسا في السلام التي اظهرتها فعليا بالتخفيض من فعاليتها العسكرية ، لم تتبع من طرف جيرانها ، فايطاليا لم تعر المسألة اهتماما في حين ان المانيا تعمل جاهدة للزيادة من قواتها ونفقاتها العسكرية بنسب خطيرة . بما انه لا يمكننا التراجع عن قرار عام ١٩٠٥ الخاص بالمدة المحددة للخدمة العسكرية ، فان الحل الوحيد يكمن في تطبيق الخدمة العسكرية على الاهالي المسلمين في الجزائر». ويستطرد ميسيمي قائلا : ان القوة العسكرية الافريقية والقائمة على وضعها الحالي منذ نصف قرن لا تعرف الا التطوع لاجال طويلة ، ولنا في المستعمرة ١٦٠٠٠ قناص ومرتزق يخدمون منذ ١٠ او ١٥ سنة وتكاليفهم مرتفعة بصورة كبيرة (١٤) .

ويجري « ميسيمي » مقارنة بين ما تعطيه تونس وما تعطيه الجزائر من قوات عسكرية ، فالعطاء التونسي هو اكبر واحسن بكثير من العطاء الجزائري (رغم التفاوت الكبير في عدد السكان بين البلدين) ، والقوة التونسية رغم حداثة تأسيسها (منذ عشرين عاما) فان التجنيد فيها يتم بالقرعة ، والخدمة تدوم ثلاث سنوات ، ويمكن لتونس ان تمدنا في حالة السلام بقوة تعدادها ٧٠٠٠ جندي بسعر تكلفة منخفض جدا ، بالقياس مع الجندي الجزائري ، كما يمكنها ان تمدنا في حالة الحرب بين ٢٥ و ٣٠٠٠٠ جندي (١٥) .

اما عن ردود الفعل التي اثارها هذا المشروع فقد تميزت بالاختلاف والتعدد ، فالراي العام الجزائري ابدى معارضته الصريحة له ، وازدادت معارضته عندما شرعت السلطات الفرنسية في عمليات الاحصاء في مدينة الجزائر ووهران وقسنطينة . في حين ان النخبة الجزائرية والتي اصبحت تمثلها في هذه الفترة جماعة الشبان الجزائريين « les Jeunes Algériens » وجدت فيه فرصة لحصول الاهالي على بعض حقوقهم او تعويضات مقابل ضريبة . وكانت فعلا فرصة توفرت للاهالي للتعبير عن رغباتهم ومطالبهم في لوائح تقدموا بها للحكومة العامة بالجزائر ، وحتى للحكومة في باريس ، اذ توجهت لجنة من النخبة برئاسة « بوضربة » الى باريس تحمل جملة من مطالب الاهالي الى الحكومة الفرنسية وملخصها انه « يجب أن تقابل ضريبة الدعم على المسلمين في الجزائر بتعويضات حقيقية ، فالاهالي يطالبون بكامل حقوقهم السياسية او بحقهم في الهجرة حيث يشاؤون(١٦)» . واستقبلت اللجنة من طرف الرئيس الفرنسي كليمانصو ، ووافقت الحكومة مبدئيا على مشروع التجنيد مع منح الاهالي بعض الحقوق السياسية مثل حق التمثيل النيابي والانتخاب .

وبلغ الاسى باهالي (ندرومة) شمال تلمسان مبلغه اذ تبين لهم ان الفرنسيين يريدون ان يزجوا بهم في ميادين القتال لمحاربة اخوانهم المسلمين في المغرب الاقصى ، ومع رفضهم الكامل للمشروع قرر بعضهم الذهاب الى (طنجة) لطلب الحماية من الالمان ، في حين قرر اخرون ارسال لجنة الى الحكومة الفرنسية يراسها ابن رحال

لتطلب « اما سحب مشروع التجنيد الاجباري ؛ او منح تعويضات مقابل تطبيقه ، او توفير الحرية للاهالي للهجرة الى البلاد الاسلامية » .

وسادت في هذه الفترة وبهذه المناسبة مقولة مفادها انه لاول مرة يتفق الاهالي المسلمون والمستوطنون على أمر وهو معارضة الطرفين لمشروع التجنيد الاجباري . وفي حين ان الاهالي وجدوا في هذا المشروع خطرا علىعقيدتهم وكيانهم، فان المستوطنين الفرنسيين راوا فيه خطرا على مصالحهم ومكاسبهم ووجودهم كمستوطنين في الجزائر ، وابدوا تخوفهم الشديد مما يمكن ان يجره هذا الاجراء الجديد من مخاطر على امن المستعمر .

اما موقف البرلمان فقد تميز باختلاف الاراء وتضاربها ، فمن النواب من عارض مشروع القانون كلية(١٧) ومنهم من دافع عنه وابدى تحمسا لتطبيقه ، ومنهم من وقف موقفا وسطا مطالبا بمنح الاهالي حقوقا مقابل ذلك ومن بين هؤلاء النائب البان روزي Albin Rozet الذي طالب الحكومة بضرورة ادخال تغييرات على قانون الاهالي لصالح هؤلاء وذهب في انتقاداته الى درجة انه طالب الحكومة الفرنسية باعطاء اهتمام اكثر للمسلمين وللاسلام في الجزائر ومما قاله « . .ان العالم الاسلامي يشهد نهضة حقيقية . .باستثناء الجزائر التي بقيت خارج اطار هذه النهضة، والمستوطنون والادارة يعملون على الابقاء على جهل الاهالي الجزائريين وتخلفهم لاخضاعهم لسيطرتهم فيزداد بذلك الضغط على المسلم الجزائري ويتوقف او يمتنع عن اي تطور اجتماعي او ثقافي(١٨)» .

ومن الانتقادات التي وجهت لميسيمي حول مشرعه ، من طرف الكتاب والصحفيين ما جاء في مقال لـ« بيفيا» J.bevia « . . .ان ميسيمي ارتكب خطأ عندما قارن بين وضعية الجزائر ووضعية تونس ، فنحن في الجزائر نتعامل مع تابعين لنا وليس مع مواطنين ، اي تابعين يعملون في خدمة مسيحيين ، اما التونسي فهو يخضع لنظام يعمل بمقتضى القانون الاسلامي » ، وعن اقتراح ميسيميالتخفيض من عناصر القوات الفرنسية في افريقيا الشمالية ، فان «بيفيا» يرى في ذلك حرمان المستوطنين الفرنسيين والاوربيين من عناصر امنهم . ولاحظ انه لا يجب اهمال رأي المستوطن في مثل هذه الاجراءات، وهم اول متعرض للخطر (٨٩) .

وظهرت الى جانب مشروع ميسيمي في هذه الفترة. اتجاهات اخرى نبهت الى امكانية استعمال قوة سوداء من السنغال في الجزائر لتعوض النقص فيالقوات الفرنسية النظامية التي سيتم نقلها الى اوربا، ولكنها كانت خطة فاشلة .

كان النجاح حليف مشروع« ميسيمي »للتجنيد الاجباريللاهالي المسلمين في الجزائر اذ ان جملة ضغوط وظروف دولية تدفع بالحكومة الفرنسية الى اصدار قرار بتاريخ

٣ فبراير (شباط) ١٩١٢ ، يقضي بتطبيق التجنيد الاجباري ، فبالاضافة الى العامل الرئيسي وهو الانخفاض الذي طرأ على القوة العسكرية الفرنسية ، وجد الفرنسيون ان فرق القناصة الجزائرية لم تعد تجند بسهولة وهذا راجع الى عدة اسباب منها الازدهار الاقتصادي الجزائري ، والشروع في استغلال مواردها المنجمية، وتطور الخدمات العامة بها ، وكل ذلك يتطلب يدا عاملة ، وارتفعت الاجور بازدياد الطلب على اليد العاملة ، لذلك اصبح الكثير من الناس يفضلون هذه الاعمال المربحة على ان يلتحقوا بالخدمة العسكرية.

وهناك ضغط آخر يتمثل في الحملة الفرنسية على المغرب الاقصى ، ونظرا للضغوط والظروف الدولية الصعبة التي كانت تعيشها اوربا انذاك لم يكن من الممكن نقل قوات فرنسية كبيرة للقتال في المغرب الاقصى ، فكان لابد من اللجوء الى فرق من افريقيا الشمالية . فتم نقل حوالي الثلثين من القوات الجزائرية والتونسية الى المغرب الاقصى في حين كان الاحصاء متواصلا بهدف فرض التجنيد الاجباري(٢٠) .

وبمجرد الشروع في عمليات الاحصاء افتضح الامر لدى الاهالي ، واعلنوا عن عن رفضهم ، ولجأ الكثير من الناس الى اخفاء ابنائهم ، وتظاهر الناس في مدينة تلمسان في مظاهرة عارمة شارك فيها حوالي ٢٠٠٠ شخص ، وبسرعة قدم امام رئيس الدائرة ٣٢١ طلبا للحصول على جواز سفر للهجرة الى بلاد الشام ، وعادت الرغبة في الهجرة والدعاية لها في الظهور من جديد ، ودائما في مدينة تلمسان ، عمل المفتي « شلبي جلول » لتحريض الناس على الهجرة من خلال خطب الجمعة كرد فعل انتقامي على الاجراء الفرنسي الجديد الذي تحول الى الاستيلاء على الابناء بعد اخذ الارض والاملاك ، ونجح الشيخ في تسفير اثنين من ابنائه الى دمشق(٢١) .

وعبرت الطريقة الدرقاوية السائدة في تلمسان عن رفضها لعمليات الاحصاء بقصد تجنيد الشباب المسلمين ، ونشط مقدمان من الطريقة يدعيان « كزبور » و « الحاج محمد بن يلس » لدعوة الناس للهجرة الى بلاد الشام ، وتقدم المقدم الاول بطلب خمسين جواز سفر ، ولكن طلبه رفض ورغم ذلك خرج اولئك الدرقاويون على افواج في اتجاه دمشق ، ضم الفوج الاول ٧٥ شخصا وضم الفوج الثاني ٤٠ ، ثم تبعهم فوج من ٢٥ شخصا(٢٢)، وفي عام ١٩٠٨ تقدم الحاج « محمد بن يلس » بطلب عدد كبير من الجوازات ، ولما شعر بالخطر يتهدده عمد الى الفرار في سبتمبر عام ١٩١١ ولجأ الى دمشق(٢٣) .

- الهجرة الى بلاد الشام ١٩٠٩ - ١٩١٠ :

بعدما تعرضنا بشيء من التفصيل لاهم القوانين التي اصدرتها الحكومة الفرنسية

في مطلع القرن العشرين لتطبيقها على الاهالي المسلمين في الجزائر (قانون فصل الدين عن الدولة وقانون التجنيد الاجباري) الذين كانا السبب المباشر وراء هجرة الكثير من العائلات خاصة من منطقة تلمسان والوسط ، نتعرض الان لاول موجة هجرة سجلت في هذه الفترة ، ثم نلقي نظرة موجزة عن الاسباب الاخرى الكامنة وراء هجرة الاهالي الجديدة بما في ذلك الاسباب الداخلية والخارجية .

بدات موجات الهجرة الجديدة في الظهور في أواخر سنة ١٩٠٩ وبداية سنة ١٩١٠ في القطاع الشرقي من الجزائر وخاصة منطقتي قسنطينة وسطيف . ولم تسمح السلطات الاستعمارية بهذه الهجرة ، وانما حدثت خفية عبر حدود التونسية ــ والليبية ، رغم أنا لا نستطيع ان ننفي تماما علم السلطات المحلية في هاتين المنطقتين بهذه الهجرة ..

واول من أعلن عن هذه الهجرة من المسؤولين الفرنسيين السيد تريل « Treille » النائب السابق في مقاطعة قسنطينة ولم تتفطن السلطات المحلية للوضع الا من خلال حركة البيع النشطة والمستعجلة للاراضي وقطعان الماشية التي بدات تشهدها اسواق المنطقة(٢٤) . واخبر السيد « Treille »ان منطقة الهضاب العليا القسنطينية من عين البيضاء الى الحضنة تشهد موجة هجرة كثيفة بين الاهالي المسلمين باتجاه تركيا، وربط النائب الحادث مباشرة بالاجراءات التعسفية التي تنتهجها الادارة في معاملتها للاهالي(٢٥) .وانتقلت القضية مباشرة الى صفحات الجرائد المحلية والفرنسية وحتى التونسية ، في حين اتجهت الردود الحكومية الى التقليل من اهمية الحادث . ولكن الحكومة وتحت ضغوط مختلفة اضطرت الى التحقيق في المسالة فعينت الكاتب العام السيد Varnier على رأس لجنة توجهت الى الشرق الجزائري . استعرضت اللجنة في تقريرها الذي قدمته الى الحاكم العام عدة اسباب نذكر من بينها السبب التالي « فقد ظهرت مع مطلع عام ١٩٠٩ حملة جديدة تهدف الى تحريض الناس لبيع ممتلكاتهم والهجرة الى بلاد الشام ، وتزعم هذه الحملة مقدم من الطريقة الرحمانية يقيم بالقرب من عين تافروت وهو رجل دين ، وضع نفسه في خدمة مستوطن فرنسي لكي يتمكنا هما الاثنان من شراء قطع من الاراضي .وللوصول الى ذلك راح المقدم يثني في حملته على الجزائريين الذين هاجروا في السابق الى بلاد الشام ، ويعدد الفوائد المادية والمعنوية التي يجنيها المهاجر عند اقامته في سورية(٢٦) » ..

وكأي تقرير رسمي ذهب هذا التقرير كذلك في اتجاه ينفي اي مسؤولية مباشرة او غير مباشرة للسلطات الفرنسية في هذه الظاهرة ،وأكد السيد وارنيه مرة أخرى ان الاسباب هي خارجية اكثر منها داخلية ، موضحا أن اهم سبب يدفع بالاهالي المسلمين في الجزائر الى طلب اللجوء الى البلاد العثمانية انما هو الاهتمام الذي توليه الحكومة العثمانية للمهاجرين الجزائريين ، وفي ذلك ما يكفي من الاغراء ، اضافة الى

الحملات الصحفية التي تشنها صحف بيروت ودمشق ضد السياسة الفرنسية في الجزائـر .

ولكن مثل هذه التغطية والتمويه لم يعد يخفى على بعض الفرنسيين الذين راحوا يرفضون كل ادعاءات الحكومة وتفسيراتها لهذه الظاهرة . ونشط هـؤلاء للبحث والكشف عن الاسباب العميقة التي ادت الى تفشي هذا الوباء المعنوي الذي اضـر بالاهالي وسيلحق الضرر بمصلحة المستعمرة كلها ، ولعبت الصحافة المحلية الناطقـة باللغة الفرنسية والصحافة الفرنسية دورا كبيرا في هذا المجال .

ولا يسعنا هنا ان نتعرض لجميع اقوال الصحف في هذا الشأن وانما نكتفي ببعض النماذج . فبالنسبة للصحف التالية La democratie de Tebesse, L'Islam de bône Tunisien اتهمت صراحة قانون الانديجينا واخطاء الادارة الفرنسية والسياسة الاستعمارية بوقوفها بطريقة مباشرة او غير مباشرة وراء خروج الاهالي . اما صحيفة L' Essor d' Ain-beida فانها كشفت انه « في منطقة سطيف يضطر الكثير من الناس الى الهجرة بسبب نقص في الاراضي »، ولا حظت ان موجة الهجرة الجديدة تزامنت مع اقامة مراكز استيطانية فرنسية جديدة ، وبينت ان هناك دعاية للهجرة يقوم بها بعض الناس والتي يتساهل معها بعض رجال الادارة ويذهبون الى حد تغطيتها والتحريض لها . وارجعت « la Depêche Tunisienne » سبب الهجرة الى عمليات مصادرة الاراضي من الاهالي ومنحها للمستوطنين الجدد « .. وعندما تعطى للاهالي أراض غير اراضيهم فانها لاتساوي في شيء تلك التي صودرت منهم ، واذا ما عوض لهم عن ذلك بالاموال فان هذه الاموال سرعان ما تنضب .. »(٢٧) .

واهتمت صحيفة الاخبار L'Akhbar(٢٨) جديا بالمسألة وابرزت امورا كثيرة لم تجرؤ الصحافة الرسمية ولا الحكومة الكشف عنها وكتبت تقول « .. لم تكن كل الاثارات خارجية ففي بعض المراكز نلاحظ قيام رابطات حقيقية بين بعض المستوطنين وبعض رجال الطرق احدهما يدعو للهجرة والاخر يشتري اراضي واملاك المهاجرين . وقد هاجرت كل العائلات وساعدها في ذلك بعض الاوربيين الراغبين في الحصـول على الاراضي ، واقر بعض الموظفين هذه الدسائس ومنحوا جوازات سفر بدون تأشيرات من السلطات الولائية .. في حين استغل مستوطنون آخرون تجمعات الاهالي للقاح او اجراءات التجنيد وراحوا يبادروا الى الخروج .. » ولاحظت الصحيفة من جهة اخرى « .. اذا كان من واجبات الادارة استخدام رؤوس الاموال وافساح المجال امام مبادرات المستوطنين لتطوير المنطقة فلا يجب ان يحدث ذلك على حساب الاهالي.. » ودعت الرأي العام الفرنسي الى الاهتمام بالمسلمين ومساعدتهم على النهوض بانفسهم والتخفيف من الضرائب التي لا تفرق بين غني وفقير ..(٢٩).

ولم تشذ عن هذه القاعدة الا صحيفتا le Tell, la Depêche Algerienne فقد ارجعتا سبب الهجرة الى التعصب ، وذكرت هذه الاخيره « .. ان سبب هجرة اهالي سدارة بنواحي قسنطينة هو الرغبة الملحة لاداء فريضة الحج فهم يهاجرون الى بلاد الشام ليسهل عليهم اداء هذه الفريضة والتخلص من العراقيل التي تفرضها السلطات الفرنسية في الجزائر ، كما يدفعهم الى الهجرة رغبتهم في الحصول على اراض مجانا من الحكومة التركية ..»(٣٠) ..

اما صحيفة(الطان) الباريسية Le Temps فانها بعد ان عرضت بالتفصيل لاخبار الهجرة الجديدة التي شهدتها المنطقة الشرقية طالبت الحكومة بضرورة اعطاء اهتمام اكبر لمصالح الاهالي حتى لا يقعوا ضحية للدعاية القادمة من المشرق ، وحتى لا يقعوا كذلك فريسة لعمليات الابتزاز التي يقودها بعض الاوروبيين . اذ ان نسبة كبيرة من الملاكين فقدوا اراضيهم نتيجة عمليات ربوية .وختمت المقالة بالقول « .. علينا ان نجعل الجزائري يشعر بالراحة والاطمئنان في الجزائر اكثر من تركيا ، ولا يتطلب هذا الامر احداث تغييرات مادية فقط بل يجب غزو قلوب الاهالي ، بمعنى توفير وضعية مرضية لهم في المجتمع الجزائري الحديث»(٣١) .

وعبرت الادارة الفرنسية عن موقفها من خلال هذا المقال الذي نشرته الصحف الفرنسية ومما قالته « .. انا هنا امام حالة ليس فيها ما يخالف المالوف ، ففي كل المجتمعات تساهم الطبقات الفقيرة في حركة الهجرة بوحدات تفوق بكثير تلك التي نلاحظها في الجزائر ، ومع ذلك فالحكومة المستعمرة ابدت انشغالها بالوضع وعملت على استجلاء الاسباب التي ادت الى اشتداد الهجرة في هذه السنة وتبين ان هذه الاسباب تكمن كلها في الوضع الاقتصادي للاهالي(٣٢) . فاذا ما اخذنا دائرة «سطيف» كنموذج ، وهي التي شكلت الهجرة منها حوالي ثلاثة ارباع ، نجدانه قامت فيها مضاربة جنونية على الملكيات ، فبعض الاراضي غير المروية وصل ثمنها الى ١٠٠٠ فرنك فرنسي للهكتار ، اما الاراضي الجماعية ، والتي تكون فيها الملكية ثابتة ، فان سعر الهكتار الواحد فيها وصل الى ٣٥٠ فرنكا وبالتال فالاهالي لا يستطيعون الثبات أمام هذه الاغراءات ، اضافة الى مضايقات الدين والربا والتي كثيرا ما كانت تكون السبب في فقدان الاهالي لاراضيهم واملاكهم ، ومن هنا فغالبية المهاجرين هم من الفلاحين الذين فقدوا املاكهم بطريقة أو باخرى ، وعندما تقترن حالتهم البائسة هذه مع الاماني والوعود القادمة من المشرق ، فلا شك انهم يبادرون بسرعة الى الهجرة ، ويظل السبب الرئيسي هو الحالة الاقتصادية للفلاح الجزائري والذي راح ضحية غفلته وسذاجته ..»(٣٣) .

يبدو جليا من خل هذا التفسير تهرب السلطات الاستعمارية واغفالها ذكر اخطاء نظام الانديجينا وتعسف الحكام ورجال الادارة في الاقاليم والمقاطعات ، ولكن

بعض الفرنسيين لاحظ انه اذا كانت السلطات لم تستطع اخراج الفلاح الجزائري من جهله فانها على الاقل تستطيع محاربة اولئك المرابين وتقويم سلوك الموظفين الجشعين(٢٤).

والحقيقة ان وضع الاهالي المسلمين في الجزائر استمر على ما هو عليه منذ القرن التاسع عشر بل ازداد سوءا . ولكن الامر الذي استجد في هذه المرحلة هو الاهتمامات التي اصبحت توليها الصحافة لمعاناة الاهالي، وقد افادهم ذلك كثيرا فمعاناتهم اصبحت تجد لها محلا في الصحف والمجلات ، وفي مطالب ولوائح اللجان المالية والنواب المسلمين ، الامر الذي مكنهم في هذه المرحلة من التعبير عن معارضتهم لبعض القوانين في شكل تظاهرات وتجمعات شعبية او ارسال لجان للتفاوض مع الحكومة الفرنسية في باريس .

وبعبارة اخرى فقد ساد نوع من حرية التعبير احسن المدافعون عن الاهالي من المسلمين ومن الفرنسيين استغلاله ، وسيكون لهذه المساعي نتائجها الحسنة بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

ومثلما سبق القول فان لكل موجة هجرة اسبابها الداخلية واسبابها الخارجية واذا ما تفحصنا في الاسباب الخارجية لهجرة عام ١٩١٠ وعام ١٩١١ نجدها ذات صلة كبيرة ان لم نقل مباشرة بالتغييرات التي طرات في تركيا ، ويأتي في اولها مرحلة فرض الدستور على السلطان عبد الحميد ، ثم الثورة عليه . ووضع بعض المحللين الفرنسيين هذا السبب على رأس الاسباب كلها ، وابدى هؤلاء الفرنسيون اسفا كبيرا تجاه حركة الاتحاد والترقي التي تلقت تكوينها السياسي في فرنسا ، وعندما رجعت الى بلادها اعجبت بمشروع الجامعة الاسلامية ، ورات امكان احيائه من جديد بعد ان عرف توقفا مؤقتا(٢٥) .

أما تأثيرات التغييرات التي طرات في تركيا على المسلمين في الجزائر فقد برزت جلية خاصة بين الشباب الجزائريين « les Jeunes Algeriens »، اذ عمل التقارب التركي - الالماني على غرس التفاؤل والامل لدى هذه النخبة ، والنخبة في بلاد المغرب بصفة عامة(٢٦) ، خاصة وان المانيا هي عدوة فرنسا منذ القديم . واتضح لهؤلاء الشباب ان المانيا هي القوة الاوربية الوحيدة التي تظهر اهتماما بالاسلام والمسلمين، وترغب في اقامة تحالفات مع مختلف البلاد الاسلامية .

اتجهت انظار الجزائريين والتونسيين في هذه المرحلة الى تركيا التي تساندها المانيا خاصة وان بلاد المغرب بدأت تشهد تطورات جديدة حيث تجلت النوايا الاستعمارية الجديدة لكل من فرنسا في المغرب الاقصى وايطاليا في طرابلس(٢٧) . ومن الفرنسيين الذين شغلتهم افكار الجامعة الاسلامية وتاثيراتها على الاهالي المسلمين في

الجزائر «بورداري» «Bourdarie» ومما جاء على لسانه « .. انه بالنسبة للجزائر فان هؤلاء الاتراك استغلوا اخطاء نظام اداري قديم لاثارة موجة هجرة قد تعمل على زعزعة الوجود الفرنسي في الجزائر لاسيما ان الحكومة الفرنسية اقتربت او بالاصح حسمت مسألة التجنيد الاجباري وهو الامر الذي تخشاه برلين اكثر من غيره لما خلفته ذكرى معركة «wissembourg» من اثار في اذهان الالمانيين(٣٨)» .

واكد الكاتب « .. ان هذه الهجرة لم تحدث سنة ١٩١٠ بل ظهرت عشية الانقلاب العثماني واشتدت سنة ١٩٠٩(٣٩) » .

فهذه الهجرة قد حصلت اذن ، حسب راي الكاتب ، بايعاز من المانيا التي التي خشيت امر التجنيد الاجباري للمسلمين الجزائريين ، ولافشال الخطة الفرنسية في هذا المجال ، وراحت تحرض بطرق غير مباشرة على خروج الاهالي من الجزائر لتقلص ، بقدر الامكان ، من عدد المجندين الذين سيدخلون صفوف الجيش الفرنسي. وادعاء كهذا قد يكون له جانب من الصحة خاصة وانه ليس هناك ماينفيه، ولاسيما اذا ما وضعناه في اطار سياسة التحالفات الدولية الجديدة التي بدات في الظهور في هذه الفترة .

وتواصلت من جهة اخرى عمليات الدعاية للهجرة من بلاد الشام واستانبول ، سواء عن طريق الصحف ام بواسطة الرسائل المتبادلة بين المهاجرين وذويهم في الجزائر . وقد اتخذت هذه الدعاية طابعا شبه رسمي في هذه الفترة ، اذ شكلت مؤسسات وتجمعات منحتها الحكومة العثمانية صلاحيات للاهتمام بأمر المهاجرين وتوطينهم ، فظهر في دمشق « اللجنة الدمشقية للتجمع الاخوي الجزائري ــ التونسي » والتي واظبت على ارسال النداءات ودعوة الجزائريين والتونسيين للهجرة الى بلاد الشام تعبيرا عن سخطهم على النظام الفرنسي في الجزائر . ومما جاء في احدى هذه الرسائل ــ وكانت موجهة لشخص يدعى الحاج ابراهيم الصادراتي « .. نطلب منكم ان تعرفوا اخواننا المغاربة الذين بطرفكم بما اعرفكم على فضائل بلاد الشام وبما فيه من خير .. اعلموا اننا في انتظاركم بدمشق على القدوم الينا عزما عزما من غير تأخير لان الحكومة العثمانية تحتفل بالقادمين اليها من المهاجرين المغاربة ، واول وصولهم الى بيروت تركبهم الحكومة العلية الى الشام ، والسكن ايضا بلا شيء من غير دراهم وتعطي الدولة ايضا لكل نفس عشرين هكتار تراب وتعطي له ثورين وزريعة، والولد الذي يولد عند المهاجرين يعطى له مثل كبير ولا يؤخذ منهم العشر الا بعد العشرين سنة ويصير يدفع مثل اهل البلد(٤٠) .

وكان مركز هذه اللجنة في بيروت ولها فروع في استانبول ودمشق ، وكان ممثلها في دمشق مهاجر جزائري يدعى محمد بن شطة كان قد هاجر من مدينة الاغواط (بجنوب الجزائر) الى تونس ، وعندما سقطت هذه تحت الحماية الفرنسية اضطر

الى الخروج منها وتوجه الى دمشق هو وعائلته وتولى في دمشق رئاسة تحرير جريدة الـ « المهاجر » التي كانت تصدر في دمشق بين سنة ١٩١٢ و ١٩١٤ وهي الناطقة بلسان المهاجرين في بلاد الشام .

اما عدد المهاجرين الذين خرجوا من المنطقة الشرقية وفي هذه الفترة فنستطيع الحصول عليه من الارقام التي وردت في التقارير الرسمية ، ومن خلال الصحافة المحلية والتونسية التي اهتمت بهذه الهجرة . وقد عملت الادارة الاستعمارية من خلال تقرير وارنييه الخاص بالهجرة التي حصلت سنة ١٩١٠ في الشرق الجزائري ،وخاصة من نواحي سطيف ، وبرج بو عريريج وصدراته ، احصاء عدد المهاجرين ومعرفة اوضاعهم الاجتماعية ، ولكن مهما كانت قيمة هذه التقارير فان ارقامها تظل تقريبية خاصة وان السلطات المحلية كانت تحاول دوما التقليل من اهمية الحادث وخطورته يضاف الى ذلك التقارير الصحفية ، ومنها الصحافة التونسية التي اهتمت بظاهرة الهجرة الكثيفة التي انطلقت من الموانىء التونسية وبخاصة مينائي تونس وقابس ، وكانت ارقام هؤلاء المهاجرين حسب ما اوردته الصحف التونسية تصل مرة الى ٢٣ شخصا ، ومرة الى ٨٠ شخصا ويذكر « Spielman »من برج بوعريريج الارقام التالية: هاجرت من صدراته ١٥ عائلة أي حوالي ١٠٠ شخص ، ومن زمورة ٧عائلات ، ومن المجانة عائلة واحدة ، واربع عائلات من المعاديست(٤١) في حين ذكرت صحيفة « La Depêche Algerienne »انه ومنذ عام خرجت ٨٠ عائلة مهاجرة الى تركيا ومن بينها ٣٢ عائلة من بلدية « عين تافروت » وحدها ، وهناك اعداد اخرى (هي الان) موقوفة في ميناء تونس حيث رفضت السلطات المحلية ابحارهم . ويكون العدد الكلي لهؤلاء الذين قرروا الهجرة واستعدوا لها يتراوح ما بين ٥١١ ــ ٦٠٠ شخص(٤٢) ..

ولم تقتصر هجرة عام ١٩١٠ على الجزائريين في منطقة الشرق الجزائري فقط بل استجاب لها كذلك المهاجرون الذين هاجروا في السابق الى تونس ، واستجاب لها كذلك التونسيون انفسهم خاصة من اهالي «الكاف»(٤٣) ، وغالبية هؤلاء المهاجرين كانوا حسب التقارير الرسمية والصحفية من متوسطي الحال من الذين اضطروا الى بيع ممتلكاتهم الى الاوربيين تحت ظروف وضغوط مختلفة ، وقد كتبت صحيفة الاخبار عن « الرغبة الملحة لدى بعض المستوطنين لطرد الاهالي حتى يتوفر المكان لهم (٤٤)» .

هجرة تلمسان ١٩١١ :

تميزت هجرة اهالي مدينة تلمسان وضواحيها عن باقي الهجرات بكثافتها بحيث لم تعط منطقة في الجزائر وفي خلال شهر واحد مقدار ما اعطته تلمسان وضواحيها من مهاجرين ، فبين شهري تشرين الاول والثاني ١٩١١ خرج ما بين ١٠٠٠ و١٢٠٠

شخص مما دعى الفرنسيين الى وصف هذه الهجرة « بالهلع الحقيقي وبالوباء الحقيقي الذي سيطر على البلاد كلها ، وكان يوميا يرمي بالعشرات بل بالمئات من العائلات على الحدود الوهرانية ـ المغربية ، وسجل في احد الايام خروج ١٢٠ شخصا دفعة واحدة(٤٥) ».. وهناك من يقول ان العدد وصل الى ٢٠٠ عائلة اي ٣٠٠٠ شخص تقريبا. وكانت هذه العائلات قد ابحرت الى بلاد الشام من الموانىء الاسبانية في المغرب الاقصى، وتجاهلت السلطات الفرنسية في المنطقة كلية هذه الحوادث ، ولم تتخذ اي اجراء لايقاف الهجرة او تكليف لجنة للتحقيق في الامر(٤٦) .

وظهرت البوادر الاولى لهذه الهجرة مع اواخر عام ١٩١٠ كرد فعل على اجراءات التجنيد الاجباري ، وعندما شرعت السلطات الاستعمارية في عمليات احصاء الشباب منذ سنة ١٩٠٩ ، فقد انتقل الى دمشق وبدون جواز سفر « قائد وادي شولي » في ضواحي تلمسان المدعو « سي الاخضر » ورافقه ٢٧ فردا من عائلته ،ولحق به المدعو « مومزيان بن المنور » وقد ركب هؤلاء قطار الحدود الى المغرب الاقصى ، وهناك اقاموا اياما في زاوية الشيخ الهبري ، ثم انتقلوا منها الى مليلة ومنها الى تطوان ثم الى طنجة التي ابحروا منها الى بلاد الشام(٤٧) . وشرع هذا القائد فور وصوله في مراسلة اقاربه ومعارفه يحثهم على الهجرة الى بلاد الشام للتخلص من تسلط الفرنسيين عليهم ، وكان يعدد لهم محاسن بلاد الشام وكرم اهلها ، ويذكر لهم اهتمام الحكومة بالمهاجرين ومن جملة ما ذكره « .. ان دمشق مدينة تجارية تستطيع ان تبدا فيها بفرنك مثل ٥٠ الف فرنك ويمكن فتح مقاه بدون رخص من الحكومة .. »(٤٨).

وقد اثار رحيل هذا القائد تساؤل الفرنسيين واستغرابهم خاصة وانه كان يتمتع بوظيفة حكومية (قائد) ولم يتعرض لاي مساس في شخصه او امواله . ومع اعلان ٨ فبراير (شباط) ١٩١١ ، والخاص بالشروع في احصاء الشباب المؤهلين للخدمة العسكرية في تلمسان ، اشتدت الرغبة في الهجرة وعمت كل سكان المنطقة ، وقام المفتي « شلبي جلول » في خطب الجمعة يحذر الناس « .. من الخطر الذي يتهدد المسلمين » ودعا الى الهجرة موضحا « الخطورة التي تنجم عن اقامة المسلمين بين المشركين(٤٩) » .

وعرفت القرى والمدن القريبة من تلمسان (الرمشي ، وسبدو ـ ندرومة ـ تورين) استعدادات كثيفة للهجرة حيث قام الاهالي ببيع ممتلكاتهم للاوربيين من اراض وعقارات واموال والفرار خفية عبر الحدود المغربية . وامام هذه الحالة من الاضطراب قررت صحيفة L'echo d'Oran ارسال احد محرريها وهو Euq Gross الى تلمسان للتحقيق في امر الهجرة واثار التقرير الذي نشرته في ست حلقات ضجة كبيرة واعتمدته اكثر الصحف التي كتبت عن هذه الظاهرة ومن بينها صحيفة الطان

البـاريـسـيـة . ومماجاء في احد هذه التقارير « .. ان الهجـرة اشـتدت خلال النصف الثاني من شـهر سـبتمبر والايام الاولى من شـهر اكتوبر ثم خفت ربما لفاعلية الحراسـة التي وضعتها السـلطاتعلى الحدود مع المغرب . والملاحظ ان عائلات من اعيان المدينة هاجرت من تلمسان ، الامر الذي دفع ببقية الناس الى اتخاذ قرار الهجرة كذلك . « فالكل يريد الهجرة لان الجار هاجر » والوسـيلة الوحيدة ذات الفاعلية التي اتخذتها السـلطـات المحليـة كان قرارهـا بحبـس كل من يكشـف وهو يسـتعـد للهجـرة أو اتخذ قرار الهجرة(٥٠) .

واعلنت الجريدة ان لجانا خاصة بالهجرة شكلت في بلاد الشـام لاستقبـال المهاجرين(٥١) واكدت في مقال اخر ان التجنيد ليـس السـبب الوحيد للهجرة كما ادعى بعض الاوربيين بل الاسـباب عديدة ومختلفة وهي كلها ناتجة عن الوضعية المزرية التي التي يعيش فيها المسلم الجزائري . وما قضية التجنيد الا القطرة التي طفح بها الكيل وراحت الصحف المحلية الاخرى كل من جهتها تكتب عن معاناة الاهالي . فصحيفة الحق الصادرة في وهران ذكرت في مقال لها عن الهجرة التلمسـانية ان نائب المحافظ كان يشـجع النـاس على الهجرة ، كما اعلن (المنادي العمومي) في احد الايام « ان الكل يستطيع السـفر بشرط ان يكون قد ادى ما عليه من ضرائب »(٥٢) واوردت صحيفـة الرشيـدي El Rachidi قولا لشـخصيات منالاهالي جاء فيه « ... عندما نتكلم عن مطالب الاهالي يقولون ان ممثلي الاهالي في مختلف الجمعيات لا يذكرون ذلك ، ولكن هل للاهالي حقا ممثلون ؟. وهل ننسى الضغط الاداري مع كل حملة انتخابات ، وهل هناك من مثقفين يرشحون انفسهم؟ ، طبعا لا ، لانهم متأكدون مسبقا من فشلهم ، فهم غير مرغوب فيهم في المجالس ، اما في الجمعيات العمومية فالمرشحون هم عموما من القادة(٥٣)» .

وفي احصـاء للادارة المحلية بتلمسـان عن عدد المهاجرين ورد في القائمة (٥٠٨) اسـماء ، ولوحظ ان العدد لا يتجاوز رقم(٦٥٠) شخصا في منطقة تلمسـان كلها . ولكن جريـدة L'écho d'Oran قدرت العدد بـ (١٢٠٠) شـخص ، واعتمد هذا الرقم من طرف غالبية الصحف والمجلات التي كتبت عن هجرة تلمسـان . ومما ذكرته صحيفة « الاسـلام » انه « لوضع حد لهذا الهروب الجماعي قامـت السـلطات الفرنسـية بغلـق الحدود التونسـية ، والليبية ، وسجلت مشـادات يومية في قرية (بن فرداري) بين حراس الحدود وبعض المهاجرين عند اجتيازهم للحدود المغربية(٥٤)» .

والجدير بالذكر ان تونـس لم تعد مركز استقطاب للمهاجرين منذ ان احتلهـا الفرنسيون ، بل خرج منها كل المهاجرين الجزائريين الذين قصدوا الاقامة فيها في فتراتسابقة . وتوزع هؤلاء المهاجرون بين طرابلس والقاهرة والاسـكندرية ودمشـق

وحلب وبيروت ، وحتى بغداد واستانبـول وسالونيك واضنـة ، دون ان ننسـى المهاجرين الذين اقاموا في الحجاز في مكة والمدينة ، ولولا الحرب التركية ــ الايطاليـة لاتخذت الهجرة في هذه الفترة شكلا خطيرا وواسعا . ومما اخبرت عنه صحيفـة « الاخبار » El Akhbar ... ان ٣٠٠ مهاجر عطلوا في ميناء مليلة ولم يتمكنوا مـن الابحار لما نتج عن هذه الحرب من مخاطر على حريـة الملاحـة في اتجاه بلاد الشـام(٥٥).

تقرير باربودات

على اثر الازمة والضجة التي اثارتها الصحافة حول هذه الهجرة ، تقدم المجلس البلدي لتلمسان بطلب للحكومة العامة بالجزائر للمبادرة الى تعيين لجنة للتحقيق في امر هذه الهجرة على ان تكون شخصيات هذه اللجنة ممن تتوفر فيهم ثقة الاهالي . فبادر الحاكم العام « ليتـو LuTaud» الى تعيين لجنة وضع على راسها السـيد « باربودات » وهو مندوب مالي(٥٦) .

والجديد في اعمال هذه اللجنة انها اتجهت الى استطلاع كل الاراء بما فيها اراء السلطات المحلية والمستوطنين والاهالي ، وذلك تحت ضغط بعض الفرنسيين الذين طالبوا ان تكون اللجنة موضوعية في اعمالها حتى تتمكن من التوصل الى الحقيقـة باكملهـا .

والجدير بالذكر هنا ان الفرنسيين اعتبروا تلمسان مدينـة مختلفة ومتميزة عن باقي المدن الجزائرية ، وجعلوا منها المدينة الوحيدة التي تحمل صفة الاصالة والقدم ، خاصة من حيث عادات الناس وتقاليدهم(٥٧) . فويليام مارسيه W.Marçais وهو مدير مدرسة في تلمسان انذاك يقول « .. عرفت في تلمسان مجتمعا يعمـل ليعيش ، وهو المجتمع الاكثر اصالة في الجزائر كلها ، وهو شديد التدين والمحافظة ».

اما باربودات Barbedette فانه يصف اهالي المدينة بالمسالمة والوداعةوالهدوء « مع احترامهم الدائم للسلطات المحلية اذ لم يعلنوا ابـدا تضايقهـم من المستوطنين الفرنسيين ، كما لم يشتركوا في اية ثورة ضد الفرنسيين .. ولكن بالمقابل نجد ان ارتباطهم بمعتقداتهم الدينية عميق جدا ».

واول سبب تعرضت له اللجنة كان مسالة التجنيد الاجباري ، فقد اوضح الاهالي ان ابناءهم سيجبرون على مقاتلة مسلمين مثلهم في المغرب الاقصى ، وهـذا ما يرفضه الدين ، بالاضافة الى انهم سيجدون انفسهم مبعدين عن ممارسة شعائرهم الدينيـة(٥٨) .

ولوحظ في مسالة فصل الدين عن الدولة ان الاهالي يرون ان نتائج قانونالفصل

ستكون وخيمة على المؤسسات الدينية ، فالتعويضات التي قررتها الحكومة ستنتهي بعد مدة وليس بيد الاهالي اوقاف ينفقون منها على مؤسساتهم ، باعتبار أن تلك الاوقاف اصبحت ضمن املاك الدولة اضافة الى العراقيل والصعوبات التي خلقتها الادارة امام تشكيل الجمعيات الدينية

وعبر الاهالي من جهة اخرى عن معارضتهم الشديدة للقانون الذي اتخذه الحاكم العام السابق السيد « جونار » والقاضي بتقييد الملكيات الخاصة وفق القانون الفرنسي وبعيدا عن قانون الارث في الشريعة الاسلامية . وكان سخط الاهالي شديدا تجاه قانون الاهالي (الانديجينا) الذي تطبق مواده على أي كان ولاتفه الاسباب وقد تصل العقوبات الى غرامات مالية قدرها ١٥ فرنكا او حبس لمدة ٦ ايام .

وكثرت الشكاوى من الضرائب الثقيلة والتي ترتفع يوما بعد يوم ، فضريبة العشر اصبحت تطبق في المدن حتى على الحدائق الخاصة اضافة الى ضرائب البلدية المتعددة . ويطالب الاهالي باعادة القضاة المسلمين للفصل بين المسلمين بدل قضاة الصلح المعينين من طرف السلطة فالقاضي يحكم بمقتضى نصوص الشريعة والاستماع الى الشهود في حين ان قاضي الصلح الفرنسي ينزعج لاتفه الامور ، وقد يتحول الى تطبيق قانون الانديجينا على اية مخالفة قد ترتكب في المحكمة .

وتمثيل الاهالي في المجالس والجمعيات هو بدون شك ضعيف في حين حصل اليهود وابناء الاجانب على حقهم في الاقتراع باكتسابهم الجنسية الفرنسية . وفي المجالس البلدية لا يمكن ان يمثل الاهالي اكثر من ٦ أشخاص مهما كان عدد سكان المدينة(٥٩) .

ثم انتقل التقرير الى الحديث عن الازمة الاقتصادية التي يتخبط فيها المسلمون في تلمسان ، ويذهب في تحليله الى القول ان الكثير من المدن فقدت حيويتها الاقتصادية والتجارية نتيجة تحول الاسواق عنها ، ومنافسة البضاعة الفرنسية لها مما عرض البضاعة المحلية الى الكساد والصناعة الحرفية الى التقهقر ، كما اثرت خطوط السكك الحديدية التي انشئت حديثا على اهمية بعض المدن ومنها تلمسان ، اذ اصبحت البضائع تنقل عبر السكك الحديدية مباشرة الى وهران والمدن الساحلية للتصدير او للاستهلاك في تلك المناطق . ويقول اهالي تلمسان عن هذه السكك (انها حملت عنهم البركة) ، اما معاناة تلك الارياف والمناطق الجبلية فقد لخصها التقرير فيما يلي « .. اولا اجراءات قانون الغابات والتي اوصلت الاهالي الى حالة من الفقر والبؤس ، فهؤلاء الناس طردوا في السابق من اراضيهم الخصبة ، التي صادرتها السلطات الفرنسية ومنحتها للمستعمرين بحجة احيائها واستغلالها الاستغلال الحسن ، وحوصروا في مناطق جبلية وغابية ، واصبحوا يعيشون من بيع منتوج حيواناتهم او من

بيع اكوام الحطب في المدن ، وينجم عن الاحتطاب او رعي الماشية بدون رخصة عقوبات صارمة تصل الى الحبس عدة ايام حسب قانون الغابات(٦٠) » .

ويشترك اهالي الارياف مع اهالي المدن في معاناتهم من ثقل الضرائب ، فضريبة العشر في المناطق الريفية غالبا ما تتعدى العشر ، اما الزكاة فتفرض بحسب احتياجات الجابي لان مرتبه يجب ان يكون العشر من الضرائب التي يجبيها في منطقته ، وتستمر الاحوال على هذا الشكل ، واذا تقدم احد بشكوى فان شكواه تجر عليه عقوبات اخرى بتطبيق قانون الاهالي عليه . وخلصت اللجنة الى القول ان الهجرة انطلقت من مدينة تلمسان . ولاحظت اللجنة ان هذه الموجة قد شجع عليها قدوم بعض الشخصيات الشرقية الى تلمسان ، ومن هؤلاء الزعيم المصري المعروف « محمد فريد بك» الذي نزل ضيفا على القاضي « سي شعيب » ، وقد كتب فريد بك عن رحلته هذه السنة ١٩٠٣ و ١٩٠٤ ،في مقالات في جريدة اللواء المصرية ، وانتقد بشدة السياسة الفرنسية المتبعة في الجزائر . ومن اسباب هذه الهجرة كذلك الرسائل التي كانت تصل الاهالي من المهاجرين الى بلاد الشام ومن خلال اطلاعهم على الصحف العثمانية والمصرية التي تدخل للجزائر خفية ونتيجة لمواقف مفتي تلمسان التي اثارت موجة من التعصب بين السكان ، ومما زاد في اضطراب الاهالي وهيجانهم قانون الفصل الذي راوا فيه تهديدا صريحا لحريتهم الدينية اضافة الى الاشاعات والاخبار التي نشط في نشرها بعض الاوربيين ممن لهم مصلحة في ذلك(٦١) .

واوضحت اللجنة ان الاهالي يرفضون الجنسية الفرنسية لان الحياة الدينية للمسلم تمتزج امتزاجا كاملا بالحياة المدنية ، ولا يمكنهم بأي حال التخلي عن قانونهم الشخصي .

وعند مناقشة اللجنة للشكاوى التي طرحها الاهالي بين يديها على امل ان تأخذها بعين الاعتبار ، ابدت اللجنة تأييدها لكثير من المطالب وتكلمت عن حق الاهالي في التمتع بحياة كريمة ، وطالبت الادارة العامة بضرورة الاستعجال لادخال اصلاحات وتغييرات على بعض القوانين التي تنظم حياة الاهالي المسلمين . وطالبت باحداث تغيير لمضمون قانون الغابات(٦٢) ليكون اكثر ملائمة لظروف الحياة الريفية ، اذ تبين استحالة تطبيق قانون الغابات الفرنسي على بيئة غير البيئة الفرنسية ، وطالبت من جهة اخرى بالتوقف الفعلي عن حجز الاراضي لاقامة المستوطنات ، وضرورة مراجعة قانون الضرائب ووضعه في اطار من المساواة والعدالة ، وضمان تمثيل احسن للاهالي في المجالس البلدية وفي اللجان المالية ، والزيادة في اطار محدود من عدد المستشارين المسلمين . كما الحت على ضرورة ممارسة الشدة والصرامة في اختيار الموظفين ونوابهم او ممثليهم من الاهالي ومراقبتهم باستمرار ، وايدت من جهة اخرى مطالب الاهالي الخاصة « بقانون الاهالي »(الانديجينا)(٦٣) ، واوضحت ان هذه الشكاوى لا تقتصر

على اهالي تلمسان بل تشمل الجزائر من الحدود المغربية الى الحدود التونسية ،ومن الشمال الى حدود الصحراء ، وقالت ان مطالب الاهالي في هذا الخصوص جديرة بالنظر والملاحظة .

وبالمقابل ابدت اللجنة معارضتها لرفض الاهالي لقانون التجنيد الاجباري ولكنها اوصت بعدم اللجوء اليه الا في الحالات التي تستدعي ذلك ، بسبب الصعوبة في تطبيقه نتيجة رفض الاهالي له .

وبعد ان قدمت اللجنة تقريرها الى الحاكم العام LuTaud، تقدم هذا بتقرير عن الهجرة الى وزير الداخلية الفرنسية(٦٤). واظهر من خلال تقريره دفاعا عن القوانين الفرنسية المطبقة على الاهالي في الجزائر ، مؤكدا ان غالبية المهاجرين هم من اتباع الطريقة الدرقاوية او من الشباب الذين وصلوا الى سن الخدمة العسكرية .

واوضح من جهة اخرى ان قانون فصل الدين عن الدولة ، هو من الاسباب المباشرة للهجرة« .. لا يمكنني مناقشته باعتبار انه اصبح امرا واقعا ،ورجال الدين الاسلامي مازالوا يتقاضون من الحكومة تعويضات ، لم يحرم منها الا مفتي تلمسان لما اظهره من عداء للحكومة الفرنسية عند شروعها في عمليات الاحصاء تمهيدا لتطبيق التجنيد الاجباري » .

.. اما الوضعية الاقتصادية للاهالي فلا يمكننا ايجاد حل لها ـ باعتبار انها تخضع لتطورات العصر ـ الا بدفع الاهالي للاستفادة من هذا التطور .. اما موقفه من الهجرة فقد عبر عنه بقوله « .. اريد ان اوضح ان هذه الهجرة حدث عادي وكثيرا ما يحدث في البلاد الاسلامية ..».

وتبين لنا ارشيفات الحكومة وتقارير القناصل من مصر وسورية انه طيلة مدة سيطرتنا على هذه البلاد حدثت فيها حركات هجرة فاقت هجرة تلمسان بكثير مثلما حدث سنة ١٨٥٤ ، ١٨٦٠ ، ١٨٧٠ ، ١٨٧٥ ، ١٨٨٨ ، ١٨٩٨ ، لهذه الهجرات اسباب ثقافية او عرضية ، واسباب عميقة ، فالاولى غالبا ما تكون نتيجة استياء عابر قد يكون خطرا احيانا وشكليا احيانا اخرى . فاذا ما اصاب الاهالي قحط ومجاعة اتخذوا بسرعة قرار الهجرة بحثا عن لقمة العيش ، واحيانا تكون بوقوع المالكين غير المتبصرين تحت اغراءات بعض الاوربيين اما الاسباب العميقة والدائمة فتكمن في الروابط الدينية التي ما لبثت تجذب دوما المسلمين الى الاراضي المقدسة .

واضاف الحاكم العام ان الادارة الفرنسية اجتهدت لايجاد علاج لهذه الوضعية فلجأت الى الفتوى ومما قاله « .. ان (بوجو) هو اول من لجا الى الفتوى عندما

ارسل (ليون روش L.Roche) لياتيه بفتوى من مكة ، تجيز للاهالي المسلمين البقاء في (الارض غير الاسلامية) Terre infidèle (٦٥) كما حصل جول كامبون J. Cambon على فتوى من علماء مكة سنة ١٨٩٣ اجازوا فيها بقاء الاهالي في الجزائر ، وحديثا حصلنا من مفتي القاهرة الشيخ محمد عبده عند زيارته الجزائر سنة ١٩٠٣ على فتوى أوضح من خلالها للمسلمين الجزائريين ان ارض الجزائر ليست مستعمرة من طرف ملحدين لان المسيحيين هم اهل كتاب ، كما اعطى موافقته على وضع القبعة محل « الشاشية » .

ووصلت قضية الهجرة الي مجلس النواب حيث فسح المجال امام النواب لمناقشة ظاهرة الهجرة ، وكان ذلك فرصة لمناقشة السياسة الفرنسية بأكملها في الجزائر . واختلفت الاراء وتباينت بين معارضين لاي تغيير للسياسة الفرنسية المتبعة في الجزائر وبين مؤيدين لسياسة اكثر مرونة وعدالة تجاه المسلمين ، ومن بين هؤلاء نجد النائب « البير فيري » الذي طالب بضرورة تطبيق سياسة اسلامية في الجزائر ترضي المسلمين الجزائريين وتبعدهم عن التاثيرات الاتية من المشرق ، واورد في عرضه قولا للورد كرومر قال ان هذا الاخير كتبه عن الجزائر وضمنه جملة من النصائح للفرنسيين يتبعونها في سياستهم ؛ يقول اللورد كرومر : « .. باهتمامنا بالجانب المادي للشعب يمكننا ان نخلق طبقة من ذوي الفكر المحافظ ، هذه الطبقة وان لم تتمتع بميل كبير لاسيادها الاجانب الا انها على الاقل تمنع الشعب من ان يكون سهل الانجذاب الى ناحية السياسيين الوطنيين ..» ، ويعلق البير فيري بقوله «.. ان الخطر يتمثل في ان بعض المتعصبين والسياسيين يجدون الاذن الصاغية لنداءاتهم ضمن قاعدة شعبية شديدة السخط والاستياء والخطر كذلك هو ان فرنسا لم تعمل على خلق هذه الطبقة المحافظة التي يمكنها ا ن تكون معادية لاي تغيير جذري .. ورغم ان الخطر يقتصر في الوقت الحالي على الجانب السياسي فانه ليس بعيدا ان يصبح بعد ذلك اجتماعيا حتى ان (باربودات) يتكلم في تقرير عن بروليتاريا من الاهالي المسلمين »(٦٦) .

من خلال هذا العرض البسيط ؛ يتضح ان هجرة تلمسان قد نالت قسطا كبيرا من الاهتمام خلافا للهجرات السابقة ، التي لم تكن اقل خطورة وكثافة من هجرة تلمسان سنة ١٩١١ ، وكانت هذه الهجرة الكثيفة المنبه الذي ايقظ الفرنسيين ودفعهم الى النظر في سلبيات وايجابيات السياسة الفرنسية المتبعة في الجزائر ، الا ان هذا المنبه جاء في غير اوانه ، اذ ان هجرة تلمسان كانت اخر موجة للهجرات الجماعية التي شهدتها الجزائر المستعمرة .

وفيما يتعلق بالاماكن التي توجه اليها هؤلاء المهاجرون ، تبين أن نسبة كبيرة منهم اختاروا الاقامة في القاهرة والاسكندرية ، ومنهم من نزل في هاتين المدينتين ؛

ثم اخذ طريقه الى دمشق ، او الى مكة والمدينة ؛ مع العلم ان غالبية مهاجري تلمسان كانوا من الميسورين ، ولم يلاقوا صعوبات كبيرة في هجرتهم او استيطانهم .

وفي برقية من وزير الخارجية الى الحاكم العام في الجزائر ، اخبره ان القنصل العام في الاسكندرية يعلمه عن « وجود جماعة من حوالي ٢٠٠ جزائري من اهالي تلمسان متوزعين بين فنادق البلدة »(٦٤) . وفي تقرير آخر لنيابة القنصلية الفرنسية في « مرسين واضنة »ان الشركة الخديوية Companie Kheldive حملت الى مرسين ٥٠٠ جزائري بين رجال ونساء واطفال ، غالبيتهم من سكان تلمسان وضواحيها وقد استقر بعضهم منذ اشهر في سورية ، ثم قررت الحكومة العثمانية توطينهم في منطقة Anawarza في نواحي اضنة(٦٥) . وسبق ذلك تقرير بعث به من دمشق القنصل «M.Piat» الى وزارة الخارجية اخبر فيه ان عدد الجزائريين المهاجرين الى بلاد الشام وصل الى ٢٨٥٠٠ ؛ وفي كل يوم تصل دمشق اعداد جديدة في جماعات بين ١٥ و٣٠ شخصا ، واورد هذا القنصل احصاء للمهاجرين الجزائريين وتوزعهم على مناطق مختلفة من بلاد الشام ، ودمشق وحدها كان يوجد بها ٤٠٠٠ جزائري(٦٦) .

ومما اوردته احدى الصحف الفرنسية عن الهجرة « ان الجريدة الرسمية العثمانية نشرت (مؤخرا) فرمانا يقضي بمنح المسلمين المهاجرين والجزائريين القادمين حديثا الى سورية في جماعات من عشرة اشخاص ، قطعا من الارض مع حيوانات ووسائل الفلاحة وقروضا لمساعدتهم لبدء حياة كريمة »(٦٧) .

وقد اعترف الفرنسيون ان الاخبار والمعلومات التي تتضمنها رسائل المهاجرين ، عن وضعية المهاجرين الحسنة ، ليست خاطئة بل هي صحيحة في غالبيتها . واعترف احد القناصل انه « .. بحسب السياسة الدائمة التي يتبعها الوالي (العثماني) في دمشق ، فان المهاجرين يلقون الحفاوة والاستقبال ، وتسلم لهم الادارة قرشين ونصف يوميا لكل فرد ، الى حين تمنح لهم قطع من الارض ... اما بعض الشخصيات ،والتي يمكن ان تكون ذات فائدة دعائية ، فانه يمنح لهم مقدار ما يشترون به قطيعا والات زراعية كما يمنح لهم السكن(٦٨)» .

وبهجرة ١٩١١ ، توقفت موجات الهجرة الجماعية الجزائرية الى المشرق والتي دامت قرابة الثمانين سنة ، ولم يكن هذا التوقف محض صدفة او نتيجة حتمية للاجراءات التي اتخذتها السلطات الفرنسية ، بل نلاحظ ان هذا التوقف قد تحكمت فيه عدة ظروف خارجية لا علاقة لها بالجزائر .

فالحرب التركية الايطالية من جهة ولدت مخاوف كثيرة ، وتعطلت بسببها عدة سفن كانت تقل مهاجرين جزائريين باتجاه بلاد الشام ، في الوقت الذي كان فيه العالم

الاوربي وحتى العربي يسير بخطى بطيئة نحو تأزم عالمي، كانت نتيجته اول حرب عالمية عرفتها البشرية وشغلت الساسة والشعوب ، بما فيها الشعب الجزائري ، هذا اضافة الى ان السلطات العثمانية ، ولظروفها الداخلية والخارجية الصعبة ، لم يعد يهمها ويشغلها كثيرا قدوم المهاجرين الى البلاد العثمانية ، فقل الاهتمام بالمهاجرين الجزائريين ونقصت الدعاية للهجرة .

وستشهد فترة الحرب وما بعدها هجرة جزائرية من نوع اخر ، اذ يخرج مئات من الجزائريين مهاجرين الى فرنسا طلبا للرزق ، وقد تحكمت في هذه الظاهرة الجديدة ظروف الحرب العالمية الاولى في فرنسا ، حيث كان الطلب يتزايد على الايدي العاملة من شمال افريقيا .

المصادر والمراجع

(١) وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر من هذه الصحف: Le Tell-L'islam- L'Akhbar Rachidi - el Hack- ومن بين هذه الصحف ثلاث منها وهي الاخبار والحق والاسلام كانت تصدر صفحات باللغة العربية ، مع الصفحات الاصلية المكتوبة باللغة الفرنسية . اضافة الى الصحف العربية التي كانت تصدر في المشرق العربي ، والتي دافعت بكل حماس عن معاناة الجزائريين مثل صحيفة « اللواء،المؤيد » المصريتين وصحيفة « المفيد » الصادرة في بيروت ، واهتمت الصحف التونسية كذلك بفضح ممارسات السلطات الفرنسية في الجزائر ، مثل صحيفة « الحاضرة » و « le Tunisien »

(٢) عارض الاهالي بشدة قانون استبدال القضاة المسلمين ، بقضاة صلح فرنسيين ، والذي صدر في سنة ١٨٨٦ ، والزم قضاة الصلح Juges de paix بتطبيق الشريعة والقانون الفرنسي جنبا الى جنب واعترض الاهالي كذلك على القانون الذي صدر سنة ١٨٨٦ بدعوى تنظيم الاحوال المدنية للاهالي بايجاد اسماء جديدة لهم.

(٣) حسبما اورده « اسماعيل اربان » Ismail Urbain فان مدينة الجزائر كانت تضم سنة ١٨٣٠ (١٢) جامعا كبيرا ، و (١٠٩) جامعا صغيرا و (٣٢) مصلى و(١٢) صغيرة زاوية ،وتناقصت هذه الاعداد سنة ١٨٦٢ الى (٤) جوامع كبيرة و (٨) صغيرة و (٩) مصليات . وقسم موظفو الجوامع الى فئتين : فئة عليا وتضم ، المفتي ويوجد تحت رئاسته الائمة ، والفئة الثانية تضم : المدرس – باش حزاب الحزاب ، والمؤذن

Bomtems, C., **Manuel des institutions Algériens de la domination turque à l'indépendance**, t.I, G.U.J.A.S. Paris 1975 , pp. 501.

(4) Bomtems, op. cit. pp 502-503..

(5) Ageron, ch. R., **Les Algériens musulmans et la France** (1871 - 1918), P.U.F. Paris 1968, t.II, p. 895.

وجاء على لسان احد الجزائريين المسلمين(نائب) في المجالس المالية ، قوله : .. ان رغبة غالبية المسلمين ، انه ما دام القانون يحرم المسلمين من المساعدة المالية للحكومة ، فعلى هذه ان تعيد للجوامع والمؤسسات الدينية ، الاوقاف لتكون تحت خدمتها .

(6) Ageron, op. cit. p. 896

وتمكنت الادارة الفرنسية من استعادة سلطتها سنة ١٩٠٩ على بعض الجوامع التي لم تكن مرتبطة بالجمعيات الدينية

(7) Bourdarie, P., « L'Ottomanisme et l'éxode Algérien,» in R.Indigéne, 1910, p. 563.

(8) Ageron, op. cit. p. 898.

(٩) ولقيت سياسة الفرنسيين هذه تجاه المسلمين في الجزائر انتقادات شديدة من طرف الصحافة العربية في مصر وبيروت ، واعترض عليها القناصل الفرنسيون في المشرق ، وراحوا يتاسفون على ما تجره هذه الاجراءات من سمعة سيئة لمكانة فرنسا في المشرق .

Ageron Ch. R, op. cit p. 899.

(10) Bevia, S., « Le Service Militaire obligatoire pour les indigènes en Algérie in R.Africaine , n.52, 1908,p. 116 .

ومن بين الخطط خطة الجنرال martimprey التي وضعها سنة ١٨٦٤ والتي اقترح من خلالها ان يتم ارسال المجندين الى فرنسا ومزجهم مع الفرق الفرنسية فيكتسبون بذلك اللغة والعادات ، وفي ذلك فوائد كبيرة لفرنسا .وبرزت الفكرة كذلك لدى نابليون الثالث في اطار مشروعه الهادف الى جعل الجزائر مملكة عربية تابعة لفرنسا ، ويكون بامكانها تزويد فرنسا بقوة عسكرية تستعين بها في اوربا .

(11) Prunnel, A., Le Recrutement indigèneAlgérien par voie de l'appel, Alger 1913, p. 22.

(12) Ibid, p. 26.

وكانت النتائج التي توصلت اليها اللجنة :يمكن تطبيق القانون الاجباري على الاهالي من الان دون خشية اي اضطرابات او ثورة من جانب الاهالي على ان :

ا ـ لا يؤخذ في الاول الا نسبة ضئيلة بين ٥٪ و ١٠٪ وبالقرعة ، ثم يزاد في العدد عاما بعد عام .

ب ـ ان يسمح بحق البدل

Bobiny, G., Le Service Militaire des indigènes, in R.Française de l'etranger et des Colonies 1908.

(13) Messimy , A ., Ressource Militaire de L,Afrique du Nord , » R. de Paris, n.II, nov, - dec. 1910, p. 341.

(١٤) ان المجند الواحد يكلف الحكومة ٤٨٠ فرنكا سنويا في حين يكلفها المرتزق او القناص ١٥٠٠ ف اي ان تكلفة ١٠٠٠٠ قناص هي اكبر من تكلفة ٢٥٠٠٠ مجند Ageron, op. cit., 1061

(15) Prunnel , op. cit. p. 27.

(16) Ageron, op. cit. p. 1067 .

(١٧) من ذلك ما جاء على لسان النائب Treille : اذا لم يثر الاهالي ضد قانون التجنيد ،فينبغي دفعهم لذلك اوردت ذلك صحيفة « الاخبار »الصادرة في الجزائر في عدد من اكتوبر ١٩١١.

(18) Depince, Ch., « Le Régime de l,indigénat Algerien,» in R.Politique et Parlementaire, n. 72,1912, p. 298.

(١٩) وكانت مطالب المعارضين تنحصر في الابقاء على نظام التجنيد التطوعي مع منح هؤلاء المتطوعين عندما تنتهي خدمتهم ، وظائف مدنيةتساعدهمفي ضمان بقية ايامهم ، اغراء للجزائريين للالتحاق بفرق السباهية وغيرها .

(20) Prunnel, op. cit. p. 31 et suiv.

(21) Conseil général d,Oran, « rapport exode de Tlemcen 1911» rapport de la commission barbebtte ..

(22) Conselil général d'Oran, Ibid.

(٢٣) دائرة المعارف الاسلامية ـ المجلد السابع ـكلمة درقاوي ، ص ٢٠٤ ، ومما جاء في هذا التعريف ايضا ان الحاج محمد بن يلس مقدمالهبرية(الدرقاوية) عندما عجز عن تحريض ابناء قبيلته على الجهر بالثورة ، اخذ يدعو اخوانه اليالخروج الى ارض المسلمين ـ كما هاجرت مئات من اسر تلمسان وما جاورها الى طرابلس الغربوبلاد الشام بين عام ١٩٠٩ وعام ١٩١١ .

(24) Marchand, H., « L'Exode des Musulmans Algériens, » in Questions diplomatiques et coloniales ; n° 33, 1912, p. 96.

(25) Bourdarie , P., « L'Ottomanisme et L'éxode Algérien, in » R.I. 1910 P-556.

(26) A.O.M. 9h. (104), Rapport Varnier, Alger 18 juin 1910 .

(27) Bourdarie, op. cit. pp. 559 - 560 .

(٢٨) كانت صحيفة الاخبار قد اصدرتها الولايةالفرنسية العامة سنة ١٨٣٩ محررة باللغة الفرنسية وبداية لسنة ١٩٠٣ وتحت اشراف فيكتورباروكان وتطبيقا لسنة التقرب العام الاسلامي في الجزائر راى « باروكان » ان يضيف لها صفحات باللغة العربية .

وكان Barrucand يدعو الى منح الجزائريين حقوقهم مع المحافظة على الامتياز الفرنسي ،ومن هنا نجد في بعض الصفحات انتقادا مريرا وصريحا- لسياسة المعمرين الحاقدة (باللغة الفرنسية) وتخلو الصفحات العربية- منالمقالات السياسية- ، محمد ناصر : الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ ـ ١٩٣٩ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٧٠ .

(29) Bibliothèque Nationale de Paris, Annexe de Varsaille, presse d'outre mer. El - Akhbar, 3 juil. 1910.

ونفت هذه الصحيفة ان تكون لتركيا يد في هذه الهجرة او ارسال الدعاة للتحريض عليها .

(٣٠) Bibliothèque Nationale de Paris, OP. Cit., Le Tell (Juin 1910).

(٣١) Le Temps, (27 Juil. 1910).

(٣٢) اثرت سنوات الجفاف كثيرا على نفسية الفلاحين الجزائريين وامكانياتهم المادية ولما استمر الجفاف الى سنة ١٩٠٧ اضطر الكثير من الفلاحين الى بيع اراضيهم لتسديد ماعليهم من ديون.

(33) Bourdarie, op. cit, p. 561-562.

(34) perriquet, G., Le Rechat des terres de colonisation par les Indigènes Bull. de la réunion d'etudes algériennes, Paris 1910 p. 124

(35) Bourdarrie, op. cit. p. 552

(٣٦) يقول علي مراد في مقال له : « ان زعيم الشباب التركي انور باشا والذي اصبح وزيرا للحربية سنة ١٩١٤ حمل اهتماما خاصا بالولايات العثمانية السابقة في افريقيا الشمالية ، وكان احد مستشاريه لشؤون افريقيا الشمالية ، وطني تونسي (اصله جزائري) هاجر الى المشرق العربي وهو « صالح الشريف »

Ali Merad, La Turcophilie dans le débat national en Algérie au début du siécle 1911-1918, in R. d'Histoire Maghrébine, 1983.

(٣٧) كان من اسباب رفض الجزائريين التجنيد الاجباري معرفتهم انهم سينقلون الى المغرب الاقصى لقتال اخوانهم المسلمين هناك لذلك كانت هجرة المئات من العائلات هي الرد الوحيد الذي يمكن ان ينقذهم من ذلك وابدى المسلمون الجزائريون تعاطفا كبيرا مع المسلمين في طرابلس الغرب اثناء الحرب التركية ـ الايطالية سنة ١٩١١ وتجلى هذا التعاطف في حملة التبرعات لتقديم المساعدة للمجاهدين ، في حين وقف الاوربيون في الجزائر الى جانب ايطاليا فاظهروا بذلك عداءهم ليس لتركيا فقط وانما لمسلمي الجزائر كذلك .

(38) Bourdarie, op. cit. p. 555.

(39) Ibid , P. 557.

(40) A.A.E., Algériens en Turquie - Lettre du consil général à M.Boppe le chargé d'affaires à Constantinople, Damas, 15 (des. 1910).

ـ ومما جاء في الرسالة ايضا : « .. امامن جهة الرخاء الذي في الشام فلا تسال عليه مثل الفواكه لا لها ثمن ، ايضا اننا سومنا (قدرنا السعر) النعجة فوجدناها بثلاثة فرنك والمعزة بفرنك ونصف وكذلك اهل الشام يضيف(كذا) المهاجرين القادمين ثلاثة ايام حسب العادة الشريعية (كذا) . اننا قد وزنا « راس اللفت » وجدنا فيه ثلاثة كيلو والبطيخة ياكل فيها اربع بيوت .. واسرعوا بالقدوم وبيعوا الغالي بالرخيص لان كل شيء تخلفوه ، والهجرة قد حلت الى الشام الى بلاد الاسلام احسن لكم من بلاد الكفر الذي يرفع اليهود على الاسلام وينصر حق اليهود على الاسلام ولو كان باطل» الدعي لكم الشيخ الحسين والعيد بن الزيتوني المقيمين في الشام ذو القعدة ١٣٢٨ .

(41) Boudarie, op. cit. p. 556.

(42) Le Temps, 27 juil. 1910.

(43) Bardin, P., Les Algériens et les Tuni siens dans l'Ampire Ottoman 1848 - 1914, C.N.R.S. Paris 1979 p; 166.

ومما قالته الجريدة انه « انه وردتنا رسائل عيدمة من اوربيين من منطقة قسنطينة ووهران تقول انه لايجب منع الهجرة الى بلاد الشام لانذلك يوفر المكان للمستوطنين وعلى الحكومة العامة - بالعكس - تشجيع هذه الهجرة بكل مالديها من قوة وامكانات .

(45) « L'Exode des Indigènes de Tlemcen,» in Afrique Fr., jan. 1912 p.38 .

(46) Bourdarie, « nouvel exode Algérien,» in La Revue Indngène N° 6, 1911 .

(٤٧) وجاء ذلك في رسالة وجهها احد الجزائريين الى « بور داري » واستهلها بقوله : « لن نتوجه ان لم يكن اليكم انتم الذين اضطلعتم بمهمة الدفاع عن الاهالي .

(48) Conseil général d'Oran, Exode de Tlemcen; Rapport Barbedette .

(49) Ibid

(50) Ibid

(51) Marchand , op. cit. p. 90.

فقد اعلنت ذلك Journal Jeune Turque في عدد ١٩١١/١١/١٠ عندما نشرت برقية من استانبول «اللجنة المركزية لتجمع المهاجرين الجزائريين» جاء فيها «لقد انشأنا جمعية خيرية للمهاجرين الجزائريين والتونسيين ، وهذه الجمعية لها هدف المساعدة المادية والمعنوية والتعليم وقد حصلنا على الموافقة من الحكومة العثمانية .

A.A.E., Algérien En Turquie, carton N° 281 (1907-1910)

(52) El hack , 14 aout 1911 (Le petit egyptien)

(٥٢) وما ذكرته هذه الصحيفة التي كانت قد نشرت تحقيقا عن الهجرة قبل جريدة L'Echo d'Oran انه يمكننا ان نعد في فاس وحدها (٨٠٠) بيت تلمساني وفي « تطوان » ٤٠ بيت جزائري . وجريدة الحق هذه كانت تصدر في وهران ١٩١١/١٩١٠ ، وكانت في بداية الامر باللغة الفرنسية وفي افريل ١٩١٢ اضافت الى صفحاتها الفرنسية صفحتين باللغة العربية وكان مكتوبا تحت عنوانها هذه الكلمات لنابليون الثالث « اني اريد ان اجعلكم تشاركون شيئا فشيئا في ادارة وطنكم »

(53) El rachidi, D., Organe endependant d'union Franco-Arabe, N° 26, oct. 1911.

(54) L'Islam (Article de Tlemcen) oct. 1911.

(٥٥) اوضح الحاكم العام « ليتو » في تقريره الذي رفعه الى وزير الداخلية الفرنسية انه لم يرغب في تكليف شخص واحد باجراء التحقيق مما سيعطيه صفة ادارية ، بل قرر تكليف لجنة مؤلفة من اداريين ورجل وبرئاسة رجل اجنبي عن الادارة وعن منطقة وهران . وهو السيد Barbedette وبقية اعضاء اللجنة هم على التوالي M.Mirant, M.Dupief

(٥٦) ذهبت الى ذلك اغلبية الصحف التي تطرقت الى الهجرة الجماعية لاهالي تلمسان ، وكذلك التقارير الرسمية .

(٥٧) اوضحت بعض الصحف في مقالاتها عن اسباب الهجرة ان التجنيد الاجباري لم يكن هو الدافع وراء هجرة الاهالي ، بل ان هؤلاء قد يرغبون في التجنيد مقابل الحصول على حقوقهم السياسية

والمدنية ، واوضحوا من جهة اخرى ان اولمعارض للتجنيد انما هم المستوطنون الذين يخشون كثيرا دخول الشباب المسلمين في صفوف الجيش وبالتالي قد يحصلون على حقوق تجعلهم في المرتبة نفسها ، او في مرتبة قريبة للمستوطنين .

(٥٨) ويضيف التقرير ان وضعية المستشارين المسلمين في المجالس البلدية هي ادنى مما كانت عليه منذ ٣٠ سنة مضت اي قبل اصدار قانونعام ١٨٨٤ حول نظام البلديات . ففي هذه الفترة كان كل المستشارين من الفرنسيين والاجانبوالمسلمين يشتركون في انتخاب رئيس البلدية ، اما اليوم فلم يعد مسموحا لاي مستشار مسلم(بحكم القانون) بالاشتراك في انتخاب رئيس البلدية ونوابه وبالتالي لا تؤخذ بعين الاعتبار مطالبهم واقتراحهم من طرف الغالبية الاوربية التي تعتبرهم اقلية لا اهمية لها .

(٥٩) كان يلزم على الاهالي دفع ضريبة سنويـــةلترعى قطعانهم في الغابات وهذه الضريبة تتراوح بين ٢ف/راس الى ٥٠ارؤوس ، وتصل الى ٢٠ف/اعو٦٠ راس و ٦٤ف/ ٩١و١٠٠ راس من الغنم.

(٦٠) من جملة الاشاعات ، القول ان حفلات الزواج ستكون مختلطة ، وسيلزم النساء بالخـــروج سافرات وبارتداء القبعات .

(٦١) واوضحت ان ادارة الغابات ورغبة منها فيتوسيع سلطتها تقوم بفرض القانون على اراض ليست من الغابات في شيء يستعملها الاهالي لرعيقطعانهم وهي بذلك تزيد من حالة البؤس والشقاء التي يعانيها هؤلاء السكان الفقراء وتدفع بهم الى ارتكاب الجريمة .

(٦٢) بعدما كان مقررا تطبيق هذه القوانين الاستثنائية الخاصة بالاهالي لمدة سبع سنوات فقط انطلاق من عام ١٨٨١ ، تم تمديد هـــذهالمدة بعد تردد اعضاء مجلس النواب لمدة سبـــع سنوات اخرى اي الى سنة ١٨٨٩ ـ ثم مدد مرة ثالثة سنة ١٩٠٤ وعرض مرة اخرى على المجلس سنة ١٩١١ لتمديده مع ادخالتغيرات على مواده للتخفيف من وطاته على الاهالي .

(63) rapport du gouvernement général de L'Algérie, A.M. le ministre de L'Imterieur (service de L'Algérie) Paris, émigration d' Indigènes de la région de Tlemcen en Syrie, Alger, le 28 fev. 1912.

(٦٤) كان ذلك ردا على الامير عبد القادر الذيكان يعد الاراضي التي تحت سلطته دار اســلام والاراضي التي تحت سلطة الفرنسيين دار حرب ، وكان يجد في دعوة المسلمين الذين يقيمون في دار الكفر الى الهجرة الى ارض الاسلام .ولا ندري ما مدى صحة الخطوة التي اقدم عليهـا المسيحي الذي اسلم « ليون روش » عندما جاء الى «بيجو» بفتوىتجيز بقاء الاهالي فيالاراضي التي يحتلها الفرنسيون . ومن جهة اخرىفقد رفض مفتي العاصمة دعـــوة الامير عبــــد القادر ورد عليها في رسالة وجهها اليه (توفيهذا الشيخ سنة ١٨٢٧) ونشرت الرسالة كاملة في كتاب محمد بن عبد الكريم ، حكم الهجرةمن خلال ثلاثة رسائل جزائرية ، الشركة الوطنيـة للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٨١ ص ١٠٥ .

(65) Chambre des députés: 1° Seance de 16 dec . 1913. extrait du disconr de M.Abel Ferry .

(66) A.O.M., 9 h. (105), (naturalisation ottomane) Emigration, divers (1910-1918) lettre de M. le ministre des A.F. A. M. le gouverneur général de L'Algérie, Paris, 5 des . 1911 .

(67) A.O.M. 9 h. (105) , Mercine (20 nov. 1911). M . Bone de lancy , conseil chargé de vice - consulat derance à Mercine et Adana .

(٦٨) وجاء الاحصاء على الشكل التالي :

نولـة	٦٠٠
خربة شـباب	٣٠٠
ازدع (حوران)	٥٠٠
كفر ناسج	٥٠٠
جمل دون (حماة)	٥٠٠
كفر سبت (حيفا)	٣٠٠٠
هوشة (حيفا)	١٠٠٠
صفد وعموكة	٢٠٠
ديشوم (صفد)	٢٠٠٠
سمخ	٣٠٠
طبرية	١٠٠
حسينية (حيفا)	٥٠٠
القدس وضواحيها	١٠٠٠
المدينة	١٠٠٠
المهاجرون الجدد	٣٠٠٠

(69) A.O.M. : rapport, Varnier, juin 1910.

حصلت الباحثة من كلية الاداب بجامعة دمشق على شهادة الماجستير في التاريخ برسالتها ((الهجرة الجزائرية الى بلاد الشام بين ١٨٤٨ و ١٩١١)) المعدة باشراف الاستاذ الدكتور محمد خيرفارس.

رجال الإدارة والسياسة والجيش

من الأندلسيين والمغاربة في مصر

من القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع للهجرة

علي أحمد
مرشح للدكتوراة

مقدمة :

لم تكن العلاقات بين مصر والمغرب والاندلس مستقرة على حال واحدة ، فقد كانت طبيعية خلال العصر الاموي ؛ لان المغرب والاندلس كانتا تتبعان في كثير من الاحيان لولاية مصر . تغيرت الاحوال مذ تسلم العباسيون شؤون حكم الدولة العربية الاسلامية ، فانفصلت الاندلس عن المشرق واصبحت مستقلة حتى عن المغرب العربي.

على الرغم من هذه الحال بقيت العلاقات قائمة بين البلدين في جميع الميادين ،انما ليس دوما على نطاق رسمي حكومي او معترف به من قبل رجال السلطة والحكم .

ففي الميدان السياسي ، يمكن القول ان القطيعة كانت شبه كاملة ، اذا ما استثنيت فترة قصيرة سيطر خلالها الفاطميون على الغرب العربي . وعلى الرغم من واقع القطيعة هذه والحالة العدائية التي كانت تخيم على الاجواء السياسية ، فان اتصالات سرية تمت بين بعض قوى البلدين كان وراءها طموح بعض حكام الاندلس للسيطرة على المشرق العربي ليصار الى ضمه الى المغرب والاندلس كما كان الامر قبل مجيء العباسيين الى السلطة . وكان يساعد على ذلك ان عددا كبيرا من المغاربة والاندلسيين كان من أصل مصري ، لان المصريين شاركوا في فتوح المغرب والاندلس كماهو معروف وهنا يجب ان يفرق بين المغرب والاندلس ، لان المغرب باقطاره الحالية كان مسرحا لتغيرات سياسية متتالية . وقامت على ارضه دول متعددة ، كانت تختلف

بولائها للمركز في المشرق . ففيه قامت دولة الفاطميين وسيطرت عليه اكثر من نصف قرن من الزمن ، من أواخر القرن الثالث حتى ما بعد منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي .. وكان الفاطميون يتطلعون باهتمام بالغ الى مصر ، حتى ترجموا تطلعاتهم الى حقيقة واقعية سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م(١) فغدت العلاقة شبه طبيعية حتى كانت سنة ٤٤١هـ/١٠٤٦م عندما قام المعز بن باديس الصنهاجي بالغاء الولاء والطاعة للفاطميين ودعا لبني العباس . ومنذ ذلك الحين بدأت الهجرة العربية الجديدة من مصر الى المغرب لاعادة الامور الى حالتها السابقة(٢) . ولكن النتيجة لم تكن في صالح الفاطميين هذه المرة فعادت العلاقة الى التوتر بين البلدين وظلت هكذا حتى سقوط دولة الفاطميين سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م(٣) .

حدث هذا على مستوى الحكام والسلطات السياسية في البلدين، اما على مستوى الشعب فان حركة الاتصال لم تتوقف لحظة واحدة . وعلى الطرف الاخر من جناح العرب والاسلام (الاندلس) لم يخل الامر من بعض الاتصالات التي تمت بالسر مع بعض اقطار المشرق العربي ، مثل العراق وبلاد الشام وغيرها . ولعل خير مثال على ذلك ما قام به الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر لدين الله الذي كان يرسل الى مصر ، في كل سنة ، ما مقداره عشرة الاف دينار للمالكيين . وكان قصده من هذا تحقيق هدف سياسي يتجلى بالامل والتطلع للسيطرة على المشرق العربي. وحدث ان ظهر خلال هذه الفترة في بلاد الشام بعض الكتب التي تدعو للامويين ، والتي كان حكام الاندلس على صلة بها وربما كانوا المشجعين عليها، ولابد انها وصلت الى مصر بعد ان ظهرت وانتشرت في الشام(٤) .

أما على الصعيد الثقافي والفكري ، فان العلاقة بين القطرين العربيين ، مصر والاندلس ، كانت تمتاز بالحيوية والنشاط، في الوقت الذي كانت فيه الاندلس والمغرب تعتمدان على المشرق مصدرا رئيسيا للثقافة وأمور الفكر ، ومنه مصر ، الذي لم يكن التوجه اليها بالشكل الذي كان بالنسبة لبقية الاقطار العربية المشرقية الاخرى ، كالعراق وبلاد الشام على سبيل المثال ، وبخاصة خلال فترة حكم الفاطميين . فقد جاء اليها محمد بن عبدون العذري سنة ٣٤٩/٩٦١ ، فدرس علوم الطب والصيدلة وعاد الى الاندلس سنة ٣٦٠هـ/٩٧١(٥)، والى الاسكندرية وصل في سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٢م عبد الرحمن بن عتيق الصقلي المعروف بابن الفحام ، وظل يدرس حتى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٥٨م(٦) . والامثلة في هذا المجال كثيرة جدا ، وهي كلها تبرهن على استمرار العلاقة على صعيدا الفكر والثقافة بين البلدين العربيين .. وبالمقابل كان المصريون يقصدون المغرب والاندلس للمشاركة في التدريس ونشر ما يحملونه من علوم هناك ، مثال هؤلاء ، مثل احمد بن ابي عبد الرحمن الزهري ، الذي قدم على الناصر لدين الله بقرطبة سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٢م فقوبل بالترحاب والسرور وأخذ يدرس بقرطبة حتى وفاته(٧) ، وغيره كثيرون .

واتخذت العلاقة الفكرية بين البلدين شكلا آخر ، تجلى بنقل المؤلفات العربية الموجودة في المشرق وبخاصة من مصر الى الاندلس والمغرب(٨) ، وفي الحقيقة لم يبخل المصريون بشيء من علم او معرفة على الرواد المغاربة والاندلسيين فبرهنوا بذلك على أن العداء السياسي يبقى منفصلا دون ان يؤثر على اية ناحية من نواحي الفكر والثقافة، خاصة وان روابط مشتركة ، هي روابط اللغة والاصل والانتماء تجمع بين العرب في اية بقعة من وطنهم الكبير . وهي التي جعلت هذه العلاقة تبدو طبيعية ، واستطاعت بذلك أن تعلو على الخلافات السياسية .

اما في الميدان الاقتصادي ، فان الامور ظلت هي الاخرى طبيعية جدا ، وبقي التعاون قائما في ميادين الاقتصاد المتعددة . ففي ميدان الزراعة اعتمد المغرب والاندلس على مصر ، ونقلوا عددا من طرق واساليب الزراعات المصرية المعروفة ، وهذا ما حدث زمن الاغالبة خلال القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي عندما انتقلت الى المغرب زراعة شجرة القطن وقصب السكر(٩) .

وفي حقل الصناعة ، كان الامر مختلفا ، ويأتي هذا الاختلاف من واقع المعلومات المتوافرة حول ذلك والذي لا يتعدى أكثر من اشارات بسيطة جدا ، لكنها تساعد على الاستنتاج ان التعاون بين مصر والمغرب والاندلس كان قائما خلال هذه الفترة في ميدان الصناعة ، مثال ذلك صناعة السكر ، فالعرب الفاتحون للمغرب والاندلس، والمصريون قسم منهم ، هم الذين نقلو هذه الصناعة الى الاندلس والمغرب(١٠) .

واما التجارة فقد ظلت طبيعية الى درجة كبيرة جدا ، ولم يتوقف تجار البلدين عن الحركة ونقل البضائع بينهما . وكانت البضائع تأتي الى الاندلس والمغرب عن طريق الاسكندرية التي تعتبر المنفذ الرئيسي لمصر على البحر المتوسط الى البلدان الاخرى(١١) . وكانت مصر هي الاخرى تستقبل البضائع من المغرب والاندلس(١٢) .

وهكذا فان العلاقات بين مصر والاندلس قدر لها ان تكون طيبة وطبيعية خلال فترة ما قبل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي موضوع هذا البحث . فقد استقبل المغاربة والاندلسيون في المشرق على هيئة حجاج وطلبة علم وتجار وزائرين خلال هذه الفترة ، لتختلف الصورة خلال الفترة التالية ، فتصبح مصر العربية من اهم اقطار المشرق العربي ، بالنسبة للمغاربة والاندلسيين ، الذين قصدوها واستقروا فيها واصبحوا من مواطنيها بدون معارضة ولا قيود . فما الذي حدث على الساحة الاندلسية حتى لجأت فئة من سكانها الى المشرق ، وبخاصة الى مصر .. وما العوامل التي شجعت على ذلك .

للاجابة على هذا التساؤل يمكن القول ان ماحدث ، وبخاصة في الاندلس ، كان امرا كبيرا وقطيعا من حيث تأثيره وفعاليته ، وبالتالي من حيث النتيجة السلبية التي

انتهى اليها ، وهي ضياع ارض وتشتت شعب وموت حضارة . فالاضطرابات الداخلية التي تجسدت بالانقسامات الحادة وتبدل الدول ثم نجاح الاسبان في السيطرة على معظم نواحي الاندلس ، كل ذلك اجبر مجموعة كبيرة من الاندلسيين على الهجرة باتجاه مصر وبقية اقطار المشرق العربي الاخرى . والامثلة كثيرة في هذا الميدان ، فمنهاماكان من جراء تبدل الدول الذي بدأ بمجيء المرابطين وانحسار دول الطوائف سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، وهجرة قسم كبير من سكان الاندلس نتيجة ذلك، منهم والد ابي بكر بن العربي ، من رجال اشبيلية المعروفين والمعول عليهم ، عشية وصول المرابطين الى الحكم(١٣) ، ومثله كثيرون لاطائل من ذكرهم لكونهم جميعا يشتركون في أمر واحد ، هو الهرب من المرابطين لانعدام التوافق على صعيد المبدأ العام . والامر نفسه حدث عندما زال حكم المرابطين بمجيء الموحدين . فهاجر الكثيرون من الاندلس والمغرب الى المشرق خوفا منهم . مثال هؤلاء الوهراني صاحب كتاب المنامات المعروف، الذي هجر الاندلس والمغرب ونزل مصر ، وفيها عبر عن كرهه الواضح للموحدين في كتابه المذكور آنفا(١٤) . لكن الذي حدث بتأثير التقدم الاسباني باتجاه المعاقل العربية في الاندلس كان أوسع واشمل وأشد فعالية . فلم تأت سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١ م حتى سقطت معظم مدن الاندلس في أيدي الاسبان ، وترافق ذلك باجراءات قاسية وسلبية اجبرت معظم سكان المدن المحتلة على الهجرة منها الى غير رجعة(١٥) . وهذا يظهر بوضوح من خلال تتبع هجرة الاندلسيين باتجاه المغرب والمشرق العربيين . وبمقابل هذه العوامل السلبية المحزنة ، وجدت عوامل ايجابية في المشرق العربي حيث استقر قسم كبير من المغاربة والاندلسيين، وكانت مصر في مقدمة الاقطار العربية المشرقية التي استقبلت عددا من هؤلاء القادمين الذين لم ينقطعوا عن التوافد اليها ، وفي مقدمة هذه الايجابيات ، التي تميزت بها مصر في تلك الفترة من الزمن ، الامكانات الاقتصادية التي اعتبرت في المقدمة بدون منازع وخاصة بالنسبة للاندلسيين والمغاربة الذين لا يملكون شيئا ، فقد كان لمصر وجودها البارز من هذه الناحية ، فهي بلد زراعي وصناعي وتجاري ، يتوافر فيها كل ما يطلبه الناس من لوازم واحتياجات . وهذا ما أكده الرحالة المعروف ابن بطوطة الذي زار مصر خلال الربع الاول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي فوصفها بأنها أم البلاد ، يعيش فيها الفقير الى جانب الغني والضعيف الى جانب القوي(١٦) . يضاف الى هذا أن الغرباء ، ومنهم المغاربة، كانوا يخصون بمساعدات كبيرة جدا من قبل الحكومات والسلاطين الذين تعاقبوا على حكم مصر ، فالغلال توزع عليهم بنسب معينة ، ويرصد لهم ما يكفي لتكفين موتاهم ودفنهم . واختصت السلطات المصرية المغاربة من بين كل الغرباء الذين عرفتهم مدن مصر وحواضرها ، اضافة الى ما ذكر ، بان اوقفت باسمهم بعض الاوقاف وجعلتها للصرف عليهم (١٧) .

الى جانب العوامل الاقتصادية وجدت عوامل اخرى كان لها تاثيرها الفعال على حركة المغاربة والاندلسيين باتجاه مصر ، فالمغاربة والاندلسيون كانت لهم اهتماماتهم

العلمية البارزة التي تجلت بانتشار المدارس ودور العلم . فلم يشارف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي نهايته حتى كان في الاسكندرية والقاهرة وحدهما ما يقرب من ثلاث وسبعين دارا للحديث، واضعاف هذا العدد من المدارس والخانقاهات، التي ما انقطع التسابق الى بنائها والصرف عليها منذ فترة حكم صلاح الدين الايوبي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، حتى الفترة التي يتوقف عندها هذا البحث (١٨) . وبالاضافة الى ذلك ، فان مناهج التعليم وأساليبه التي كانت معروفة آنذاك توافقت مع المبادىء التي كان يعتنقها ويسعى لاجلها المغاربة والاندلسيون.

وكان للعوامل الدينية دورها الفعال في هذا الميدان فساعدت في نشاط حركة الاستقطاب باتجاه مصر التي كان لاسمها وقعه الخاص في اسماع المغاربة والاندلسيين من الناحية الدينية ، فلها ذكر طيب في القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة . يقول الله تعالى : « واهبطوا مصر فان لكم ما سألتم »(١٩) . وفيها أماكن يحترمها المسلمون ويجلونها ، ذكرها الكندي ونقلها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة ، فذكر الطور والنيل المبارك وقبري موسى وهارون ، والنخلة التي ولد عيسى بن مريم تحتها ومساجد ابراهيم ويعقوب وموسى ومارية سرية رسول الله الى غير ذلك(٢٠) . وكان لطبيعة مصر تأثيرها الواضح والمؤثر على حركة المغاربة والاندلسيين ففيها العديد من المدن والنواحي تشبه ما في الاندلس والمغرب ، كالاسكندرية وبعض مناطق الدلتا ، وتأتي اهمية هذا الامر من سرعة التأقلم مع البيئة الجديدة وسهولته الامر الذي أخذ بعين الاعتبار عند الفتح العربي للاندلس ، عندما نزل جند مصر في كورة تدمير بالاندلس لشبه طبيعتها بطبيعة مصر(٢١) . وشبهت منطقة فحص البيرة بمنطقة الفيوم في دلتا النيل(٢٢) .

وأما العوامل الاخيرة التي ساعدت على استقطاب المغاربة والاندلسيين الى مصر، فهي العوامل السياسية وكانت بمعظمها لصالحهم ، فقد لاقوا في مصر كل العناية والترحيب من السلطات الحكومية والرسمية منذ فترة حكم نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي ، حتى نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وشيدت المدارس باسم المغاربة ، والزوايا والخانقاهات الصوفية والمساجد في كل انحاء المشرق العربي وبصورة خاصة في القاهرة والاسكندرية ،حيث كان الوجود الاندلسي والمغربي كثيفا ومتميزا .

بعد هذه المقدمة المقتضبة ننتقل الى دراسة الاداريين والسياسيين والعسكريين، كل على حدة .

١ ــ **الاداريون** : نقصد بالاداريين مجموعة المغاربة والاندلسيين التي عملت في ميدان القضاء والحسبة والدواوين ، الى غير ذلك من التسميات الادارية التي

عرفت واشتهرت في المشرق العربي . ويبدو ان الاداريين المغاربة والاندلسيين كانوا كثيرين جدا ، توصل بعضهم الى تسلم مناصب رفيعة المستوى في المشرق وفي مصر بصورة خاصة ، ويمكن تقسيم هؤلاء الى قسمين رئيسين : العاملون في ميدان الادارة العامة على مختلف درجاتها ، والعاملون في القضاء .

آ ـ **العاملون في ميدان الادارة العامة** : في مقدمة هؤلاء من حيث التسلسل الزمني **سليمان بن ابراهيم ابو الربيع الفرناطي** المتوفى سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م وقد عمل في حقل الحسبة بمدينة القاهرة حتى وفاته . ومن المعروف ان منصب الحسبة كان احد المناصب الادارية الكبيرة(٢٣) .

ولم تخل ميادين الكتابة من وجود اندلسي أو مغربي ، على الرغم من ان اعمال الكتابة كانت نادرا ما تسلم لغير أهل المشرق الذين تميزوا باتقانها والقيام بأعبائها على خير وجه ، وبصورة خاصة كتابة مدينة القاهرة عاصمة الدولة ومقر الحكومة والسلطان. ففي هذا الميدان عمل من المغاربة نزلاء مصر **محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري** من قلعة بني حماد في الاصل الذي اقام ببلدة بوصير من ارض مصر وتسلم منصب كتابة ديوان منطقة الشرقية حتى وفاته سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م ، فمكس السيرة الاخلاقية التي لم يحد عنها معظم من تسلم مناصب ادارية في مصر العربية من المغاربة والاندلسيين ، وهي مسيرة الصدق والامانة والنزاهة والاندفاع في العمل ، وتألم للحالة المأساوية التي كانت تسود تلك الفترة من الزمن ، والتي تميزت بمجانبة الصدق واستغلال المناصب الادارية للصالح الشخصي فثارت في اعماقه مشاعر السخط والاسى على هذا الواقع الصعب فقال :

فقدت طوائف المستخدمينا	فلم أر فيهم رجلا امينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيها	مع التجريب من عمري سنينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا	بهم فكأنما سرقوا العيونا(٢٤)

وعرفت مدينة المحلة الكبرى اداريا مغربيا عمل في ديوان الانشاء موظفا عاديا وهو **رضي الدين محمد بن حمزة المغربي** المتوفى سنة ٦١٥هـ/١٢١٩م(٢٥) .. وبلغت ثقة الحكام المصريين بالمغاربة والاندلسيين حدا كبيرا جعلهم يستخدمونهم في مناصب امانة السجن في القاهرة الذي تسلمه في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، المغربي **ابو الحسن علي بن عثمان الصنهاجي اللمتوني** المتوفي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م . وبرهن من خلال عمله الذي لم ينفصل عنه الا بالموت ، انه اهل للثقة التي أولاه اياها رجال الحكم في مصر آنذاك(٢٦) . كما توصل معاصره **الامير بدر الدين المغربي** المتوفي سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م الى منصب رفيع جدا بمدينة القاهرة هو منصب الدوادارية الذي لم يتسلمه مغربي غيره خلال الفترة موضوع هذا البحث ، لان مثل هذا المنصب

غالبا ما كان يسند الى المقربين من السلطان وحاشيته . وقدعينه فيه السلطان المنصور لاجين وكلفه بتجديد عمارة جامع ابن طولون(٢٧). وفاق جميع الاداريين في مصر والمشرق العربي **عبد الواحد بن اسماعيل الافريقي** المتوفى سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤ م من حيث المرتبة والمنصب الذي شغله بمدينة القاهرة وهو منصب كتابة السر لدى السلطان، وهو من أكبر المناصب الادارية ومن يتسلمه يعتبر احد شخصيات الدولة المرموقة والتي يعول عليها في كثير من الامور التي تهم الدولة والمجتمع ، لاهمية الامور التي يطلع عليها كاتب السر وحساسيتها . وقد تدرج الافريقي في السلم الوظيفي حتى توصل الى هذه المرتبة العالية ، اذ عمل في البداية شاهدا في ديوان أحد امراء الطبلخاناه ، ولما اصبح برقوق امير طبلخاناه استخدمه كشاهد ديوانه ايضا . ثم انتقل بعد ذلك الى وظيفة موقع الدست . وعندما تسلم الظاهر برقوق السلطنة عينه كاتبا للسر فسار فيها سيرة حميدة أرضت الجميع . لكن مدة توليه هذا المنصب لم تدم طويلا ، فمات متأثرا من مرض أصابه قبل أن يبلغ الاربعين(٢٨).. ويبدو أن السلطان الظاهر برقوق، كان لا يثق الا بالمغاربة ، ودليل ذلك انه لما تسلطن للمرة الثانية ، قام بتعيين مغربي آخر لمنصب كتابة السر في الدولة وهو **علي بن عيسى العامري** المعروف **بالكركي** المتوفي سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م ، وكان قد قدم له بعض المساعدات في منفاه بالكرك، فكافأه حين عودته الى السلطنة بهذا المنصب المرموق . وهو كالذي سبقه لم تطل مدته بسبب الوفاة(٢٩) .

وتسلم مغربي آخر كشف منطقة الوجه البحري جميعها، وهو **احمد بن شرف الدين عبد الهادي بن احمد المغربي** المعروف **بابن الشيخ** المتوفى سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م ، ولم يعرف عنه ما يسيء الى سمعته خلال عمله هذا(٣٠) .

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، تسلم الحسبة بمدينة الاسكندرية **يوسف بن محمد الفلاحي المغربي** المتوفي سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧١م وقد اختاره نائبا لهذه الوظيفة سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٦م . وقد حمدت سيرته فيها (٣١) .

ب ــ العاملون في ميدان القضاء : كان منصب القضاء من اهم المناصب الادارية التي شغلها المغاربة والاندلسيون في مصر خلال الفترة المعنية بهذا البحث ، وبخاصة القضاء على المذهب المالكي مع وجود بعض القضاة على المذاهب الاخرى . ومن الجدير ذكره قبل استعراض بعض اسماء هؤلاء القضاة ، أن منصب القاضي المالكي في مصر، وخاصة في مدينتي الاسكندرية والقاهرة ، كان من أقدم المناصب القضائية ، لكون هاتين المدينتين ، وبصورة خاصة الاسكندرية ، تضمان الكثيرين من الذين يتمذهبون بالمذهب المالكي ، زاد عليهم المغاربة الاندلسيون وكلهم على هذا المذهب . الا ان القضاة المالكيين من المغاربة والاندلسيين لم يكونوا جميعا في سوية واحدة ، سواء أكان ذلك

من حيث الاهلية والثقافة ، ام على صعيد الاخلاق والسوية الانسانية . على عكس جميع من عرفتهم مصر في حقل الادارة أو غيرها ، والذين اتسموا بشكل يكاد يكون كاملا بالاخلاقية والجدية في العمل ، والصدق والامانة .. ويعد القضاء على المذهب المالكي ، في الاسكندرية بشكل خاص ، القضاء الوحيد حتى ٧٦٨هـ/١٣٦٧م حين استحدث منصب اخر ، وهو منصب قاضي الحنفية . يقول المقريزي في حوادث سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م ((**واستقر شهاب الدين ابراهيم بن عمر** المعروف **ربيبة الحنفي** قاضيا بالاسكندرية زيادة على قاضيها جمال الدين ابن الريغي المالكي ، ولم يعهد قبل ذلك في الاسكندرية قاضيان))(٢٢) .

وتمثلت اول مشاركة للمغاربة في منصب قاضي المالكية بمصر بحسب معطيات المصادر المعاصرة بوجود **محمد بن الحسن بن عبد السلام** المعروف **بابن المقدسية ابو بكر السفاقسي** ، وهو ابن اخت الحافظ ابي الحسن المقدسي الذي لا يستبعد أن تكون ولادته ونشأته بمصر ، حيث درس بالاسكندرية وتولى نيابة القاضي المالكي فيها حتى وافته المنية سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م(٢٣) . وافتتح قائمة القضاة المستقلين المالكيين بالاسكندرية ، قاضي القضاة **محمد بن ابي القاسم بن عبد السلام الربعي التونسي شمس الدين** المتوفي سنة ٧١٥هـ/١٣١٦م، الذي اهلته ثقافته لهذا المنصب ، فقد درس على عدد من كبار علماء القاهرة ، الامر الذي ساعده لان يفتي ويدرس في عدة مدارس بالقاهرة قبل توليه منصب القضاء بصورة مستقلة ، فانساق وراء شهواته مستغلا ما هو عليه من علو المرتبة والمكانة المرموقة وقبل الرشاوى وسلك جميع الاساليب غير المستقيمة وغير اللائقة بمنصب قاضي القضاة ، وكان **يصرح دائما بقوله:** ((انا اعرف كيف آخذ الدراهم في قضاء الحوائج))(٢٤) .

ولم يكن وجود العاملين في ميدان القضاء من المغاربة والاندلسيين مقتصرا على المدن الكبرى التي كانت محط أنظار الغرباء بشكل خاص ، مثل القاهرة والاسكندرية، بل انتشروا في مناطق كانت أقل سكانا وادنى مستوى، ففي مدينة المحلة الكبرى توصل الى نيابة القضاء على المذهب المالكي **ابو القاسم بن بنون التونسي** ، الذي زاره ابن بطوطة سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦ م خلال مروره بالمحلة الكبرى ضمن رحلته المعروفة ، وكان مايزال على راس عمله الذي مارسه بعفة واخلاص(٢٥) ..

وعلى الرغم من كثافة الوجود المغربي الاندلسي في مدينة القاهرة خلال هذه الفترة فان وصول المغاربة الى منصب القضاء في هذه المدينة بصورة مستقلة جاء متأخرا بعض الشيء ، اذ ولي منصب قاضي قضاة المالكية **عيسى بن مسعود الزواوي** خلال النصف الاول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، وتوفي سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٣ م . وقد تلقى معظم ثقافته التي كانت في غالبها دينية مثل الفقه والحديث والعربية من المغرب في بجاية وتونس ، وبدأ عمله القضائي بمدينة دمشق نائبا لقاضيها

حتى استقل بهذا المنصب في القاهرة ، ولم يؤخذ عليه شيء فيما يتعلق بمجال عمله هذا(٣٦) .

اما معاصره احمد بن محمد المعروف بابن المخلطة الصنهاجي المتوفي سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٨ م فقد ولي قضاء الاسكندرية بصورة مستقلة ايضا بعد اقامة وجيزة بدمشق عشية وصوله من المغرب ، وكان من القضاة الذين حمدت سيرتهم واثني عليهم(٣٧) . ولم تكن اهلية القضاة الذين تسلموا القضاء هي التي اوصلتهم الى حيث وصلوا في كثير من الاحيان ، انما وجدت عوامل على ارض الواقع المصري كان لها تأثيرها ، الامر الذي لا يمكن تجاهله او غض الطرف عنه عند بحث مسألة من هذا القبيل ، مثال ذلك ان السلطان في كثير من الاحيان كان يقدم بعض من وقف الى جانبه في امر من الامور او في مناسبة ما ، ويوليه القضاء بغض النظر عن المؤهلات الثقافية التي لابد من توافرها فيمن يتولى هذه المهمة الصعبة . وهذا ما حدث بالفعل في زمن السلطان الظاهر برقوق وتحديدا خلال فترة سلطنته الثانية سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م ، عندما قدم **محمد الركراكي المغربي** على جميع من في حاضرة حكمه وعينه قاضي قضاة المالكية بالقاهرة ، وهو الذي امتنع عن فتيا ضد السلطان الظاهر برقوق خلال فتنة حدثت قبل تسلمه هذا المنصب بزمن قليل ، مع العلم ان ماضيه الاخلاقي ، لم يكن يؤهله للتربع على عرش منصب القاضي المالكي(٣٨) . فاصبح اداة طيعة في ايدي السلطان وحاشيته فحاباهم ونفذ كل ما طلبوه منه في ميدان عمله ، الامر الذي جعل بعض من رثاه يفصح عن ذلك بوضوح تام ، ومنهم عيسى بن حجاج الذي قال فيه :

لهفي على قاضي القضاة محمد الف العلوم الفارس الركراكي
قد كان رأسا في القضاء فلاجل ذا حزنت عليه عصابة الاتراك(٣٩)

ولعل أعظم من ولي القضاء على المذهب المالكي من المغاربة والاندلسيين في مصر كلها من حيث المؤهلات العلمية والقضائية والسيرة الحميدة والسلوك المستقيم القاضي **عبد الرحمن بن محمد بن محمد ولي الدين الحضرمي المعروف بابن خلدون** المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م ، الا انه على الرغم من أهليته التي لا شك فيها عزل عن عمله وأعيد مرات عديدة ، كان اخرها السنة التي فارق الحياة فيها . والسبب في ذلك يعود الى انه وجد في عصر كان فيه سلاطين المماليك ورجال الحكم من معاونيهم لا يقيمون وزنا للنزاهة وخاصة في منصب حساس مثل منصب القضاء ، لانها تطال بالضرورة مصالحهم ، وهي في نظرهم تتقدم على كل شيء . لذلك كان ابن خلدون الذي اتصفت احكامه بالصرامة والاستقلال يعزل لاتفه الاسباب واقلها شأنا وموضوعية ، كرفض وساطة للسلطان او غيره من الامراء الذين جعلوا من منصب القضاء وسيلة لجمع المال والثروة ، على اعتبار انه كان يباع لمن يدفع أكثر من المال دون النظر الى اهلية المشترى العلمية والاخلاقية شأنه في ذلك شأن المناصب الادارية الاخرى . وقد صور المقريزي

هذا الجو الفاسد بقوله : « فاذا اراد احد ولاية شيء من الامور تحدث مع حاشية الامير بركة حتى يتقرر له ما يريد ، ثم يستقر فيما يقرر فيه من الوظائف .. غير أن الولايات كلها من القضاء والحسبة وولاية الحرب في الاعمال والكشف وسائر الوظائف ، لاسبيل أن ينالها أحد الا بمال يقوم به او يلتزم بادائه ويكتب به خطه ، فتطاول كل نزل وذل وسفلة الى ما سنح بخاطره من الاعمال الجليلة والرتب العلية ، فدها الناس من ذلك بداهية دهياء ، أوجبت خراب مصر والشام »(٤٠) ..

وذكر ابن خلدون عن نفسه ، وذكره غير واحد ، أنه سلك عكس ما اراده بعض من ضعفت نفسه من أهل السلطة والحكم في عصره .. فقد سلك طريق الحق في كل أحكامه ، الامر الذي لم يعجب الكثيرين من ذوي الشأن الذين اعتادوا على أن تكون جميع طلباتهم مقبولة وشفاعاتهم مستجابة ، وهذا ما رفضه ابن خلدون، فكثر الشغب عليه وأظلم الجو بينه وبين أهل الدولة . ويذكر أن ذلك توافق مع مصابه بفقد أهله وماله في السفينة التي غرقت وهي في طريقها الى مصر(٤١) .

وقد طال أمد عدم وجود المغاربة والاندلسيين في منصب القضاء المالكي بعد ابن خلدون إكثر من ربع قرن من الزمان في مدينة القاهرة ، حتى جاء واحد منهم وبصفة نائب للقاضي المالكي هو **علم الدين أحمد بن تاج الدين محمد بن محمد الاندلسي** المتوفى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٩م . وهو من الذين ولدوا بمصر وترعرعوا فوق اديمها وكان مثالا يحتذى في عمله ، ترفع عن سقطات القضاة ذوي النفوس الضعيفة والضمائر الميتة ، الذين اتخذوا من القضاء وسيلة لجمع الثروة(٤٢)،واحدهم شغل منصب قاضي قضاة الاسكندرية وكان من الذين عرفوا بجهلهم المطبق بالمعارف الضرورية لمن يريد العمل في هذا الميدان كعلوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير ، وهو **أحمد بن سعيد التلمساني** المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢ م . ومع ذلك فقد سار في وظيفته مسيرة حق واستقامة(٤٣) . وعلى النقيض منه من جهة المؤهلات ، اشتهر بالقاهرة نائب للقاضي المالكي **نور الدين الرهوني المغربي** المتوفى سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٦م ، وعرف بشدة تهوره في أحكامه واقدامه على ظلم الناس وأتى على تنفيذ احكام لا يقدم عليها أحد من القضاة الواعين (٤٤) .

وتسلم ، خارج مدينتي القاهرة والاسكندرية ، منصب قاضي قضاة المالكية المغربي **محمد بن محمد** المعروف **بابن حريز** المتوفى سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٩م بمدينة منفلوط .. وجمع هذا القاضي ما يحتاجه أمثاله من معرفة ومؤهلات وامانة وحرص على الحق ونصرته في احكامه . وهذا ما اجمع عليه كل الذين عاصروه وفرحوا به لما خلف القاضي ولي الدين السنباطي بمدينة القاهرة(٤٥) .. وولي **محمد بن محمد الريفي** المتوفى سنة ٨٨١هـ/١٤٧٧ م ، نائبا للقاضي المالكي بالاسكندرية فترة تقرب من عشرين عاما لم يعرف عنه خلالها ما يسيء اليه(٤٦) . واشتهر من آل حريز الذين

كانوا يسكنون مدينة منفلوط عمر بن محمد سراج الدين المغربي المنفلوطي المتوفى سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م ، الذي حصل على ثقافته الواسعة من شيوخ مكة ومنفلوط ، وتميز باخلاقه واحكامه الحيادية المنصفة لم تحرفه عنها حالته المادية البائسة وديون اخيه الذي تكفل بتاديتها عنه ، فكان مثال القاضي الذي لايرى بدلا عن امتثال الحق في ميدان عمله(٤٧) . وخلفه في القضاء المالكي بالقاهرة القاضي ابراهيم بن محمدالمغربي المتوفى سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م ، الذي كان كسابقه متنوع المعارف فباشر عمله القضائي سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢ موانتهى منه سنة ٨٨٦ هـ/١٤٨٢م . وادى عزله الى الاسف والحسرة لما اتصف به من دقة وصلابة في احكامه ، التي لم يراع فيها غير مصلحة القضاء (٤٨) .

والشيء اللافت للانتباه هنا ، أن جميع القضاة الذين التزموا في مهماتهم القضائية جانب الحق والصدق والامانة تعرضوا للمضايقات وانتهوا نهايات محزنة مثل العزل، وجدوا ان من مصلحتهم تنفيذ مايريده السلطان ومعاونوه الذين لم يروا الا مصالحهم الشخصية ، فتهافتوا على جمع المال غير آبهين بمصالح الناس ولا بقذارة الوسائل التي توصل الى ذلك . وعكس ابن تغري بردي هذه الحال في كتابه النجوم الزاهرة كمافعل المقريزي من قبله ، عندما تفاقمت الامور واصبحت اسوء مما كانت عليه زمن المقريزي، علما ان ابن تغري بردي ينتمي بالاصل الى المماليك الذين حكموا مصر والشام(٤٩) .

وهكذا فقد كان للقضاة المالكيين دور مهم في الحياة الاجتماعية بمصر من خلال منصب القضاء ، وتأتي اهمية هذا الدور من شهرتهم بالاحكام الصعبة والقاسية من حيث نتيجتها ، فجميع المسائل الكبرى التي كانت تواجه القضاة من المذاهب الاخرى تحال الى القاضي المالكي ، مثل قضايا الكفر والالحاد والزندقة والخروج على الدين، وقضايا الخيانة . فيشبه بذلك ما يسمى في هذه الايام بقاضي (محكمة الامن القومي او محكمة امن الدولة العليا) والامثلة في هذا الميدان كثيرة جدا ، منها انه سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨ م ادعي عند القاضي المالكي علىالطبغا الحلبي والطبغادوادار جنتمربأمورتقضي الكفر ، فحكم باراقة دمهما واعدما (٥٠) . وحدث في سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٤ م أن جماعة بالقاهرة اتهموا بالزندقة فأحيلوا الى القاضي المالكي الذي أمر بضرب رقاب ستة منهم(٥١) . وكذلك كانت عاقبة من يرتد عن الاسلام (٥٢).

واما من كان يتآمر على الدولة بتعامله مع الاعداء ، فانه كان ينتظر قرار القاضي المالكي الذي لم يكن بأقل من الموت، مثال ذلك أن السلطان قام بتكليف القاضي المالكي شمس الدين محمد البساطي سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩ م بالنظر بقضية الجاسوس العجمي علي التبريزي ، الذي اتصل بملك الحبشة وهون عليه أمر المسلمين ، فحاكمه القاضي المذكور وحكم عليه بالاعدام(٥٣) .

اما نواب القضاة ، فان عددهم لم يكن ثابتا ، كأن يكون ذلك عرفا أو عادة ففي بعض الاحيان كان عددهم يصل الى نحو خمسة عشر نائبا عند القاضي الشافعي،

وعشرة عند القاضي الحنفي ، والى سبعة نواب عند القاضي المالكي ، ومثل هذا العدد عند القاضي الحنبلي واحيانا اقل . ولعل خير اشارة الى ذلك وجدت عند ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة حيث ذكر انه في سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م امر السلطان بعزل جميع نواب القضاة الاربعة ، وكان عددهم يومئذ مئة وستة وثمانين قاضيابمدينة القاهرة وحدها . فقرر السلطان ان يكون لكل قاض ثلاثة نواب فقط . ويعلق ابن تغري بردي على ذلك بالقول : « وما كان احسن هذا لو دام او استمر . وقد تضاعف هذا البلاء في زماننا ، حتىخرج عن الحد ، وصار لكل قاض عدة كبيرة من النواب ». وعلى الرغم من الضغوط المستمرة التي مارسها رجال الحكم من الامراء على السلطان، فقد قرر ان يكون للقاضي الشافعي عشرة نواب ، وللقاضي الحنفي خمسة وللقاضي المالكي اربعة(٥٤) . وفي سنة ٨٣٣هـ/١٤٣٠ م قرر السلطان أ نيكون للقاضي الشافعي أربعة نواب وللحنفي ثلاثة ، واثنان لكل من القاضي المالكي والحنبلي ، ليرتفع عددهم بعد مضي ثلاث سنوات ، فيصبح للقاضي الشافعي خمسة عشر نائبا بمصر كلها ، وللحنفي عشرة ، وللقاضي المالكي سبعة ، وللحنبلي خمسة .. وبعد فترة قصيرةعادوا الى ما كانوا عليه في البداية دون معرفة السلطان(٥٥) . وهذا يدل بصورة واضحة على الواقع المر ، الذي كان يعاني منه الحكم المملوكي من فوضى وعدم استقرار وتفشيكل ما هو سيء ورديء .

وكان القضاة يمارسون أعمالهم في معظم الاوقات في مكان يعرف بدار العدل او ما شابه ذلك في قلعة الجبل بمدينة القاهرة ، وبأمكنة متنوعة في بقية المدن والحواضر، وان كان معظمها في مقر الحاكمأو النائب(٥٦) ، وهو يشبه ما يسمى في ايامنا هذه (قصر العدل) .

٢ ــ **السياسيون** : وهم مجموعة من المغاربة والاندلسيين ، لم يتعد عدد أفرادها أصابع اليد ، تدخلوا في شون الحكم والسياسة وكان لهم رايهم الخاص في هذاالمجال، وبخاصة في فترة حكم المماليك . وكان لواحد منهم طموح لتولي السلطة ، الامر الذي لم يوجد عند احد من العربالمشارقة على الاطلاق. واعتبر تدخلهمفي شؤون السياسة، التي كانت تنتهجها طبقة الحكم آنذاك من أشد الامور مساسا بمركز السلطان .. لانه لم يسبق لاحد أو لجماعة ان تدخلت في شؤون السلطنة من اهل البلاد الاصليين ، فالمشاكل من هذا القبيل تصدر عن المماليك انفسهم .

الحادثة الاولى كانت خلال فترة حكم صلاح الدين الايوبي ، لكنها لم تكن بقصد الاضرار بالسلطة الايوبية بقدر ما كانت لاجل ترسيخها وتقويتها ، وهي ما قام به **اليسع بن عيسى بن حزم الجياني** المتوفى ٥٩٥هـ/١١٩٨م الذي تجرأ وخطب باسم العباسيين في أواخر ايام الفاطميين في مصر .. وكانت مبادرة منه دون توجيه من صلاح الدين الايوبي لم يتجرا احد غيره على القيام بها . ونجحت المبادرة فنال مكانة مرموقة عند صلاح الدين الذي ظل يكرمه حتى اخر ايام حياته(٥٧) .

وكانت الحادثة الثانية سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٢م ، وتتلخص بقيام أحد المغاربة بمجادلة جركتمر بن بهادر احد الامراء المماليك انذاك بالقاهرة ، وكان المغربي يتهمه بانه قتل الملك المنصور بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، الذي خلفه بالسلطنة مباشرة بعد موته ولفترة قصيرة لم تتعد بضعة اشهر . وبلغت الجراة بهذا المغربي ان كتب بذلك الى الامير قطلوبغا الفخري . فقبض على المغربي ، ولا ريب في ان مصيره كان القتل ، فلا رحمة فيمن يطرح مثل هذه الامور وعلى الاخص في فترة من أصعب فترات التاريخ العربي الاسلامي واحلكها وهي فترة حكم المماليك في المشرق العربي(٥٨) . ولايذكر المقريزي اسم هذا المغربي على الرغم من دقته وشدة ملاحظته بالاضافة الى انه المصدر الوحيد ، الذي اتى على هذه الحادثة .

وبلغ الامر ببعض نزلاء القاهرة الدائمين من المغاربة الى ارجاع سوء الحالة الاقتصادية وتفاقم الامور وتدهورها الى سياسة السلطان نفسه ، فقد اتهم مغربي جريء السلطان بأنه السبب فيما وصلت اليه حالة الاقتصاد من سوء وتدهور ، وتحمس بصورة كبيرة لهذه القناعة التي تكونت عنده حتى اخذ يدعو الناس في القاهرة للتخلص من السلطان . وحدث ذلك سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٤م التي عمت خلالها موجة من الغلاء والقحط لم يعهد لها مثيل من قبل على حد قول من كتبوا عنها . وبلغ الامر بهذا المغربي ، الذي لم يذكر المقريزي اسمه أيضا ، الى التوجه الى مكان قريب من القلعة مكان اقامة السلطان والامراء وتحريض الناس علانية على قتل السلطان والتخلص منه لان في ذلك مفتاح حل الازمات التي تعاني منها مصر في ذلك الوقت . يقول المقريزي : « وفي ثالث عشر ذي الحجة ، قبض على رجل مغربي ، كان يقف في الليل تحت القلعة ويصيح ، اقتلواسلطانكم ترخص اسعاركم ويجري نيلكم فضربه والي القاهرة وتركه لحاله »(٥٩) .

والحقيقة ان السبب الذي دفعه لان ينادي بقتل السلطان لا يمكن التكهن به انما يمكن القول ان السبب في ذلك ، ربما يعود الى ان السلطان كان بمقدوره ان يحرك الازمة باتجاه الافضل اذا ترفع على جشعه وطمعه ، لان حكام مصر المماليك ، من امراء وسلاطين ، لم يكن همهم الا انفسهم ومن يدور في فلكهم من ابناء جنسهم ، فاحتكروا التجارتين الخارجية والداخلية وسيطروا سيطرة تكاد تكون شبه كاملة على جميع مصادر الثروة لصالحهم الشخصي .

وحادثة رابعة تدخل من خلالها المغاربة في أمور السياسة كانت من اخطر الحوادث على مستقبل السلطان والحكم بصورة عامة ، وبطلها احد المغاربة الذي قام بالتخطيط مع بعض أمراء العرب للاطاحة بالسلطان المملوكي والتخلص من حكم المماليك نهائيا . لكن هذا التخطيط لم يكن له من العمق والارتكاز على ثوابت موضوعية ما يمكن صاحبه من الوصول الى ما يهدف اليه . وكان ان اخفقت اول واخر محاولة من هذا القبيل

خلال العصر المملوكي . وهي ان دلت على شيء ، فعلى ان المغاربة والاندلسيين نزلاء المشرق العربي . كانوا على درجة من الوعي والنضوج بصورة تدعو للقول انهم تفوقوا على اضرابهم من المشارقة .. وصاحب هذه المحاولة الفريدة في عصر المماليك **جمال الدين محمد العنابي** المتوفى سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م ، وهو الذي اختصه السلطان الظاهر برقوق وقربه اليه وملخص محاولته الفاشلة قيامه بالاتصال مع الأمير العربي موسى ابن محمد بن عيسى وهو في السجن بأمر السلطان برقوق ، وعرضه عليه ان يخبر جميع انصاره بان يحضروا الى قريب من القاهرة وينتظروا حتى يخرج السلطان ــ الذي كان على وشك الخروج الى الشام ــ ومن ثم يهاجمون القاهرة يدعمهم في ذلك خمسمائة مملوك بقيادة العنابي من داخلها ويسيطرون عليها . وبعد ان تتم عملية السيطرة على القاهرة ، يعلن العنابي خليفة وشهاب الدين بن قايماز اتابكا للجيش ، ويتم ايضا تعيين سلطان جديد ، ومن ثم تنفيذ ما يراه هؤلاء مناسبا من الاعمال .. لكن الامير السجين لم يوافق على ما يبدو على خطة العنابي لانه لم يعطه منصبا قياديا كبيرا ، فكان ان سلم مذكرة العنابي الى من اوصلها الى السلطان الذي امر باعتقال العنابي واجرى معه تحقيقا طويلا اعترف هذا من خلاله بخطته الرامية لقلب نظام الحكم والاطاحة بالسلطان فصدر الامر بقتل هذا المغربي(٦٠) وبذلك انتهت اول محاولة تجرأ مغربي ان يقوم بها . وتدل هذه المحاولة على مدى الوعي الذي تجسد في الاوساط الشعبية وعدم رضاها عن الحكام المماليك الذين عاشوا في غربة دائمة كانت تفصلهم عن الشعب والارض على حد سواء في كل تصرف وفي كل خطوة خطوها على ارض المشرق .

٣ ــ **العسكريون** : والجهة الاخيرة المهمة التي شارك فيها المغاربة والاندلسيون في مصر هي مؤسسة الجيش . فمن المعروف ان الاعداء التاريخيين الذين هددوا وجود العرب وكيانهم منذ اواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تجسدوا بالدرجة الاولى فيمن عرفوا باسم الصليبيين ، وكان من الطبيعي ان يتطوع المغاربة والاندلسيون لمحاربتهم ، وهم الذين شاركوا وساهموا في طرد العرب من الاندلس . ومما يلفت الانتباه ان من تطوع وشارك في الجيش المصري من المغاربة والاندلسيين عمل في سلاح البحرية . وتفوق هؤلاء في هذا المجال لكونهم ابناء بيئة بحرية ، وهم من ذوي الخبرة في شؤون البحر . والبحث في هذا الامر ، لابد من ان يصطدم ببعض العراقيل ، فالمصادر تضن بمعلوماتها وكل ما نجده إشارات في سياق اخبار اخرى . ولكن لهذه الاشارات اهميتها البالغة لانها تدل على الحجم الكبير لمشاركة المغاربة والاندلسيين في مؤسسة الجيش في مصر .

ولعل اول اشارة في هذا المضمار وردت عند ابن جبير في رحلته المشهورة ، اذ يروي انه في سنة ٥٧٩هـ/١١٨٤م ، جاءت جماعة من نصارى الشام فاستولوا على بضاعة كان تجار اليمن يحملونها في ميناء عيذاب .. وفوق هذا فقد اشاعوا انهم بصدد اخراج ضريح الرسول العربي الكريم من الحجاز ، واقتربوا من المدينة ، فجهزت مراكب

من مصر والاسكندرية برئاسة الحاجب المعروف بلؤلؤ ومعه نخبة من انجاد المغاربة البحرين لحقوا بالنصارى المذكورين وتمكنوا من ابادتهم جميعا(٦١) . وتجسد وجود المغاربة بشكل رئيسي بمدينة الاسكندرية القاعدة البحرية المهمة التي كانت تنطلق منها القطع البحرية المصرية الى المناطق الاخرى . ويفهم من بعض الاخبار أن المغاربة توصلوا الى أرفع المناصب القياديةفي بحرية مصر العسكرية، فتوصل احدهم الى مرتبة رئيس في البحرية . ويذكر اليونيني صاحب كتاب ذيل مرآة الزمان ، أن من بين الاسرى الذين اسرهم الفرنج سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٥م بالقرب من قبرص الرئيس **شهاب الدين ابو العباس المغربي** . ولا يعطي اليونيني تفاصيل وافية عن تدرجه في البحرية المصرية، حتى وصل الى هذه المرتبة . لكن الذي يفهم من لقبه (الرئيس) أنه كان من القادة المشهورين في عصره ، اذالم يكن قد تسلم رئاسة بحرية مصر خلال فترة خدمته العسكرية . ودليل ذلك انه اثر عودته من احدى الغزوات طلبه الظاهر بيبرس ومن كان معه من الجنود ووبخهم ، فبادر للدفاع عن نفسه ومن كان معه(٦٢) .. واتفق أن احد الامراء المغاربة ولامور غامضة ترك بلاده ولجأ الى القاهرة وفيها عمل في الجيش المصري البري ، وهو **ابو دبوس عثمان بن سعيد المغربي** امير قابس ، الذي أقطع فيها بعض الاقطاعات . ويذكر ابن كثير انه كان يركب مع الجند في زي المغاربة متقلدا سيفا . وكان نظاميا لا يتغيب عن الخدمة وظل هكذا حتى وفاته سنة ٧١٣هـ/١٣٣١م(٦٣).

وكان المغاربة في مقدمة المتطوعين والمندفعين اذا ما طلب منهم ذلك ، وفي معظم الاحيان يسبقون أهل البلاد الاصليين الى مسألة الدفاع . ذكر المقريزي في كتابه السلوك أن الامير يلبغا الاتابك اهتم بعمل الشواني البحرية لغزو الفرنج ، وبعد اتمام العمل : « نودي بالقاهرة ومصر بحضور البحارة والنفاطة ومن يريد الجهاد في سبيل الله الى بيت الامير يلبغا الاتابك للعرض واخذ النفقة للسفر في المراكب ، فاجتمع عدة من المغاربة رجال البحر وكتبت اسماؤهم وقررت لهم المعاليم واقيمت لهم نقباء وقاموا بمساعدة صناع المراكب » وقد حدث ذلك سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٦م(٦٤).. ويقول في مكان اخر وضمن حوادث سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م مايلي « .. كملت عمارة الشواني البحرية وعدتها ماية قطعة ما بين غربان وطرائد ، فاستخدم الامير يلبغا من الرجال مايكفيها، وجمعهم ما بين مغاربة وتراكمين وصعايدة ورتب لهم رؤساء ونقباء وانفق فيهم المعاليم المقررة وشحن الاغربة بالعدد الحربية وجميع الات السلاح ... »(٦٥) .

وتكرر تسلم المغاربة لقيادة الاسطول الحربي في مصر في بعض الغزوات ، كما حدث سنة ٧٦٩ هـ/١٣٦٨م عندما تسلم قيادة الاسطول **الحاج محمد التازي المغربي**. يقول المقريزي : « وقدم الحاج محمد التازي المغربي رئيس البحر ، وقد تسلم من الشواني التي عمرها الامير غرابا اكمله بالعدد والالات وشحنه بالمقاتلة من رجال المغاربة، واخذ غرابا آخر من الاسكندرية مكملا بالعدد والرجال . ومضى في البحر وهجم على الفرنج فملك منها غرابا قتل منه جماعة واسر باقيهم . وقدم في التاسع والعشرين من

شعبان ، فتلقاه جماعة من الامراء بتجمل عظيم وخرج الناس الى لقائه وسروا بـه ، فلما تمثل بين يدي السلطان خلع عليه وأنعم عليه بجميع ما احضره من الغنائم »(٦٦).
ويبدو ان معظم البحارة الذين وجدوا بصورة دائمة في مواقع البحرية بمدينة الاسكندرية كانوا من المغاربة ، ودليل ذلك انه في سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٩م هوجمت الاسكندرية فتولى المغاربة الدفاع عنها بشكل رئيسي . يقول المقريزي: « وفي يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، قدم الخبر بنزول اربع قطايع على الاسكندرية من الفرنج وانهم رموا المدينة بمنجنيق ، فخرج تلك الليلة ثلاثة وعشرون اميرا منهم ثلاثة من الالوف وعشرة من الطبلخاناة وعشرة من امراء العشرات ، فقدم الخبر في عشية السبت ان المغاربة والتركمان نزلوا في المراكب وقاتلوا الفرنج وقتلوا منهم نحو المائة وغنموا منهم مركبا » (٦٧) .

وقد دلت بعض الاحداث ، التي ذكرها المؤرخون عن مشاركة المغاربة في اعمال البحر انه لم يكن في سلاح البحرية المصرية اشجع من اهل المغرب والاندلس . وتكاد شهرتهم في هذا الميدان تعلو كل شهرة ، وانه كان لايدانيهم في صدق العمل وشدة الاندفاع اية مجموعة اخرى . ففي سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٦م فوجيء اهل مدينة الاسكندرية بالفرنج في عقر دارهم وهم على حالة من عدم الاستعداد والغفلة ، فبادر المغاربة بالنزول الى البحر بدون لباس ولا مراكب واستطاعوا ان يقبضوا على غراب القدمة المعادي واقتادوه باتجاه الشاطيء بقصد حرقه ، الامر الذي لم يتم لان الرماة لم يكونوا على استعداد لهذا الامر . ويذكر المقريزي ، ان هذه المجموعة من المغاربة اشتبكت بعد ذلك مع ركاب الغراب بالسيوف على الشاطيء(٦٥) .

واستمرت مشاركة المغاربة والاندلسيين مع مرور الايام في الجيش المصري ، وقد اصبحوا من سكان المشرق مثلهم مثل السكان الاصليين لا يمتازون عنهم . ففي زمن السلطان الاشرف برسباي وخلال النصف الاول من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، شاركوا في غزو قبرص ، وكان منهم **حسين بن احمد المغربي المعروف بالطولوني** الذي غزا مع الغازين ثم عاد وتوفي سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٦م(٦٩) . على هذا لم يكن المغاربة والاندلسيون سلبيين بل قدوة جيدة في العمل والمسار العام ، باستثناء بعض الحالات الشاذة ، وساعدهم ذلك على الوصول الى ارفع المناصب الادارية كالقضاء والحسبة وكتابة السر والدوادارية وغير ذلك ، وكانوا في الميدان العسكري من اخلص العناصر .

ويستخلص مما سبق عرضه ، ان الوطن العربي عاش دوما في وحدة شبه كاملة، لم تعرف بلدانه الحدود الفاصلة ولم يعرف سكانه الا جنسية واحدة ، ولم يحتج العربي قط الى اشارة مرور واذن بالعمل والاقامة . ولا يمكن وصف التمزق الذي عرفه الوطن العربي في الماضي بالتمزق السياسي لما لهذه الكلمة في هذه الايام من معان، بل ان الامر لم يتعد وجود حكام مختلفين هنا وهناك ، والفرق شاسع فيما بين تعدد الحكام وتباين مصالحهم ، والتمزق السياسي .

الحواشي :

(١) ابن العماد الحنبلي (عبد الحي) شذرات الذهب ،ج٣ ، الطبعة الثانية دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ ص ٥٢-٥٤ .

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين) أعمال الاعلام ج٣ ، تحقيق احمد العبادي ومحمد الكتاني،. دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ص٥٩-٧٢ .شذرات الذهب .ج٣ ص ٢٦٤ .

(٣) ابن دحلان ، خلاصة الكلام في بيان امراءالبلدالحرام ، الطبعة الاولى ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ١٣٠٥ هـ ، ص ٢٠ .

(٤) المسعودي (علي بن الحسين) مروج الذهبومعادن الجوهر ، ج٤، تحقيق شارل بلا ، بيروت ١٩٧٣ . الجاحظ ، كتاب العثمانية ، (تح) عبد الله محمد هارون ، طبعة مصر ١٩٥٥ ، ص ١٣٦

(٥) الصفدي (صلاح بن ايبك) الوافي بالوفيات،ج٣، (تح) محمد بن عبد الله ومحمد بن محمود باعتناء س.ديدرينغ ، دمشق ١٩٥٩ ص٢٠٧.

(٦) القفطي (علي بن يوسف) انباه الرواة علىأنباه النحاة ، ج٢ ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم،دار الكتب المصرية ،القاهرة ١٩٥٥ ص١٦٤-١٦٥.

(٧) المقري (احمد بن محمد) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ،ج٣(تح) احسان عباس ،دار صادر ،بيروت ١٩٦٨ ص ١٤٣.

(٨) انظر عددا من الامثلة ، ابن مخلوف (محمد)شجرة النور الذكية في طبقات المالكية، الطبعة الاولى، دار الكاتب العربي ، بيروت ١٣٤٩ هـ ص٩٧.

(٩) شجرة النور الذكية ، ص ١٢١ .

(١٠) يعقوب (جورج) اثر الشرق في الغرب خاصة في القرون الوسطى ، ترجمة فؤاد حسنين علي ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٦ ص٩٧ .

(١١) الحميري (محمد بن عبد المنعم) الروض في خبر الاقطار ،(تح) الدكتور احسان عباس ، دار العلم للطباعة ، بيروت ١٩٧٥ ص ٥٨٣. وانظر حول بعض التجار المصريين الذين اتجروا مع الاندلس : ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة ، ج٢ ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٦٣٩.

(١٢) نفح الطيب ، ج٣ ص ٢٤.

(١٣) البكري (عبد الله بن عبد العزيز) صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، ص ١٨٨.

(١٤) الوهراني (محمد بن محمد) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ، (تح) ابراهيم شعلان ومحمدنغش، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ ص١١.

(١٥) البتنوني (محمد لبيب) رحلة الاندلس ،الطبعة الاولى ، مطبعة الكشكول ، القاهرة ١٩٢٧، ص ١٣٧ . محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، ق٢ ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٦٤ ص٦٢٧ .

(١٦) ابن بطوطة : (محمد بن عبد الله الطنجي)مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، دار صادرللطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٤ ص ٣٦٠ .

(١٧) السيوطي (جلال الدين) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ج٢ (تح) محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة(بت) ص ٣٢٤. اليونيني (موسى بن محمد) ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، الطبعة الاولى ، حيدراباد ـ الدكن ١٩٦٠ ص ٢٥٢ . ابن حجر (أحمد بن علي) انباء الغمر بانباء العمر ، ج١ (تح) حسن حبشي ، دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٦٩ص٤٤ .

(١٨) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٤ وما بعدها . الخطط المقريزية مجلد ١ ص ١٧٢ .

(١٩) سورة البقرة (الاية ٦١) .

(٢٠) حسن المحاضرة ، ج١ ، ص ٣٢٤.

(٢١) ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن) كتاب العبر والمبتدأ والخبر ، ج٤ ، بيروت (بت)ص١١٩.

(٢٢) الروض المعطار ، ص ٤٥-٤٦ . والحسبة هي من الوظائف التي ينظر صاحبها (المحتسب) في الرقابة على جميع النشاطات الاقتصادية وبعض الاعمال الاخرى كالاشراف على السقائين ومعلمي الصبية والسباحة والمكاييل والموازين والاقوات ودار العدل (صبح الاعشى ٥/٥١) .

(٢٣) نفح الطيب ج٢ ص ٦٣٩

(٢٤) الوافي بالوفيات ، ج٢ ، ص١٠٠ ومابعدها.

(٢٥) الوافي بالوفيات ، ج٤ ص٣١٣ .

(٢٦) ابن فهد ، لحظ الالحاظ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (بت) ص ٨٤ . والدوادارية وظيفة يشرف صاحبها على مصالح السلطان وينفذ ما يأمره به ولا يكتمه شيئا ولو كان على نفسه (التعريف بالمصطلح الشريف ص١٥٠) .

ـ المنصور لاجين هو احد سلاطين المماليك الذي حكم سنتين وشهرين ويسمى أيضا علم الدين سنجر الدواداري (السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم ٣ ص ٨٢٧-٨٥٩) .

(٢٧) المقريزي (أحمد بن علي) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ قسم ٣ ، (تح) محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٦٤ ص ٨٨٢-٨٨٣ .

ـ كتابة السر وظيفة يقوم بها صاحبها بادارة ديوان الانشاء التي تصدر عنه جميع الرسائل والمكاتيب الداخلية والخارجية (المنتقى من صبح الاعشى لعبد القادر زكار ٦٣/١).

ـ الطبلخاناه وظيفة ديوانية موضوعها التحدث في استخراج الاموال السلطانية ، ويكون صاحبها رفيقا للوزير ويكون امير طبلخاناه أو امير عشرة ، وتقابل في يومنا المدير او معاون الوزير (ولاة دمشق في عهد المماليك ص٢٦).

ـ موقع الدست هو الذي يجلس مع كاتب السر بدار العدل أمام السلطان او النائب بمملكة من الممالك (المنتقى من صبح الاعشى لعبد القادر زكار ٦٢/١).

(٢٨) انباء الغمر ، ص ٢٩٥ .

(٢٩) ابن قاضي شهبة ، التاريخ ، مجلد ٣ من المخطوط ، (تح) عدنان درويش ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ١٩٧٧ ص ٤٤٦

(٣٠) ابن حجر (أحمد بن علي) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج٤ (تح) محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦ ص٢٠٧-٢٠٨ .

(٣١) السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللامع ،ج١٠، مكتبة المثنى ، القاهرة ١٣٥٤ هـ ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٣٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج٣، قسم ١ ،تح سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٨٠ ص١٢٨.

(٣٣) الوافي بالوفيات ، ج٣ ص١٨.

(٣٤) الدرر الكامنة ، ج٤ ص ٢٦٦ . ابن فرحون(علي بن محمد) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، ج٢ ، (تح) محمد الاحمدي ابو النور ، القاهرة ١٩٧٤ ص ٢١٧ . الداودي (محمد بن علي) طبقات المفسرين ، (تح) علي محمد عمر، الطبعة الاولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٢ ص ٢٢١ .

(٣٥) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣١.

(٣٦) ابن القاضي (أحمد بن محمد) ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال في اسماء الرجال ،ج٣، (تح) محمد الاحمدي ابو النور ، طبعة القاهرة وتونس ١٩٧١ ص ١٨٧ .

(٣٧) المرجع السابق ج١ ص ٤٧.

(٣٨) ابن قاضي شهبة ، مجلدا ج٣ ، ص ٤١٣ .ابن تغري بردي (يوسف الاتابكي) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب بوزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر ، ص ٨.

(٣٩) انباء الغمر ، ج١ ص ٣٠ .

(٤٠) السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج٢ قسم ١ ،ص ٣٢٤ .

(٤١) كتاب العبر ج٧ ص ٤٥٢ وما بعدها . انباء الغمر ج ٢ ص ٢٣٩-٢٤٠ . الضوء اللامع ج٤ ص١٤٥ وما بعدها . شذرات الذهب . ج٧ ص٧٦-٧٧ .

(٤٢) النجوم الزاهرة ،ج١٥ ص ٤٦٨.

(٤٣) السخاوي ، التبر المسبوك في ذيل السلوك ،القاهرة ، (ب.ت) ص٣٧-٤٠.

(٤٤) الضوء اللامع ، ج٨ ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٤٥) السخاوي ، الذيل على رفع الاصر ،(تح) جودت هلال ومحمد محمود صبح ، الدار المصرية للتأليف والنشر (ب.ت) ص ٢٥٨ وما بعدها.

(٤٦) الضوء اللامع ، ج٩ ص ٢٦٩ .

(٤٧) الذيل على رفع الاصر ، ص ١٩٨ وما بعدها. الضوء اللامع ج٦ ص ٧٦ وما بعدها .

(٤٨) الضوء اللامع ، ج١ ص١٦١ وما بعدها .

(٤٩) انظر حول هذا الامر : النجوم الزاهرة ، ج١٣ ص ٣٩-٤٠.

(٥٠) انباء الغمر ،ج١ ص ٤١٨.

(٥١) المرجع نفسه ، ج ١ص ٢٧٤ .

(٥٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ قسم ١ ، ص ٢٧٢-٢٧٣ .

(٥٣) النجوم الزاهرة ، ج١٤ ص ٣٢٤ وما بعدها.

(٥٤) المرجع نفسه ،ج١٤ ص٤٠ وما بعدها .

(٥٥) المرجع نفسه ،ج١٤ص٣٤٥-٣٦٢ .

(٥٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٢ قسم ٢ص ٨٨٨ .

(٥٧) ابن الابار (محمد بن عبد الله) المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ، القاهرة ١٩٦٧، ص٣٤-٢٣٥٣ .

(٥٨) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ قسم ١ ص٢٢٦ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ج٢ قسم ٣ ص ٥٩٤

(٦٠) ابن قاضي شهبة ، مجلد ١ج٣، ص ٥٠٩ ومابعدها . انباء الغمر ، ج١ ص ٤٧٠ .

(٦١) ابن جبير (محمد بن احمد) رحلة ابن جبير،دار صادر ، بيروت ١٩٥٩، ص٢٤-٢٥ .

(٦٢) ذيل مرآة الزمان ،ج٣ ص٨٦.

(٦٣) ابن كثير (اسماعيل بن عمر) البداية والنهاية ، ج١٤، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٣ص٥٥ .

(٦٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ قسم ١ ص١١٣.

(٦٥) المصدر نفسه ، ج٣ قسم١ ص ١٢٩ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ص١٥٩ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ص ١٧٥-١٧٦

(٦٨) المصدر نفسه ص ٤٢٠ .

(٦٩) التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص ١٢٨.